

رواية
أحمد ناصر
المُستعمرة
لن تسقط القاهرة مرتين



# المُستعمرة

لن تسقط القاهرة مرتين






٦ عمارات العبور، صلاح سالم، مدينة نصر، القاهرة
01007224444 - 011 219 023 69
Tabark.ma12@Gmail.Com
tabarakpublishing.com

**المستعمرة: لن تسقط القاهرة مرتين**

روايـــة - أحمـــد ناصـــر

الترقيم الدولي:٦ - ٣١ - ٦٧٣٥ - ٩٧٧ - ٩٧٨
إيـداع / مصـر: ٢٧١٩٨ / ٢٠١٩



الغـــلاف: إســـلام أحـــمـــد - الإخـــراج الداخلـــي: يـــوسف الفرمـــاوي



رواية

أحمد ناصر

# المُستعمرة

لن تسقط القاهرة مرتين





« وما الذي يبرع فيه الإنسان غير الشر والدمار؟!».

****

«لماذا لا نكتب في خانة الإنجازات كيف تركنا البيت القديم؟ وكيف انتقلنا من مدرسة إلى أخرى، كيف اكتشفنا الخدعة تلك؟ كيف خبأنا مشكلتنا عن قلوب أمهاتنا وتحملنا المسؤولية وحدنا بهدوء؟ كيف تصرفنا بأول يوم في الجامعة؟ وكيف تصرفنا بشجاعة عندما أجبرتنا الظروف أن نسلك طريقًا لا نحبه؟ كيف احتوينا حزن صديق؟ وكيف قُلنا أول كلمة عزاء، وأول كلمة مبروك؟ لماذا لا نضع في خانة الخبرات تحديدًا كيف صبرنا على موت أقرب الأحباء إلى قلوبنا؟ وكيف واجهتنا الحياة بعدهم؟».

****



اسمي صادق محمود عبد الهادي، إن كنت تقرأ هذا الخطاب الآن فهذا يعني أنني قد ذهبت إلى نهاية رحلتي محققًا كامل أهدافي في هذه الحياة القميئة والمزرية، تلك الحياة التي لم تعطني أي شيء بل أنا من انتزعت منها كل شيء.

لأكون اسمًا على مسمى، في الواقع أنا لا ولم أعلم أبدًا ما هي أهدافي التي تحركت من أجلها.

فقط كل ما أردته هي القاهرة، والقاهرة فقط.

قاهرة قوية، موحدة، مُستقلة، يحكمها أهلها. فقط أهلها.

أما عن دوافعي فلا أعلم عنها شيئًا قط، كانت العديد من الدوافع تحركني وقتها.

خليط غريب من المشاعر لا أعلم أيهم كان المحرك الأبرز لما قمت به وقتها.

ربما الحب، الغضب، الدم، شهوة الانتقام. حقًّا لا أعلم.

لذلك سأحكي لكم.

كنت أعمل في شركة أمنية تدعى (الحراس) هذه الشركة تابعة لشركة أخرى تسمى (أمريكان جينوم).

الشركة الأولى مهمتها هي حراسة مقار الشركة الثانية وكذلك موظفيها ومنتسبيها وذويهم.



أما الشركة الثانية فهي شركة أمريكية مختصة بدراسة علم الجينات والهندسة الوراثية وزراعة البذور الأرضية في بيئات قاسية غير مناسبة لنموها كأعماق المحيطات، سطح القمر وكذلك سطح المريخ.

بالمناسبة تلك الشركة -أمريكان جينوم- هي أحد أكبر الكيانات الاقتصادية في العالم، وتتحكم في تحديد هوية رؤساء ثلاث أو أربع دول عظمى دون مبالغة.

بدأت القصة عام ٢٠٤٠ م حيث اندلعت الشرارة الأولى للحرب العالمية الثالثة.

كنت وقتها من ضمن الجنود المكلفين بحراسة مقر الشركة في القاهرة حين أتتني رسالة تفيد بتفعيل البروتوكول الأمني رقم ٩.

هذا البروتوكول ينص على قيام الحراس بعمليات إجلاء سريعة لأسر موظفي الشركة من سكان القاهرة وضواحيها إلى داخل مقراتنا الآمنة والمحصنة ضد الهجمات النووية والبيولوجية.

وانطلقت دوريات الحراس المسلحة تجوب شوارع القاهرة المخيم عليها ظلال الحرب؛ لانتشال عائلات وأسر هؤلاء الموظفين المحظوظين من وبال القتال والدم إلى حيث يتواجد الأمن.



لم يكن مقر شركتنا مقرًا عاديًا، بل يعتبر مدينة صغيرة بداخل القاهرة، أو كما يمكن أن نطلق عليه منتجعًا سياحيًا ذا خمس نجوم، أو (كمبوند) كما أطلق عليه أثرياء القوم في مطلع الألفية الجديدة.

فكان المقر يحتوي على سكن للموظفين وأسرهم بجانب منطقة ترفيهية. وأيضًا توجد بها المعامل والمختبرات وسكن الحراس وحتى بعض المتاجر ذات العلامات التجارية العالمية، الأهم من ذلك هو وجود مخزون هائل من الطعام المعلب والمياه النظيفة ومواد الإعاشة التي تصلح لإبقاء أكثر من ألف شخص على قيد الحياة لمدة تزيد على العام.

سور طويل عالٍ يتجاوز ارتفاعه الخمسين مترًا وعليه أكثر من مئتي وخمسين مقاتلًا مدججين بالسلاح ومدربين لحماية مقر الشركة من حالات النهب والسلب والسطو التي انتشرت بعد الفراغ الأمني الذي حدث فور اندلاع القتال وحتى نهايته، فلولا ذلك السور مع المدافعين عنه لما صمدت المستعمرة «ب».

بالمناسبة المستعمرة «ب» هو الاسم الذي تم إطلاقه على مقر الشركة في القاهرة بمجرد تفعيل البروتوكول الأمني رقم ٩.



انتهت الحرب فجأة كما بدأت فجأة وتفاجأ الجميع مثلما تفاجأت أنا بأن شركتنا هي الكيان الوحيد المنظم، المسلح، الممتلك لموارد وكفاءات بشرية ومخزون من الغذاء صحيح أنه ليس بالضخم، لكن شركتنا العزيزة اختصاصها الوحيد هو صنع الغذاء في ظروف بيئية صعبة، ومن حسن حظنا أن السلاح النووي لم يستخدم بكثرة في هذه الحرب بل استخدم بطرق تكتيكية أكثر منها مُدمرة وكأن البشر يريدون فرصة للراحة من أجل الحرب الرابعة التي قد تكون مفنية للحضارة البشرية.

كانت مشكلتنا الوحيدة وقتها هي نقص الكفاءات البشرية بعد عمل حصر سريع ودقيق للمهن التي تنقصنا لعملية إعادة البناء كالمعلمين والأطباء والمهندسين.

لذلك قرر حاكم المستعمرة الذي كان رئيس مجلس إدارتها قبل نشوب الحرب العالمية الثالثة وبالمناسبة فهو مصري ويحمل الجنسية الأمريكية أيضًا، خروج الحراس في دوريات راكبة وراجلة تجوب أنحاء القاهرة للبحث عن ناجين محتملين قد يفيدون المستعمرة بأي طريقة كل في مجاله.

بل حتى إنه قد أمر بخروج سبع طائرات مروحية دفعة واحدة من أصل عشر كانت موجودة في مقرنا من

أجـل مسـح مدينـة القاهـرة شـبه المهدمـة لتسريـع عمليـة البحـث عـن ناجـين جـدد محتملـين.

ونجحـت الخطـة وبـدأ الحـراس يوميًّـا عـلى مـدار أسـبوع كامـل بالإتيـان بعـشرات الناجـين؛ أطبـاء ومهندسـين وبنائـين ومعلمـين وعسـكريين سـابقين!!

حتـى إن هنـاك أفـرادًا قـد بـدؤوا يتوافـدون وحدهـم عندما علمـوا أن مقـر شركتنـا يقـدم الطعـام والمـلاذ الآمـن والعلاج.

وبعـد فـترة امتـلأت المسـتعمرة تمامًـا ولم تعـد قـادرة عـلى اسـتقبال أي ناجـين جـدد، فقـرر الحاكـم غلـق بوابـات المسـتعمرة وتعزيـز دفاعـات أسـوارها ونـشر الحـراس عليهـا لمنـع أي عمليـات تسـلل قـد تحـدث لهـا مُسـتقبلًا.

وبنـاءً عـلى هـذا أصبـح سـكان المسـتعمرة ينقسـمون إلى خمسـة أقسـام متفاوتـين في درجـة الأهميـة والاهتـمام.

القسم الأول:-

الحاكم ومجلس الإدارة.

القسم الثاني:-

المجلـس الرقـابي الـذي تـم إنشـاؤه لمراقبـة سـاعات عمـل المواطنـين وتقييمهـا وتحديـد الثـواب والعقـاب بنـاء عـلى هـذا التقييـم.

القسم الثالث:-

الحراس.

القسم الرابع:-

موظفو الشركة وذووهم.

القسم الخامس:-

الوافدون الجدد.

للأسف لم نستطع العيش معًا، ولم نتقبل بعضنا بعضًا، وكانت كل فئة تنظر إلى الفئة الأخرى نظرة دونية.

أنا وحدي من حاولت أن أجعل الكل يعيش بسلام.

حتى الآن لا أدري هل نجحت أم لا؟

هذا ما سوف تقررونه أنتم.

**صادق محمود عبد الهادي**

**المستعمرة ب- القاهرة**

**٢٠٥٠م**

*****



# عام ٢٠٤٠م

**مقر شركة (الحراس) التابعة لشركة (أمريكان جينوم).**

صافـرات الإنـذار تـدوي بصـوت حـاد مزعـج في الممـر الطويـل الضيـق الـذي يحتـوي عـلى خمـس غـرف صغـيرة.

في إحـدى تلـك الغـرف الصغـيرة ذات الجـدران الرماديـة اللـون والسـقف المنخفـض، وفي منتصفهـا رفـوف حديديـة معلـق عليهـا عـدة بنـادق حديثـة.

كان صـادق يرتـدي درع الحـراس المميـز الواقـي ضـد الرصـاص والموجـات الفراغيـة الناشـئة مـن الانفجـارات ذات اللـون الأسـود القاتـم وناحيـة القلـب يوجـد شـعار الحـراس نـسر ذهبـي كبـير يحلـق فـاردًا جناحيـه.

ويحكـم إغـلاق خـوذة رأسـه المشـابه لونهـا للـون الـدرع وفي مقدمتهـا يوجـد نفس الشـعار.

بينـما كان زميلـه الآخـر راضي يثبـت يـده اليمنـي عـلى خوذتـه ضاغطًـا زر الاتصـال فيهـا ليتلقـى التعليـمات بخصـوص عمليـة إجـلاء أسرة أحـد أعضـاء مجلـس إدارة الشركـة مـن قلـب القاهـرة المُشـتعلة نتيجـة قصـف قـوات التحالـف الشرقـي المكـون مـن (روسـيا والصـين وإيـران وكوريـا المُوحـدة).

هزّ الأخير رأسه وهو يغمغم:

- عُلم وجارٍ التنفيذ.

أنهى اتصاله ثم ألقى نظرة أخيرة على درعه ومعداته ثم التفت إلى صادق قائلًا له:

- لقد تلقيت تعليمات المهمة، وخزنت إحداثيات الموقع المطلوب الذهاب إليه. سنستقل المركبة رقم سبعة، وسننطلق بعد عشر دقائق من الآن.

نهض صادق والتقط إحدى البنادق الآلية الحديثة وتأكد من جاهزيتها للعمل وهو يقول لرفيقه:

- لننطلق الآن.

وخرج الاثنان من الغرفة مهرولين.

******



## المستعمرة ب.
## عام ٢٠٤٢م.

في إحـدى الليـالي المقمـرة، سـقط ضـوء القمـر كخطـوط بيضـاء شـفافة تحـاول بيـأس إنـارة ليـل القاهـرة الحالـك السـواد.

كانـت الريـاح تهـب بعنـف شـديد محملـة بروائـح كبريتيـة نفـاذة.

وفي الأفـق تتجـلى أنـوار بسـيطة مصدرهـا النـيران التـي أشـعلها أهـل الأطـلال في محاولـة منهـم لجلـب الضـوء وبعـض الـدفء.

عـلى سـور المسـتعمرة الرئيـس آخـر المعاقـل المتحـضرة للبشريـة في مدينـة القاهـرة المنكوبـة.

وقـف حارسـان في آخـر سـاعة مـن نوبـة حراسـتهما الليليـة، يتبـادلان الحديـث في مـا بينهـم في محاولـة منهـم لكـسر حالـة الملـل والسـأم التـي تسـيطر عليهـما.

كانـا مُدرعـين بالكامـل مـن أعـلى رأسـيهما حتـى أخمـص قدميهـما بـدروع قويـة سـوداء اللـون تسـتطيع تمييـز شـعار الحـراس ذهبـي اللـون المميـز عليهـا في منتصفهـا تمامًـا.

- أعتقـد أن البـشر قـد اسـتطاعوا بطريقـة أو بأخـرى بالحفـاظ عـلى جـزء مـن حضارتهـم. وأن تلـك المسـتعمرة التـي

نقوم بحراسة سورها الآن هي النواة الأولى لمشروع إعادة إحياء تلك الحضارة البائسة، أنا متأكد أن دورنا لا يقل أهمية عن دور نوح وسفينته التي أنقذت البشر فيما سبق من الطوفان العظيم الذي اجتاح الأرض يومًا ما.

قالها الحارس الأول لزميله وهو يدقق النظر في نقطة ما من الفراغ الذي أمامه ويبدو أنه يمتد إلى نهاية العالم.

يسأل الحارس الثاني:

- هل تعتقد حقًّا بوجود أنبياء ورسل وإله وكل تلك الأشياء، لقد تمنيت حقًّا أن أرى رحمة هذا الإله تتجلى علينا أثناء الحرب ولكني لم أرها. لم أرَ منه أي شيء.

صمت لحظات ثم استطرد بصوت متهدج:

- لقد كنت مؤمنًا به من قبل، أما الآن أنا لا أشعر به حتى.

قالها مختتمًا حديثه بمرارة تقطر من حروف كلماته.

رد الحارس الأول:

- هناك إله بالطبع ولكنه يفضل عدم التدخل بشؤوننا، أنا أعتقد أنه قد نسينا.

قالها متهكمًا.

ثم أخذ شهيقًا عميقًا ملأ به رئتيه ثم قال بحماس:

- أو ترى شيئًا يا رجل أنا أعتقد أن البشر هم آلهة

أنفسـهم يـا صديقـي، لقـد أفنينـا حضـارات وأبدنـا شـعوبًا وهـا نحـن الآن نبـدأ معركـة بعـث تلـك الحضـارات مـن جديـد مـرة أخـرى.

مـن أحـد أركان درعـه التقـط لفافـة تبـغ غـير مسـتقيمة مـن أثـر وجودهـا داخـل الـدرع لفـترة طويلـة.

دسـها بـين شـفتيه وأشـعلها ثـم سـحب منهـا نفسًـا عميقًـا محرقًـا رئتيـه وأخرجـه في هيئـة سـحابة دخانيـة كثيفـة.

قال له زميله محذرًا إياه:

- مـن الأفضـل أن تدخـن لفافتـك بعيـدًا عـن تلـك المنطقـة المواجهـة لسـكن المواطنـين فقـد يرونـك، وأنـت تعلـم صعوبـة حصولهـم عـلى التبـغ.

سـحب الحـارس نفسًـا عميقًـا آخـر مـن لفافتـه ثـم نفثـه في وجـه زميلـه وهـو يقـول لـه:

- لا يهم فأنا الآن إله.

******



# شوارع القاهرة عام ٢٠٤٠م

الجو خانق وحار في المركبة. ثقل الدرع والخوذة يزيد من خنقة الجو وحرارته ويبطئ أنفاس الحراس.

صادق كان يقود المركبة وبجواره راضي ممسكًا بشاشة بلورية رُسم عليها خريطة إلكترونية تفصيلية لشوارع القاهرة مع العديد من النقاط والمسارات التي توضح لهم خط سيرهم ولتدلهم على موقع المنزل المراد إجلاء أسرة عضو مجلس الإدارة منه.

كانت المركبة تسير بأبطأ سرعة يستطيع صادق السير بها وسط حالة الفوضى التي تضج بها شوارع القاهرة.

كان القصف قد طال العديد من شوارع القاهرة.

أصوات الرصاص والمضادات الأرضية لا تصمت.

العشرات يركضون في كل ناحية وفي كل اتجاه يهربون من لا شيء إلى اللاشيء.

هم أموات قبل الحرب وأموات أثناء الحرب وأموات بعد الحرب.

المصريون أموات منذ أن خرجت مصرهم من عباءة الفراعنة.

عشرات الجثث ملقاة على الأرض. والمئات من المصابين يسبحون وسط بركة من الدماء والأطراف والأشلاء.

أقسم صادق لراضي أنه قد دهس جثة أحدهم للتو لكن الثاني لم يبالِ.

الحي باقٍ عن الميت.

فلو كان من دهسته ميتًا فلن يضير الشاه سلخها بعد ذبحها.

ولو كان مصابًا فلن ينجو من إصابته فلن يستطيع أي أحد انقاذه، ولن تستطيع أي وسيلة إسعاف أو إغاثة نجدته.

الوضع يزداد سوءًا وسخونة، دوي الانفجارات يقترب أكثر فأكثر، وأصوات الطائرات التي تنتهك حُرمة السماء المصرية تصم الآذان.

بينما كانت وسائل الدفاع الجوي المصري تمطر السماء بصواريخها وقذائفها محاولة إسقاط أعداء وهميين.

الرصاصات تتطاير في كل مكان.

شوارع القاهرة كما كانت دائمًا.

لا يفوح منها سوى رائحة الموت والدماء.

******



# المستعمرة «ب»
# عام ٢٠٤٢م

طبع صادق قبلة على شفاه الفتاة العارية المستغرقة في النوم إلى جواره، ثم أزاح الغطاء عن جسده لينهض من على فراشه متثائبًا مُطمئنًّا.

يسير في كسل وخمول شديد إلى مقعد مجاور له ألقيت عليه ملابسه بإهمال شديد.

التقط ثيابه وارتداها وآثار النوم والخمر الرديء والتبغ الأردأ تعبث في رأسه وفي ثنايا عقله المُجهد من الأساس.

تاركة إياه يعاني من نوبة صداع نصفي تكاد تجعله يضرب رأسه في الحائط حتى يخف نبض الألم في رأسه.

أكمل طريقه عائدًا إلى السرير ليجلس على طرفه وفي المرآة المقابلة لسريره الصغير يرى ملامح وجهه التي كان يتخوف دائمًا من تأمله.

ذلك الوجه الوسيم حاد القسمات، البشرة القمحية والأعين السوداء التي ما زالت تحمل نذرًا يسيرًا من هيبة كان يتمتع بها في أحد الأيام.

الشعر الفاحم الذي تنسدل منه خصلات نافرة على جبينه، الذقن الأسود الكثيف الذي تخللته شعيرات بيضاء لتضيف على سنوات عمره الأربعين عمرًا إضافيًّا.

شعر بحركة الفتاة المتململة تأتي من خلفه لتعلن عن استيقاظها ولكنه لم يبالِ بها. التقط علبة معدنية صدئة من الكومود الذي بجواره وأخرج منها لفافة تبغ، تناثر من مقدمتها التبغ ساقطًا بمجرد أن دسها بين شفتيه.

أطلق سبة بذيئة ثم أشعلها وسحب منها نفسًا عميقًا ضاخًّا النيكوتين إلى رئتيه ثم قال بصوته الحاد ساخرًا:

- التبغ سيئ جدًّا، ليس كالتبغ الذي قد اعتدت تدخينه عندما كنت من الحراس، نحن ندخن بقايا تبغ الحراس والمجلس الحاكم، تبًّا لهؤلاء القوم.

في المرآة لمح الفتاة تنهض بدورها من على الفراش محيطة جسدها بملاءة بيضاء خفيفة وهي تقول بصوت ناعم مبحوح يشعرك بالإثارة:

- أنت لم تتغير يا صادق ما زلت لا تكف عن الشكوى كأي طفل صغير ملول.

رد متبرمًا:

- أنا لست ملولًا يا عزيزتي، ولكن أتعجبك هذه الحياة التي نعيشها هنا، أتعجبك أوضاعنا الحالية؟!

بدأت في ارتداء ملابسها وهي تعطيه ظهرها فتابع هو في حنق شديد:

- لقد وقع الجميع هنا في حب كل ما يمكنه أن يدمر حياة الإنسان، لقد كنت من حماة هذه المستعمرة اللعينة منذ اللحظة الأولى لميلادها، وشاهدت كل تغيير قد طرأ على شخصية سكانها الأوائل أو الجدد. رأيت تحول السكان الأوائل من أشخاص خائفين مرتعبين يتمنون أن يعطيهم المستقبل بعض الخير الذي طالما سلبه منهم المتنمرون يهددون بعضهم بعضًا بالسلاح أو السجن أو النفي أو إبلاغ المجلس الرقابي. نحن نزداد قبحًا يومًا بعد يوم أيتها المرأة.

التفتت له الفتاة وقد ارتسم تعبير مستنكر على وجهها المليح دقيق الملامح وهي تقول بما ترجمه وجهها:

- نحن آخر البشر المتحضرين في مصر تقول علينا قبيحين. جيد فلتخرج الآن من هنا وشاهد بعينيك العالم القبيح فعلًا من حولك.

رد عليها وهو يلقي عقب لفافة تبغه باتجاهها:

- لا يوجد فارق لدي بين ما يوجد داخل تلك الأسوار وبين ما يوجد خارجها، العالم كله أصبح كئيبًا قبيحًا بالنسبة إليّ.

ثم أضاف بلهجته الساخرة المعتادة:

- لقد أصبح العالم كله كمصر.

فقالت له محاولة تهدئته بعدما استشعرت بثورة

الغضب العارمة التي تجتاح صدره:

- حبيبي، نحن نحاول بعث حضارتنا الماضية من الرماد، يجب أن نصمد ونصبر، ما تم هدمه ليس بالقليل ويستلزم الكثير من الوقت والجهد ليتم إصلاحه وإرجاعه إلى سابق عهده.

صمت لحظات ثم رد بمرارة:

- تريدون نهضتها من الرماد، حسنًا هذا حقكم الشرعي بالطبع، لكن أين هو الرماد الذي ستنهض منه هذه الحضارة العفنة؟

هدأ للحظات انتظمت فيها أنفاسه المضطربة وسكنت حدته وعاد يقول بهدوء:

- بعث الحضارة من الرماد. هذا هو شعار مستعمرتنا الجميلة يا عزيزتي يبدو أنك تداومين على حضور جلسات التوعية التي ينظمها المجلس الرقابي أسبوعيًّا، سيزيد هذا من نقاطك بنهاية الشهر، تهانينا.

ابتسمت الفتاة رغمًا عنها ولانت ملامحها قليلًا فازدادت جمالًا، اقتربت منه بخطوات لا يكاد يحس بها، طبعت قبلة على جبينه وهي تنظر إلى الساعة الرقمية الكبيرة المعلقة على أحد جدران غرفته وهي تقول له بصوت هادئ:

- هيا يا صغيري لقد حان وقت الذهاب إلى العمل،

حتى لا يكتب المشرف أنك تأخرت عن العمل في تقريره الأسبوعي الدوري إلى المجلس الرقابي وقد يتسبب هذا في تقليل حصص طعامك الأسبوعية.

أشاح بنظره بعيدًا عنها:

- لقد سئمت من كل شيء. من معاملة الحراس السيئة لنا، من حصص الطعام القليلة، من عدد ساعات العمل التي لا تنتهي أبدًا، من المجلس الرقابي ومن هؤلاء الرجال ذوي المؤخرات السمينة الذين يتحكمون في مصائرنا ونحن كالخراف. لقد سئمت.

ثم نظر إلى عينيها:

- حتى أنت لولا أن الجميع يعلم أنك رفيقة لأحد الحراس السابقين لما كانوا أعطوكِ أي امتياز إلا بعد مضاجعتك.

أمسك علبة تبغه الصدئة التقط منها لفافة بعصبية شديدة تناثر منها التبغ فرماها أرضًا هي والعلبة بعصبية شديدة لتنتفض الفتاة فزعًا وتبتعد عنه وهو يقول بصوت أقرب إلى الصراخ:

- وهذا التبغ الرديء سئمت منه أيضًا.

نظر إلى عينيها وقد ترقرقت الدموع فيهما وبعد لحظات غمغم من وسط بكائه:

- حتى أنتِ قد سئمت منك.

*****

«سنصل إلى موقع الهدف خلال عشر دقائق، استعد يا صديقي».

قالها راضي لصادق الذي كان منهمكًا بكل حواسه في متابعة ما يجري حوله ولم تمضِ لحظات حتى سمع الاثنان صوت صافرة حادة قصيرة صادرة من الخريطة الإلكترونية التي يحملها راضي لتعلن عن وصولهم إلى الجهة المنشودة.

نظرا بعضهما إلى بعض وأوقف راضي المركبة ثم ترجلا منها.

تحسس صادق سلاحه المعلق على رقبته. تقدم نحو باب المنزل المنشود وهمّ بضغط زر الجرس.

لينفتح الباب فجأة كاشفًا عن امرأة في العقد الرابع من عمرها تقف على عتبته، يبدو عليها الفزع والقلق ومعها طفلة صغيرة لم تتجاوز العاشرة من عمرها.

كانت المرأة تحمل حقيبة واحدة صغيرة بينما تحتضن الصغيرة دميتها في خوف واضح.

وقالت بصوت يغتصبه الخوف والوجل:

- لقد أخبرني زوجي بقدومكم، جلست أراقب باب المنزل عن طريق كاميرات الأمن في انتظاركم.

وأشارت إلى كاميرا صغيرة مثبتة أعلى باب المنزل.

قال راضي وقد بدأ يتوتر خصوصًا مع ازدياد أعداد الراكضين من حولهم، واقتراب دوي الانفجارات منهم إلى حد كبير:

- سيدتي، لا بدَّ لنا من التحرك الآن، بقاؤنا هنا فيه خطر كبير علينا.

ودون انتظار ردها هرول صادق إلى مقعد السائق ليحتله في حين ساعد راضي السيدة وابنتها على حمل الحقيبة والتأكد من دخولهم المركبة بأمان.

وبعد أن اطمأن راضي على السيدة وابنتها احتل المقعد الثاني بجوار صادق. الذي انطلق من فوره بالمركبة بأقصى سرعة تستطيع بها المركبة السير وسط الفوضى العارمة التي تحيط بهم.

ولم يمضِ على بداية تحركهم سوى بضع دقائق حتى دوّى الانفجار.. وعم السكون كل شيء فجأة.

*****

انتهـى صـادق مـن سـاعات عملـه في إحـدى صـوب المسـتعمرة الزراعيـة متأخـرًا كديدنـه، حيـث كان آخـر الآفلـين مـن موقـع العمـل داخـل الصوبـة.

بشـدة أراد أن يشـعل لفافـة تبـغ، لكـن التدخين في الشـوارع العامـة جريمـة أخلاقيـة قـد تكلفـه نصـف حصـة طعـام يومـه ونصـف سـاعة أخـرى مـن العمـل الشـاق. صحيـح أن الشـوارع خاليـة لأن المُسـتعمرة بأكملهـا الآن في سـاعة وجبـة الغـداء والراحـة لكـن شـبكة الكامـيرات الموضوعـة في كافـة أركان المُسـتعمرة تضعـك تحـت أعـين المُراقبـين طـوال الوقـت حتـى ولـو لم تتواجـد دورياتهـم في الشـوارع.

المراقبـون، أنـت تحـت طائلتهـم دائمًـا، سـتعاقب مهـما فعلـت، حتـى ولـو لم تكـن قـد ارتكبـت أي جـرم قـد يعاقبونـك دون إبـداء أي أسـباب لأنـك في نظرهـم مواطـن غـير مُطيـع.

هـز رأسـه غاضبًـا محـاولًا نفضـه مـن الأفـكار التـي تسـكن داخلـه وتابـع المـشي في شـوارع المسـتعمرة الخاليـة في هـذا الوقـت.

كانـت المسـتعمرة مقامـة عـلى مسـاحة كبـيرة داخـل مقـر شركـة (أمريـكان جينـوم)، شـوارعها متوازيـة، معبـدة، مزروعـة بالأشـجار عـلى الجانبـين.

في أول المستعمرة وراء الأسوار مباشرة توجد منازل المواطنين وهي تحتل عشرة شوارع من أصل سبعة عشر شارعًا فيها.

كانت المنازل على الطراز المعماري الأمريكي، بعض المنازل كانت تتكون من طابق واحد فقط، والبعض الآخر من طابقين.

بعد الشوارع العشرة الأولى يوجد أكبر شوارع المستعمرة الذي يحتوي على مقر الحاكم ومقر المجلس الرقابي، الشارعان التاليان يحتويان على المختبرات والصوب الزراعية والمستشفى ومخازن الطعام والقاعة الترفيهية الكبيرة وخمس قاعات للأكل.

أما بقية الشوارع فتحتوي على مقار الحراس وسكنهم ومخازن الأسلحة والذخيرة.

ومرابض المدرعات والمركبات العسكرية بالإضافة إلى مهبط مروحيات يحتوي على ثلاث طائرات مروحية.

كان صادق يسير عدة مئات من الأمتار يوميًّا من مكان عمله إلى قاعة الأكل.

في البداية كانت هناك وسائل للتنقل بين شوارع المستعمرة الكبيرة عبارة عن عربة صغيرة تتسع لأربعة أفراد تسير بالطاقة الشمسية، لكن مع ازدياد أعداد

المواطنين أصبحت هذه الوسيلة قاصرة فقط على الحراس والدوريات التابعة لهم وعلى أعضاء مجلس الحكم والمجلس الرقابي.

مما جعل صادق مضطرًّا للسير إلى مسافات طويلة.

وصل صادق أخيرًا إلى إحدى قاعات الطعام الكبيرة المخصصة لشارعه. فلكل شارعين من شوارع المواطنين قاعة طعام واحدة يتقاسمونها في ما بينهم.

بينما الحراس والمجلس الحاكم والمجلس الرقابي لهم قاعات أخرى يمنع من دخولها المواطنون العاديون بتاتًا.

دخل من باب القاعة الكبير ليطالعه وجه مراقبها بملامحه القبيحة الصارمة وسترته الزرقاء القاتمة التي تميز فئة المراقبين وهو يقول له بلهجة روتينية جافة:

- لديك سبع دقائق تأخير أيها المواطن، هذه ثاني مرة لك هذا الأسبوع سيكتب هذا في تقريرك الشهري المقدم إلى المجلس الرقابي، وثق بأنك ستتلقى العقوبة المناسبة لهذا الفعل.

نظر له صادق وهو يعض شفتيه كاظمًا غيظه وقال له:

- تأخري عن الأكل يعرضني للمساءلة، أنا من سيأكل

ولست أنت أيها المراقب، أهي معدتك أم معدتي التي ستقرقر من الجوع.

دون أن يعيره أي اهتمام نقر المراقب على الحاسوب اللوحي الذي في يده وعلى وجهه ارتسم التشفي واضحًا.

شعر صادق باهتزاز سوار يده الذي يرتديه. فرفعه ليرى في شاشته الكريستالية رسالة نصية تقول:

«المواطن رقم ١٠٠٧ لقد تلقيت مخالفتين في يوم واحد: التأخر سبع دقائق عن موعد الطعام الرسمي؛ التلفظ بألفاظ غير لائقة في حضرة أحد المراقبين.

ولذلك ننوه بأنك مستدعى إلى مقر المجلس الرقابي غدًا بعد إتمام ساعات عملك الرسمية.

المجلس الرقابي».

أعاد صادق نظره إلى المراقب الذي قال بجدية وبلهجة صادقة:

- صادق الأمر ليس شخصيًّا صدقني، أنت مشاغب وكافر بالأنظمة والقوانين وتتعامل معها باستهزاء شديد، وهذا قد يضر بنية مجتمعنا الهادئ المسالم.

قال صادق ساخرًا:

- الهادئ المسالم.. والخاضع.

لم يعره المراقب اهتمامًا للمرة الثانية ولكنه أشاح بنظره بعيدًا عنه، فمخالفة أخرى إضافية لصادق الآن كفيلة بحبسه لمدة طويلة للغاية.

كذلك لم يرد صادق التورط في مزيد من المتاعب فترك المراقب متوجهًا إلى طاولة تسلم الوجبات.

فقابله المسؤول وأعطاه بطاقته التعريفية.

ليضعها المسؤول في جهاز أمامه وقرأ ما ظهر له على الشاشة بصوت مرتفع:

- صادق عبد الهادي – الرقم ١٠٠٧.

وجبتك هذا الأسبوع كاملة على غير العادة، ستحسد من أجل هذا.

ابتسم له صادق دون أن يرد فأدار له المسؤول ظهره وأخرج من داخل الحافظة علبة بلاستيكية ناولها له وهو يقول له:

- لكن في المرة القادمة التي ستأتي فيها لتأكل أنا متأكد أنك لن تأخذ سوى شيء تشربه فقط.

قالها وهو ينظر إلى مراقب القاعة في أولها ويبتسم لصادق، الذي أخذ وجبته وأخذ يجول ببصره قليلًا في أنحاء القاعة باحثًا عن وجه مألوف له يجلس بجواره بينما يتناول غداءه.

تحـرك بـين الطـاولات، الوجـوم مخيـم عـلى كل مـن في القاعـة، التعـب والإرهـاق تاركـين بصمتهـم واضحـة عـلى وجـوه الجميـع.
الخـوف يحتـل العيـون في فجاجـة واضحـة، صمـت ثقيـل جاثـم عـلى نفـوس وصـدور الجميـع.
الـكل يتحـاشى النظـر إلى المراقـب الـذي يجلدهـم بسـوط نظراتـه، مترقبًـا أن يتحـدث أحـد بصـوت مرتفـع أو أن يعـترض أحـد عـلى كميـة أو جـودة أو مـذاق الطعـام المقـدم لهـم كي يعطيـه مخالفـه ويتسـبب في عقابـه.
الـكل ينظـر في طعامـه فقـط، يأكلـون سريعًـا حتـى ينتهـوا مـن هـذا الفـرض المقيـت ثـم يذهبـون كلٌّ إلى منزلـه للنـوم والراحـة فغـير مسـموح لمواطنـي المسـتعمرة الأكل في منازلهـم، فالطعـام لـه مواعيـد. النـوم لـه مواعيـد. كل شيء وضـع بنظـام غـير قابـل للكـسر أو التغيـير.
وصـل صـادق أخـيرًا إلى إحـدى الطـاولات ووضـع عليهـا علبـة غدائـه وهـو ينظـر إلى الشـخص الوحيـد الجالـس عـلى الطاولـة وكان رجـلًا كبـير السـن أشـيب الشـعر يرتـدي عوينـات طبيـة، تبـدو عـلى ملامحـة طيبـة زمـن بائـد لـن يعـود أبـدًا.
فبادره صادق الكلام ساخرًا:

- سأحبس نهاية هذا الأسبوع يا جدي مسعد، لن تجد من تتناول معه طعامك بعد الآن أيها العجوز.

ابتسم الرجل في وقار ولم يعقب على حديثه واكتفى بهز رأسه في أسى وحزن.

لم يكن مسعد هذا جدًّا لصادق بأي حال من الأحوال ففارق السن بينهما لا يتجاوز الخمسة عشر عامًا، ولكن صادق يحب هذا الرجل ويحب دائمًا مناداته بهذا اللقب.

بعد لحظات من الصمت تحدث مسعد بصوت شرخته السنون:

- ما زلت على عهدي بك يا صادق، تبحث عن المشاكل أينما حللت، وكأنها أكسجينك الخاص.

فتح صادق علبة غدائه وبدأ يلتهم الطعام بشراهة كبيرة ومن وسط فمه المليء بالطعام قال:

- يا جدي المشاكل هي التي ترافقني في أي مكان أذهب اليه، إنها تحبني، ولا تستطيع العيش من غيري.

صمت للحظات ليزدرد ما في فمه ثم استطرد:

- وأنا أيضًا لا أستطيع العيش دونها، بيننا قصة حب مُستعرة.

قالها ثم انفجر ضاحكًا فلكزه مسعد ليخفض صوته فعاد صادق يقول:

- أتعرف شيئًا يا جدي، لم يكن لي أصدقاء حقيقيون قط قبل قدومك إلى هنا.

نظر له مسعد وقال:

- رغم أن الحال هنا سيئة، لكن الحال في أطلال القاهرة أسوأ كثيرًا.

انتهى صادق من طعامه وواتته رغبة جامحة في إشعال لفافة تبغ لكنه قاومها في بسالة حقيقية يحسد عليها وهو يقول:

- الشيخ غنام.

أومأ مسعد برأسه إيجابًا في حين عاد صادق يقول:

- لن يكون أسوأ من السيد هاشم محجوب حاكم المستعمرة الحالي ورئيس مجلس إدارة شركة أمريكان جينوم السابق.

نظر له مسعد بعتاب وقال بصوت هامس:

- من قال إن الشيخ غنام ليس أسوأ من هاشم محجوب. الشيخ غنام مجرد رجل خارج عن القانون، كان يتاجر في الأعضاء البشرية وفي السلاح وفي الحبوب المخدرة وفي الخمور الرديئة محلية الصنع. لديه الرجال والسلاح أتتذكر ما قصصته عنه لك عند مجيئي إلى هنا كوافد جديد؟

رد صادق:

- أجل بالطبع، هذا الرجل استغل حالة الفوضى التي مرت بها البلاد أثناء الحرب. وعاث هو ورجاله فوضى وفسادًا في القاهرة حتى إنه قد سرق الأسلحة من أقسام ومراكز الشرطة والغذاء من المجمعات التجارية الكبيرة، وانضم له العديد من الرجال بأسرهم وأصبح لديه جيش كامل من الرجال المسلحين بكل شيء بداية من الهراوات الخشبية والمعدنية حتى بعض المدرعات الثقيلة التي سُرقت عند اندلاع القتال.

قال مسعد:

- صحيح لديه جيش ولكن أي جيش هذا، جيش من اللصوص والجوعى.

صادق:

- لكنه جيش على أي حال.

قال مسعد:

- وبهذا الجيش حكم غنام القاهرة، أحيانًا أشعر، ولن تصدق ما سأقوله لك الآن، ولكن صدقني أحيانًا كثيرة كنت أشعر أن هذا الرجل ينسى أنه مجرم سابق ويتقمص دور الحاكم.. العادل.

كان صادق لم يستمع إلى هذه النقطة من قبل فتساءل مُندهشًا:

- حاكم عادل. وكيف هذا؟

رد مسعد:

- هـل تعـرف أنـت في الأصـل، كيـف دانـت القاهـرة للشـيخ غنـام بالخضـوع والولاء؟

هز صادق رأسه نافيًا فتابع مسعد قائلًا:

- سـأحكي لـك. في أحـد الأيـام أثنـاء الحـرب الكـبرى. حدثـت مشـاجرة كبـيرة بـين مئـات الأفـراد مـن سـاكني القاهـرة عنـد بوابـة أحـد المجمعـات التجاريـة الكبـيرة التـي لم تنهـب بعـد، حيـث اختلفـوا في مـا بينهـم عـلى حصـص كل منهـم مـن المـواد الغذائيـة المنهوبـة. مـات الكثـيرون يومهـا. إلى أن وصـل خـبر المشـاجرة إلى الشـيخ غنـام الـذي تحـرك هـو ورجالـه المدججـين بالسـلاح إلى موقـع المشـاجرة في الحـال وقـام بفضهـا ووقـف بنفسـه يـشرف عـلى توزيـع المـواد الغذائيـة عـلى الأشـخاص الذيـن كانـوا يتشـاجرون في مـا بينهـم، ومـن يومهـا أصبـح هـو الحاكـم الفعـلي لأطـلال القاهـرة.

قال صادق ساخرًا:

- القاهرة العجيبة، تجذب دائمًا الأشخاص غريبي الأطوار.

ابتسم مسعد وقال:

- لكـن ابـن الشـيخ غنـام الـذي يدعـى ريـان هـذا إبليـس بحـق، يشـعر أنـه ملـك غـير متـوج عـلى القاهـرة، أتـدري أنـه

جمع حوله بعض رجال أبيه المسلحين والموالين له لحمايته وأسماهم حرسه الرئاسي الخاص.

ضحك صادق حتى انقطعت أنفاسه وأصدر نخيرًا وهو يقول:

- حرس رئاسي لابن مُجرم وقاطع طريق ولديه عصابة مسلحة يتحكم بواسطتها في مدينة القاهرة وفي سكانها أيضًا، سأصاب بنوبة قلبية من كثرة الضحك.

نهض مسعد من مقعده وهو ينظر لصادق قائلًا له:

- هذه هي القاهرة دائمًا، حبيسة، ذبيحة. القاهرة ستضحكك بقدر ما ستبكيك يا صغيري.

نهض صادق بدوره قائلًا بكل ما يعتمل داخله من حزن:

- لم تبكِني يومًا، لقد أبكتني عُمرًا.

نظر له مسعد بحزن أبوي ومشى بخطوات بطيئة مغادرًا القاعة تاركًا صادق وراءه.

كان صادق يشعر بالفعل أنه محاصر. يشعر أنه مقيد. طوق على عنقه يزداد ضيقًا يومًا بعد يوم. طوق أصبح هو عالمه وملاذه الوحيد.

لم يكن حرًّا يومًا، دومًا مُقيد.

قُيد بأهله بكليته العسكرية. بعمله. بعقله.

بالحرب التي لم يخُضها.

بالمـوت الـذي لم يذقـه ولكنـه أذاقـه للآخريـن عـن طيـب خاطـر.

بحبه الذي مات قبل أن يولد.

بوطنه الذي سرق وحلمه الذي ضاع.

فهو لم يذق طعم الحرية يومًا.

*****



« الحريـة والعبوديـة، وجهـان لعملـة واحـدة. مهـما ظننـت أنـك حـر، في الحقيقـة أنـت مُقيـد بحبـل مـا. فلقـد أصبح حُـرًّا مـن لم ينتظـر شـيئًا».

****



لم يدرِ صادق كم مر عليه من وقت وهو فاقد للوعي، لكنه أفاق في النهاية ليجد نفسه مُلقى أرضًا خارج السيارة المُشتعلة، الألم شديد ويعصف بجسده وبذهنه، والدم الذي يسيل من جروحه يصعب من حركته. تحامل على نفسه بصعوبة شديدة ونجح في النهوض وهو يترنح مُتجهًا إلى السيارة كي يطمئن على رفيقه وعلى حمولتهما الثمينة، بحث في درعه عن جهاز تحكم عن بعد أخرجه منه وضغط أحد أزراره لتنبعث من السيارة المشتعلة أبخرة بيضاء كثيفة ولم تمضِ لحظات حتى انطفأت النيران تمامًا. وغُطت السيارة من الداخل والخارج بمادة بيضاء كثيفة. لحظتها اقترب أكثر من السيارة.

في البداية وجد جسد رفيقه راضي محشورًا في كابينة السيارة الأمامية وقد اخترق صدره في موضع القلب تمامًا قطعة حديدية كبيرة قد ثبتت جسده تمامًا بالمقعد. ورأسه قد اخترقته شظية كبيرة صنعت فجوة مخيفة في جانب رأسه الأيمن، شعر بغصة في حلقه وبالألم يتزايد في كل موضع من جسده وهو يتجه ناحية المرأة وابنتها ليجد المرأة قد احترق جانبها الأيمن تمامًا واخترقت عشرات الشظايا جسدها صانعة فيه فجوات صغيرة.



الطفلـة الصغـيرة لم يبـدو عليها أي آثـر لإصابـة مميتـة اللهم بعـض الدمـاء الجافـة فقـط عـلى وجهها، هـرول باتجاهها بلهفـة مُستشـعرًا نبضهـا، فوجـد القلـب الصغـير مـا زال يضـخ بعـض الدمـاء بوهـن ليحافـظ عـلى حيـاة الصغـيرة.

لم يضيـع وقتًـا وجاهـد لدقائـق مقاومًـا آلامـه حتـى اسـتطاع إخـراج الصغـيرة مـن وسـط أشـلاء السـيارة ووضعهـا أرضًـا وهـو يـئن مـن الألم، بحـث عـن سـلاحه فلـم يجـده بينـما سـلاح رفيقـه الميـت قـد تـضرر بشـدة بسـبب الانفجـار. لكن مسدسـه الشـخصي كان معلقًـا عـلى فخـذه، فأخرجـه مـن غمـده وتأكـد مـن صلاحيتـه للعمـل وأعـاده مـرة أخـرى إلى مكانـه. ثـم نظـر إلى مـا حولـه وقـد اسـتعاد وعيـه كامـلًا وهالـه مـا رأى.

الجثـث المحترقـة هنـا وهنـاك، الأشـلاء في كل مـكان. أصـوات الرصـاص والانفجارات تصـم الآذان.

حمـل الفتـاة الصغـيرة المُسـتلقية عـلى الأرض وألقاهـا عـلى كتفـه وبـدأ في السـير، ولأول مـرة في حياتـه يدعـو اللـه أن يسـاعده في إنقـاذ تلـك الفتـاة الصغـيرة.

****



## قاهرة ما بعد المحرقة

لم تكن مصر طرفًا في الحرب الكبرى، لم تكن مصر سوى ملعب كبير تتصارع فيه أغلب جيوش العالم. استيقظ المصريون ذات صباح وبلدهم تتعرض لأعنف موجة قصف عرفتها البلاد، لم تكن دولة ولم يكن جيشًا، مئات القذائف وعشرات الصواريخ الباليستية سقطت على أرض مصر ولم يعرف أحد من أسقطها، ولم يهتم أحد.. كالعادة.

لم يحدث اجتياح بري لمصر، فقط غارات متتالية ورشقات صاروخية أتت على الأخضر واليابس.

بعد يومين من بداية الحرب، لم يعد في مصر موضع قدم إلا وقد تعرض لقصف أو لغارة. لم يعد هناك جيش أو شرطة أو دولة. دُمرت مصر تمامًا.

والقاهرة كانت خير دليل على هذا.

تحولت القاهرة الكبرى إلى أنقاض، وقُتل من قاطنيها ما يقرب من مليون مواطن. وعصفت الأمراض والأوبئة والمجاعة والفراغ الأمني بمن تبقى من سكانها.

أما تُعساء الحظ الذين قد نجوا من تلك القيامة المُصغرة، فقد حاولوا المقاومة في ظل ظروف لا تسمح بالحياة مُطلقًا. لكنهم كمصريين قد تعودوا دائمًا على النحت في الصخر، وتأقلموا مع الظروف الجديدة بعد انتهاء الحرب الكبرى، وتحولت أطلال القاهرة لسكانها إلى قبور وكذلك إلى مكان للمعيشة.

وأخيرًا في مصر، تساوى الميت بالحي.

****



وسط ركام المنازل في أحد أحياء القاهرة الشعبية، تجمع حشد كبير من الرجال المُسلحين، كانت قلة منهم تمتلك أسلحة نارية، بينما أغلبهم يمتلك أسلحة بيضاء وسيوفًا وعصيًّا خشبية كبيرة.

كانوا مجتمعين أمام رجل يجلس على مقعد خشبي كبير غريب الشكل، كان يبدو وكأنه مكون من ألف قطعة صغيرة تجمعت معًا لتصنع ذلك المقعد، أما الرجل فقد كان في أوائل الستينيات من عمره. التجاعيد تغزو وجهه وشعره الأشيب بالاشتراك مع لحيته الرمادية صانعين له مجتمعين هيبة ووقارًا.

طويل القامة، وجسده لا يزال يتمتع بقدر من قوة سابقة.

وخلفه يقبع ما لا يقل عن عشرة رجال مسلحين ببنادق آلية، وأمامه جلس رجلان أرضًا. يبدو عليهم الخوف الشديد.

ساد الصمت المكان وسط نظرات الشيخ النارية المُسددة إلى رجلين جالسين أمامه على الأرض لا يجسر أحدهم على رفع عينيه في وجه الشيخ غنام، الرجل الأول والأهم في القاهرة كلها.

تاجـر المُخـدرات والسـلاح والقـواد الأسـبق، صـار حاكـم القاهـرة الأول، وكان هـو مـن قطـع حبـل الصمـت عندمـا قـال:

- رجـالي يوزعـون عليكـم الحصـص الغذائيـة، بعـدل اللـه لا يوجـد رجـل يأخـذ أكـثر مـن الآخـر، الـكل هنـا سواسـية.

قـال أحـد الرجـال مـن أمامـه وهـو ينظـر إلى الحشـد مـن حولـه:

- لا يـا سـيدي، هنـاك مـن يقدمـون نسـاءهم وبناتهـم إلى رجالـك كي يأخـذوا حصصًـا مُضاعفـة مـن الطعـام.

تقـدم أحـد رجـال غنـام مـن الرجـل وضربـه عـلى رأسـه ضربـه شـديدة أجبرتـه عـلى احتضـان الأرض وتقبيـل ترابهـا. فزعـق الشـيخ غنـام قائـلًا:

- توقف يا رجل لا تمد يدك عليه دون أوامري.

ثـم سـأل الرجـل بعـد أن اسـتقام في جلسـته مُتحسسًـا رأسـه مـن آثـر الضربة:

- وهـل هـذا الرجـل بجـوارك الـذي تشـاجرت معـه، قـدم أحـدًا مـن أهـل بيتـه إلى رجـالي حتـى يأخـذ حصـة مضاعفـة مـن الطعـام.

حـاول المُدعـى عليـه أن يدافـع عـن نفسـه وفتـح الرجـل المـضروب رأسـه ليقـوي حجتـه لكـن الشـيخ غنـام أسـكتهم بإشـارة مـن إصبعـه ثـم دار بعينيـه في وجـوه مـن حولـه حتـى

انتقى منهم واحدًا أمره بالقدوم إليه، وعندما وصل له أشار له بالاقتراب وتحدث معه هامسًا ببضع كلمات ثم رفع صوته قائلًا:

- سنحقق في مزاعم هذا الرجل ولن نترك هذا الأمر يمر مرور الكرام، أما في موضوع الخلاف والشجار الذي وقع بينكما دون احترام للقواعد والقوانين فلقد حكمت عليكما أنتما الاثنان بالحبس لمدة أسبوع.

لم يعلق أي من الواقفين على كلام الشيخ غنام بينما يقتاد حراسه الرجلين من أمامه، بعدها انفض الجمع وساد الهدوء هذا الحي الشعبي الذي كان يضج بالسكان منذ سنوات، أما الآن فلا يوجد به سوى الشيخ غنام ورجاله المقربين وحرسه الخاص.

حي كامل، من منازل سليمة أو محطمة بمحاله التجارية بكل ما فيه أصبح ملكًا للشيخ غنام ورجاله.

نهض الشيخ من مقعده الغريب وأتاه أحد رجاله بعصاه ليتوكأ عليها فالتقطها منه ونهض في عنفوان واضح وبدأ في السير وهو يقول لأحد رجاله:

- ما هي آخر أخبار دوريات المُستعمرة؟

رد الرجل:

- لا يوجد جديد يا شيخ غنام، منذ آخر هجوم قُمنا به لم نرَ أي دوريات أخرى.



- هل تعبوا أو ملوا منا؟

- لا يوجد شيء مُستبعد في هذه الأيام يا شيخ.

زفر الشيخ غانم ثم قال:

- لن يبقى الأمر كما هو عليه، الحرب قادمة، شئنا أم أبينا ستكون هناك حرب.

جاوبه الصمت المطبق من رجله فزاده هذا حنقًا، فهو يعلم كما يعلم أغلب رجاله تمام العلم بأن معركة مفتوحة مع قوات المُستعمرة ستؤدي إلى هلاكهم جميعًا. فلا فرصة لهم أمام المدرعات والأسلحة الثقيلة. هو يتجنب الحرب ولكنه يرهب خصومه بعملياته التخريبية التي يقوم بها، لكنه يعلم أن هناك حربًا قادمة لهم، ولكم يتمنى أن لا يعيش حتى يرى تلك الحرب أبدًا.

****

داخـل قاعـة الاجتماعـات بمقـر قيـادة المُسـتعمرة (ب) جلـس كل مـن قائـد المسـتعمرة وقائـد الحـراس وكبـير العلـماء وبعـض كبـار الضبـاط مـن الحـرس.

كان قـد دعـا قائـد المُسـتعمرة ورئيـس مجلـس إدارة شركـة (أمريـكان جينـوم) هـؤلاء الرجـال للاجتـماع بنـاء عـلى طلـب مـن كبـير العلـماء الـذي أراد عـرض بعـض المُسـتجدات لديـه، بـدأ القائـد مراسـم الاجتـماع قائـلًا:

- لقـد تجمعنـا اليـوم بسـبب دعـوة مـن كبـير علمائنـا الدكتـور أشرف، لرغبتـه في مناقشـة أمـر يهـم مُسـتقبل مُسـتعمرتنا ومُسـتقبل مـصر كلهـا، ولـن أبالـغ إن قُلـت إن الأمـر سـيؤثر عـلى مُسـتقبل البشريـة أيضًـا.

زادت تقديمـة الرجـل مـن أهميـة الموضـوع وشـعر كل مـن في القاعـة بحساسـية الأمـر المطـروح لديهـم، أشـار القائـد لكبـير العلـماء الـذي نهـض وعـدل مـن وضـع رابطـة عنقـه وكأنـه دكتـور جامعـي يهـم بإلقـاء مُحـاضرة عـلى بعـض الطـلاب وتنحنـح ثـم قـال:

- بسـبب زيـادة تعـداد مُواطنـي المُسـتعمرة المُتزايـد، رغـم إقـرار قوانـين منـع النسـل تمامًـا التـي حـدت بنسـبة ليسـت كبـيرة في تحجيـم زيـادة أعدادنـا، إلا أن مواردنـا الرئيسـة قـد أوشـكت عـلى النفـاذ، والمسـاحات الضئيلة التـي نقـوم بزراعتها،

لـن تكـون محاصيلها قـادرة وحدهـا عـلى سـد احتياجاتنـا مـن الغـذاء.

أنهـى العـالم حديثـه وسـط علامـات القلـق التـي بـدأت تجتـاح وجـوه الجالسـين فعـاد بعـد لحظـات مـن الصمـت ليسـتطرد:

- وكـما نعلـم جميعًـا فـإن نقـص الغـذاء سيتسـبب في عـدم قـدرة كافـة العاملـين هنـا عـلى العمـل بكامـل طاقتهـم، مـما سـيؤثر سـلبًا عـلى كافـة نواحـي الحيـاة لدينـا، فلـن تقنـع مثـلًا العاملـين في وحـدات الخلايـا الشمسـية الذيـن يقومـون بتوليـد الكهربـاء للمُسـتعمرة بأكملها بالعمـل لمـدة أربـع عشرة سـاعة يوميًّـا مقابـل وجبـة طعـام واحـدة، فحتـى إن وافـق فجسـده سـيخونه ولـن يسـتطيع العمـل تحـت تلـك الظـروف الصعبـة.

رد عليه أحد كبار الضباط:

- كـما أن نقـص الغـذاء سـيفتح بـاب التمـرد والقلاقـل، وقـد يظـن النـاس أننـا نمنـع عنهـم الطعـام عـن قصـد.

وافقه الجميع حتى دكتور أشرف نفسه الذي عاد يقول:

- أنـا وفريـق أبحـاثي لـدي حـل جـزئي لتلـك المُشـكلة سـيوفر لنـا الوقـت ريثـما نصـل إلى حلـول في موضـوع الغـذاء.

تعلقـت بـه عيـون الـكل في ترقـب فشـعر بالتوتـر الـذي ظهـر عـلى صوتـه جليًّـا وهـو يقـول:

- أنا وكل علماء المُستعمرة جندنا عقولنا وأوقاتنا من أجل بحث جديد، في هذا البحث نحاول وضع طريقة لتعديل الخريطة الجينية للإنسان وجعله يستطيع تحمل نقص الماء والغذاء، كذلك العمل في ظروف بيئية قاسية واحتمال كافة درجات الحرارة. باختصار أيها السادة نحن نحاول هنا تطوير الإنسان العادي إلى إنسان خارق للطبيعة البشرية. إنسان يستطيع العمل لمدة عشرين ساعة يوميًّا بلا توقف.

انتهى من كلماته وهو يلهث من فرط الانفعال وقد التصقت حبيبات العرق بجبينه. نظر الجميع بعضهم إلى بعض وتحدث قائد الحراس لأول مرة فكان صوته رخيمًا هادئًا:

- وما الفائدة من هذا العبث؟ أي ماذا سنستفيد عندما نجد شخصًا ما قادرًا على العمل طول اليوم بلا توقف، كيف سيساهم هذا في حل أزمة الغذاء لدينا؟!

نظر له أشرف باستهزاء وهو يقول:

- نحن نتكلم هنا عن فائدة عظمى للبشرية قد تنقلنا عشر سنوات دفعة واحدة للأمام.

« وأين هي تلك البشرية؟!».

قالها قائد الحراس بسخرية شديدة ليقابل استهزاء كبير العلماء الذي قال:

- حتى وإن لم يكن هذا حلًّا لأزمة الغذاء لكن على الأقل سيوفر هذا من كمية الموارد المُستنزفة حتى نستطيع تدبر أمورنا.

تدخل قائد المستعمرة في الحديث لينهي الجدال قائلًا بغضب صارم:

- نحن لسنا هنا كي نتجادل حول المُستقبل، ليحترق المُستقبل إن لم يكن مُستقبلنا، لا علاقة لنا بباقي البشر فليحترقوا هم أيضًا، ما يهمنا ويجب أن يشغل بالنا هو مستقبل تلك المستعمرة، تلك للمستعمرة وفقط، ليست مصر وليست الشركة الأم ولا المُستعمرات التابعة لها، فقط نحن. فقط هنا.

ساد الصمت بعد تدخله للحظات مرت كالدهر وكبير العلماء وقائد الحراس يتبادلان في ما بينهم نظرات كفيلة بحرق المُستعمرة بأكملها حتى عاد كبير العلماء ليقول:

- ولائي الأول والأخير للمُستعمرة يا سيدي القائد.

ثم صمت مُنتظرًا الرد ولما لم يأتِه رد واستمر الصمت كعنوان للمشهد قرر الرجوع لموضوعه مره أخرى.

«هناك فقط مشكلة واحدة قد تعطلنا عن إكمال أبحاثنا».

قال له قائد المُستعمرة:

- ألم تقل لنا الآن إنك قد قطعت شوطًا طويلًا في أبحاثك تلك ؟

ظهر الارتباك على ملامح وصوت كبير العلماء وهو يقول:

- بلى، ولكن لقد قطعنا هذا الشوط في الأبحاث النظرية وتوصلنا إلى إمكانية تنفيذ هذا الأمر ولكن فقط ينقصنا التجربة المعملية

رد القائد بنفاذ صبر واضح:

- وما الذي ينقصكم حتى تتمكنوا من إجراء تلك التجربة؟!

ازداد ارتباك كبير العلماء وهو يقول:

- البشر يا سيدي، نريد بشرًا كي نجري عليهم تلك التجارب.

ساد الصمت المشوب بالصدمة وسط الحاضرين حتى تجرأ كبير العلماء وقال:

- لو سمح القائد بإعطائي بعض المتطوعين من مواطني مُستعمرتنا لإجراء التجارب فسيكون هذا أمرًا جيدًا وسيساعدنا كثيرًا.

هنا كانت الصدمة أكبر فزعق قائد المُستعمرة قائلًا:

- أجننت أنت يا هذا، هل فقدت صوابك، كيف أسمح

بتعريض مواطني مُستعمرتي لهذا الهراء، لن ينجح هذا الأمر، لن أقوم بهذا على الإطلاق.

لم تفاجئهم ثورة قائد المُستعمرة قط، بل ما فاجأهم هو رد كبير العلماء الذي قال:

- لا حل آخر لدينا يا سادة، نحن الوحيدون الذين نمتلك موارد بشرية كثيفة وقد حان وقت الاستفادة من تلك الموارد.

رد أحد الضباط:

- والأطلال؟!

تعلقت به أبصار الجميع فتابع:

- البشر هناك كالجرذان يمكننا اصطياد العشرات منهم ولن يحاسبنا أحد، ولن يشعر أحد حتى بغيابهم.

رد عليه قائد الحراس:

- هكذا ستدخلنا في مواجهة مُباشرة مع الهمجيين ساكني الأطلال.

- لا فرق، دورياتنا تتعرض لهجمات منهم بطريقة شبه يومية الحرب قادمة قادمة..

- قادمة، نعم. لكن لماذا نُعجل بها؟!

قاطع حديثهم قائد المُستعمرة:

- نحتاج إلى البشر، هذا مؤكد لا ريب فيه، لكنّ مواطني المُستعمرة ليس من الوارد تعريضهم إلى ذلك النوع من التجارب، لذلك إن احتجنا إلى بشر لإجراء بعض التجارب عليهم فلا سبيل أمامنا إلا الأطلال وساكنيها.

ثم التفت إلى قائد الحراس قائلًا له:

- عليك أن تبحث عن حل لهذه المُعضلة، بصفتك المسؤول الوحيد هنا عسكريًّا واستخباراتيًّا، جِد طريقة لإنهاء الأمر بطرق نظيفة.

نظر له القائد بحيرة فرد عليه:

- دون دم.

أومأ قائد الحراس برأسه مُتفهمًا في حين نظر قائد المُستعمرة إلى كبير العلماء وقال:

- وأنت، سنحاول توفير بشر لك في أقرب وقت ممكن لإجراء تجاربك عليهم، ولكن يجب أن تعطينا نتيجة في أقرب وقت ممكن.

رد العالم:

- خلال ثلاثة أشهر سأقوم أنا وفريقي بتقديم تقريرنا النهائي، كذلك هناك فريق كامل من أمهر علمائنا وهم جميعًا ذوو عقول قوية وراجحة سيقومون بدراسة مشكلة الغذاء ومحاولة إيجاد حل نهائي لها، سنعمل على هذا بالتأكيد.



أومأ قائد المُستعمرة برأسه وأشار لهم بالانصراف وانتهاء الاجتماع، وهو لا يعلم أنه بذلك يضع بيده قواعد النهاية. نهاية الجميع.

****

دوار شـديد يكتنـف رأسـه، الألم يجتـاح كل أعضـاء جسـده، طعـم الدمـاء يفيـض بهـا فمـه، العـرق المالـح يلسـع عينيـه، وعيـه ينسـحب منـه تدريجيًّـا.

التفـت حولـه بعـد أن ابتعـد نسـبيًّا عـن أماكـن القصـف، وهـدأت أصـوات الرصـاص والانفجـارات، وصـل حتـى أحـد جـدران المنـازل المُتهدمـة، أرقـد الطفلـة بهـدوء، وتحسـس نبضهـا وتنفسـها، لا إصابـات ظاهريـة فيهـا لكنهـا فاقـدة للوعـي، تتنفـس. حيـة، هـذا هـو المهـم. رغـم أنـه لا يعلـم إن كانـت سـعيدة الحـظ لنجاتهـا أم لا.

سـقط بجـوار الطفلـة، واسـتند برأسـه وظهـره عـلى الجـدار، مُتحسسًـا فخـذه حتـى وصـل إلى غمـد سـلاحه فأخرجـه وتأكـد مـن صلاحيتـه للعمـل ثـم أخـرج مـن أحـد جيـوب درعـه جهـاز الاتصـال الصغـير، قربـه مـن فمـه ضاغطًـا أحـد أزراره ثـم قـال بصـوت لاهـث مُتعـب:

- هُنا الدورية السابعة لدي تقرير قصير.

مضـت لحظـات مـرت عليـه كالدهـر حتـى أتـاه صـوت بعيـد:

- في انتظار تقريرك يا رقم سبعة.

رد بسرعة:

- تعرضنا لهجوم عنيف لقد قُتل أحد عناصر الدورية وفقدنا الهدف الأول وبقيت أنا مع الهدف الثاني ونعاني من إصابات تعوق تقدمنا. ونحن معزولون تمامًا عن أي وسائل مُساعدنا، فقدت جهاز تحديد المواقع بسبب الهجوم ولكني أعتقد أننا على بعد...

نظر حوله بيأس وأغمض عينيه محاولًا التركيز ثم قال فجأة:

- نحن نبعد حوالي عشرين كيلومترًا عن مقر المُستعمرة الرئيس، أطلب وسيلة إخلاء مُجهزة بوسائل إعاشة طبية لنقلي أنا والهدف الثاني إلى محيط المنطقة الآمنة «ب».

أعقب قوله لحظات من الصمت جعلته يشك في عدم وصول بثه للقاعدة فكرر رسالته مرة أخرى حتى أتاه الرد أخيرًا بصوت مشوش لا تميز حروفه:

- من القاعدة الرئيسية للرقم سبعة، نحن لن نستطيع التقاطك، حاول العودة بأي طريقة كانت، مع الهدف الثاني أو من دونه، القرار يعود لك يا رقم سبعة، انتهى الإرسال.

بأعين يملؤها الغضب حدق صادق بجهاز الاتصال الصغير ثم رماه على الجدار المقابل له مُحطمًا إياه، نهض ببطء متحاملًا على نفسه، وهو ينظر إلى الدمار الواقع حوله، الحرائق تشتعل في كل مكان، الجثث تفترش قارعة الطريق وقد بدأت أصوات الانفجارات تعود مرة أخرى



إلى الخلفية، نظر إلى الطفلة الصغيرة وقد وجد أنها تواجه صعوبة في التقاط أنفاسها، وقد ازرقت بشرتها، حرك زر الأمان في مسدسه وتحامل على نفسه وهو يتأوه حتى التقط الصغيرة ورفعها على كتفه وواصل السير بأقصى سرعة تسمح بها إصاباته الكثيرة والحطام والركام المتناثر من حوله.

لا يتعب من السير، لقد ظل طوال حياته يسير، لكن في هذه المرة بالذات، لا يسير من أجل نفسه.

****

«الشيخ غنام يفعل الصالح للقاهرة يا ريان، فلولا ما بذله الشيخ بعد الحرب من جهد وعرق ودم لما عادت القاهرة للحياة مرة أخرى، أنت أيضًا تريد صالح القاهرة، لذلك يجب عليك موافقة والدك على قراراته».

قالها سالم، الذي يعتبر الرجل الثالث في الأطلال كلها بعد الشيخ غنام وابنه ريان، كان في العقد الرابع من العمر، طويل القامة ونحيل البنيان وإن بانت عليه القوة الجسدية، أجعد الشعر أسوده، وسمار بشرته والندوب التي تغطي وجهه جراء معاركه السابقة أكسبته مظهرًا شرسًا.

«تقصد أنه يفعل ما يعتقد أنه صالح للقاهرة يا سالم، أبي لا يحكم القاهرة، أبي فقط يمتلك الجزء الوحيد الحي فيها ولكنه لا يحكمه، أبي كالقاضي أكثر منه حاكمًا، وهذا ما يضعفه، تراه يحكم بين هذا وذاك ويفض نزاع عائلتين حول خيمة أو حول أنقاض منزل لم يهدم بالكامل وما زال يحتفظ بعدة جدران، لكنه لا يحكم أبدًا يا سالم».

رد عليه ريان ابن الشيخ غنام، وهو شاب قصير القامة ضئيل البنيان، شعره ناعم فاحم اللون ينسدل على كتفيه، بياض بشرته وملامحه الوسيمة لا تُخفي قسوته الشديدة حاجباه كثّان وله لحية خفيفة مُهذبة، مُهندم دائمًا وكأنه نجم سينمائي، كان هو من يسرق متاجر الملابس والأحذية

الباهظة ليرتديها، وكل من حوله ينهبون ليسدوا جوعهم وجوع أطفالهم فقط. يُحيط نفسه بمجموعة من الصبية المُلثمين دائمًا كحرس شخصي مُرافق له أينما حل وارتحل، مُدججين بالسلاح يُسبغ عليهم دائمًا بالطعام والكساء، ليضمن ولاءهم وقد نجح في هذا. لديه العديد من المؤيدين خصوصًا الشباب الذين يرافقونه دائمًا حتى ينالوا نفحة من عطائه، وهو كريم للغاية مع تابعيه ومُتملقيه، هو ذكي، لكنه يرى نفسه أذكى من الكل، هو ضعيف وهو يدرك ذلك والكل يدركه، لكنه صنع لنفسه درعًا ليذود به عن نفسه، درعًا قد تراه من بعيد مُتماسكًا، ولكنه أوهن من بيت العنكبوت.

ريان، هو جنون العظمة يمشي على الأرض بقدمين.

رد سالم:

- ولكن لا تنكر أن وجود أبيك هو ما يجعل القاهرة مُتماسكة حتى الآن.

- لا، رغبة أهل القاهرة في العيش هي ما يجعل القاهرة تتماسك رغم الظروف، لكن قُل لي هل أنت مقتنع بكل مواقف أبي وكل ما يفعله.

صمت سالم للحظات ثم قال بتردد:

- لا يوجد أحد لا يخطئ يا ريان.

ضحك ريان ثم قال وسط قهقهته:

- إذن الشيخ غنام يخطئ كباقي البشر، أليس كذلك؟!

- بالطبع.

نظر ريان حوله ثم أشار باتجاه المُستعمرة البادية على مدى البصر وقال:

- انظر إلى هناك، هم مختلفون عنا.

قالها وهو يشير إلى صدره وكأنه يتحدث نيابة عن كل أهل القاهرة. ثم عاد يقول:

- الاختلاف يرجع إلى القيادة، هم لديهم قادة، نحن ليس لدينا قائد وهذه نقطة ضعفنا، إذا مات الشيخ غنام.

قاطعته نظرة الذعر التي تجلت في عيني سالم فضحك بعبث وقال:

- هو ليس إلهًا يا رجل، هو على شفا حفرة من القبر، إنه يموت كأي رجل.

لم يعقب سالم على كلام ريان الذي تابع:

- إذا استطعنا توحيد صفوفنا، وتوجيه ضربه قوية إلى تلك المُستعمرة، وتمكنا من الاستيلاء عليها بدلًا من تلك الغارات التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع، سنحوز السيطرة على القاهرة كلها ومن بعدها ما تبقى من مصر دون مُبالغة.

لمع الطمع في عيني سالم الذي قال:

- وما الذي يمنعنا من تحقيق هذا؟!

رد ريان ببساطة وكأن الأمر لا يعنيه:

- إنه الشيخ غنام هو من يمنعنا عن تحقيق ذلك.

- والحل؟!

- الحل الوحيد يتمثل في تولي القيادة قائد حقيقي، يستطيع تغيير القاهرة للأفضل.

بخبث سأله سالم:

- ومن برأيك يستطيع تحمل تلك المسؤولية؟!

بحركة مسرحية نظر ريان حوله وهو يقول:

- لا يوجد أحد غيرنا هنا، أنت لا تستطيع القيادة.

وقبل أن تزحف ملامح الضيق على وجه سالم عاجله ريان قائلًا:

- أنت يجب الاستفادة منك في أشياء أخرى، فلا أحد غيرك سيقدر على قيادة رجالنا في الحرب القادمة، لا أحد غيرك أجدر بهذا الشرف.

لم يبد على ملامح سالم الضيق رغم أنه قد تسلل إلى صوته وهو يقول:

- والشيخ غنام، هل سيتركنا نشن حربًا على تلك المُستعمرة؟!

رد ريان بسرعه:

- ومن قال بأن أبي سيظل حيًّا حتى يرى تلك الحرب ويجلس ليحكم من يبقى ومن يجيء ومن يحارب ومن يقود لا يا سالم لا وجود للشيخ غنام في هذه المرحلة.

هز سالم رأسه مُتفهمًا وهو يقول:

- إذن ستنتظر حتى يموت الشيخ غنام بعد عمر طويل وبعدها سنقوم بهذا.

نظر له ريان بضيق وهو يقول:

- ما هذا الذي تقوله، أي مُخ تمتلكه يا رجل، أعرفت لماذا لا تجب أن تحكم هذه الأطلال؟

لم يرد سالم على ريان، فهم أصدقاء منذ ما يزيد على عشر سنوات وقد تعود سالم على تلك النوبات المفاجئة التي تصيبه فتابع حديثه:

- نُريد تحقيق مُرادنا الآن وليس بعد عدة سنوات، نحن لا نضمن متى سيموت هذا الرجل.

بخوف واضح قال سالم:

- ماذا تقصد؟!

- قصدي واضح يا سالم، قطعان ماشية القاهرة آن أوانها أن تمتلك راعيًا حقيقيًّا يستطيع رعايتها، سننقض عليهم فجأة، فقط ما علينا فعله حاليًا هو الانتظار.

****

الضـوء. يزعجـه، يعريـه، يجعلـه غـير قـادر عـلى الكـذب أو الاختـلاق، دائمًـا مـا كان يكـره الضـوء مـن بدايـة وعيـه بهـذه الحيـاة، فبمجـرد تسـليط الضـوء عليـه يشـعر كـما شـعر آدم عندمـا كُشـفت عورتـه عـلى الملأ في السـماء السـابعة، باختـلاف الأشـخاص، لا يوجـد هنـا ملائكـة. شـياطين فقـط.

جلـس صـادق عـلى ذلـك المقعـد غـير المريـح، المقعـد الـذي صمـم ليقيـس معـدل تغـير نبضـات القلـب، ومراقبـة معـدل إفـراز العـرق وأمامـه مـرآة كبـيرة، تُجـبر بـأن تنظـر لنفسـك فيهـا طـوال جلسـتك عـلى المقعـد، أمـا تلـك المـرآة فـما هـي إلا جهـاز كبـير لدراسـة ملامـح الوجـه عنـد الحديـث، لمعرفـة حقيقـة كلامـك، هـل أنـت صـادق أم كاذب، اللعبـة الدائمـة والوحيـدة للمجلـس الرقـابي، الـذراع الاسـتخباراتية الوحيـدة للمُسـتعمرة.

بينـما ذلـك الضـوء الصـادر مـن المصبـاح الوحيـد للغرفـة ومسـلط عـلى وجهـه يشـعره بحـرارة غـير طبيعيـة، وعـدم قدرتـه عـلى رفـع يديـه ليمسـح العـرق السـائل عـلى وجهـه مـن جبهتـه يصيبـه بالغثيـان، ذلـك التحقيـق الروتينـي الشـهري قبـل جلسـة المُشرف النفسي الأسـبوعية يعتـبر عذابًـا حقيقيًّـا لـه.

تململ صادق في جلسته وهو يسمع باب الغرفة قد فتح من خلفه، وعلم في هذه اللحظة أن جسده بالكامل تحت تحكمهم وفي يدهم، هنا لا مجال للكذب أو الاختلاق، هنا أنت عارٍ كيوم ولدتك أمك.

سمع صادق صوت خطوات قوية واثقة تأتي من خلفه حتى يتوقف صاحبها وراءه تمامًا. لحظات صامتة ازداد فيها توتر صادق حتى شعر بأن صوت دقات قلبه المُتسارعة سيصم آذانه حتى دوّى في أذنه صوت صاحب الخطوات وهو يسأله:

- هل تُحب المُستعمرة؟

عليه أن يتحكم في نفسه، نظم تنفسه وابتلع لعابه وقال بصوت حاول أن يودع فيه أكبر كم ممكن من الثقة:

- إنها بيتي، لا أحد يكره بيته.

مرت لحظات أخرى من الصمت في حين تابع الصوت بنفس نبرة الصوت:

- هل تفقد حياتك في سبيلها؟

- أجل.

قالها بسرعة ودون تردد، كان يُسأل نفس الأسئلة كل مرة، لكن يتم تغيير سؤالين أو ثلاثة أحيانًا من قِبل المُحقق.

وكان السؤال الثاني جديدًا عليه:

- هل تشعر بأنك تُريد مُغادرة المُستعمرة؟

ازداد تعـرق وجهـه ولكنـه لم يتوتـر، فكـر للحظـات في الإجابـة، لحظـات مـرت عليـه كدهـر كامـل، لم يحبهـا يومًـا، لكنـه لم يكرههـا أيضًـا، لا مجـال للحـب أو للكـره، ولكـن..

- أحيانًا.

خرجـت منـه الإجابـة التـي لم يتوقعهـا هـو شـخصيًّا، شـعر بالنـدم عـلى إجابتـه، ولأول مـرة يصمـت المُحقـق هـو الآخـر للحظـات وشـعر صـادق أنـه قـد وقـع في مـأزق لا فـكاك منـه حتـى سـأله المُحقـق سـؤالًا آخـر:

- هـل تشـعر بـأن قوانـين المُسـتعمرة ونظمهـا ليسـت عادلـة؟

- ليست كلها.

- هـل تـرى فرقًـا في التعامـل بـين الطبقـات المختلفـة في المُسـتعمرة؟

- نعم.

تغـير لـون المصبـاح إلى الأحمـر ليعلـن انتهـاء الجلسـة الروتينيـة الأسـبوعية ويعـود المُحقـق ليقـول:

- لقـد انتهـت المُقابلـة، تسـتطيع نـزع الأقطـاب المُتصلـة بجسـدك والنهـوض مـن عـلى المقعـد بعـد مغـادرتي للغرفـة، أراك الأسـبوع المُقبـل.

زفر صادق بصوت مسموع في لحظة تناهى صوت غلق الباب وخروج المُحقق إلى مسامعه من الغرفة فأزال الأقطاب المتصلة بيديه ونهض من على المقعد وهو ينفض قدميه من الخدر الذي قد أصابهما. عدل ملابسه وخرج من الغرفة ليسير في ممر طويل مضاء بمصابيح صغيرة ينبعث منها ضوء أزرق غير مُريح للنفس أو للعين.

في نهاية الممر وجد ضالته في باب غرفة الطبيب النفسي، وقف أمام الباب وعلى يمينه وضع سبابته على جهاز قارئ البصمة الذي تحقق من شخصيته وفتح له الباب تلقائيًّا ليدخل إلى غُرفة صغيرة عليها مقعد كبير وآخر صغير، جلس على المقعد الكبير وانتظر مجيء الطبيب النفسي.

مرت نصف ساعة كاملة حتى فُتح باب جانبي صغير دخل منه رجل في أوائل الأربعينيات من عمره طويل القامة بشكل ملحوظ ويمتلك جسدًا مفتول العضلات ويمتلك ملامح قوقازيه، كان كمحقق أو ضابط أمن أكثر منه طبيبًا نفسيًّا، توقف أمام صادق ومد له يده بود فصافحه الأخير بفتور لم ينجح في كسر وديته وبارده بالكلام قائلًا:

- كيف حالك هذا الأسبوع؟

- لا جديد لدي.

جلس الطبيب على المقعد الصغير ونظر بتفرس في وجه صادق وقال:

- لا جديد لديك، إذن فلتصنع جديدك بنفسك.

لم يدرك صادق أهي دعابة ما أم حِكمة مُعينة أم نصيحة يوجهها له الطبيب فلم يملك سوى الابتسام فقط فقال الطبيب:

- لماذا تركت الحراسة؟

كان صادق قد مل إجابة هذا السؤال لكن لا حيلة له سوى الإجابة عليه فرد:

- الهجوم الكبير.

أخذ الطبيب مفكرة ورقية من على منضدة صغيرة وفتحها وأمسك بقلمه وقال باقتضاب دون أن ينظر إلى صادق:

- التفاصيل.

زفر صادق بصوت مسموع ليعلن عن ملله ونفوره ثم قال:

- هجم أهل القاهرة على الأسوار ويومها قُتل قائد الحراس وكنت أنا أعلى الضباط رتبة فتوليت قيادة الدفاع عن سور المُستعمرة و..

قاطعه الطبيب:

- وهل نجحت في الدفاع عن المُستعمرة؟!

نفس السؤال الغبي الذي يلقى عليه أسبوعيًّا، لو لم أنجح أنا لما كان لك أنت وجود هنا الآن، لكنه رد:

- نعم، نجحت نجاحًا باهرًا.

- طالما نجحت لماذا تركت قيادة السور بعد أسبوعين فقط من توليك المنصب؟!

- ما رأيته لم يكن سهلًا!

- ماذا رأيت؟!

نظر صادق بعيدًا وقد سبح بخيالاته بعيدًا مُسترجعًا ذكريات هذا اليوم الذي لا يفارق مخيلته أبدًا وكأنه قد حصل البارحة وليس منذ سنوات عديدة وقال بهدوء:

- مع آخر ضوء للفجر، رصد أحد أبراج الحراسة تجمعًا لعدد كبير من العناصر يتجه ناحية أسوار المُستعمرة فدوت صافرة الإنذار، وقتها كنت أقوم بتدريب عدد من العناصر الجديدة، أخرجت مسدسي من غمدتي وتوجهت إلى الأسوار لأجد أعدادًا هائلة من أهل القاهرة يركضون باتجاه الأسوار، كان تقرير برج الحراسة يفيد بأن ثمانين بالمئة منهم يمتلك أسلحة نارية بجانب العصي والهراوات كذلك تم رصد أكثر من خمسين سيارة، بدأ الهجوم بقذيفة صاروخية هجومية أصابت السور بنجاح ووقع العديد من الحراس قتلى، وبعدها تبادلنا إطلاق النيران.

صمت فحثه الطبيب على الإكمال قائلًا بنبرة مُتعاطفة لم يعتد صادق عليها:

- الحرب ليست بالأمر الهين على الإطلاق، أكمل أرجوك.

نظر له صادق نظرة تعني أنت لا تفهم شيئًا فتابع وهو ينظر في عيني الطبيب هذه المرة:

- كانت هناك عدة سيارات تحمل متفجرات كان المهاجمون ينوون إيصالها إلى بوابتنا، أدركت هذا منذ اللحظة الأولى، نبهت القائد الذي أمر أحد الأبراج ذات المدافع بالتعامل معها وبالفعل تم تفجيرها على بعد عدة أمتار قليلة من البوابة، ومن الشرق أتت أعداد أكبر وتمتلك أسلحة ثقيلة، بدأت بقصف الجزء الشرقي من السور، كانوا يستخدمون آخر ما تبقى من الترسانة العسكرية المصرية، أوقعوا بنا خسائر فادحة. لم أدرِ وقتها لماذا يفعلون هذا، نحن مصريون مثلهم، ولسنا أعداء، هم المهاجمون وليس نحن.

بدأت الدموع تتجمع في مقلتيه وتهدج صوته وهو يتابع الحديث:

- قائد الحراسة وقتها كان صديقي منذ أيام خدمتي في الجيش المصري، كنت أعرفه منذ ما يزيد على العشرين سنة، كان يقاتل ويوجه رجاله ويشد من أزرهم، كان قائدًا

حقيقيًّا أقسم على الدفاع عن كل روح داخل تلك الجدران وقد بر بقسمه، بر بقسمه حتى أتته تلك الرصاصة التي أسقطته أرضًا، كنت قريبًا منه ورأيته يسقط هرعت ناحيته ووجدت الدماء تنبثق من ثقب في جانب رأسه، كان ينظر إليّ وأقسم إنني قد سمعت صوته يقول لي «لا تترك الجدار يسقط».

توقف عن الكلام وقد سالت دموعه فعليًّا وأدهشه رد فعل الطبيب الذي ترك تدوين ما يقوله وطفق يستمع إليه باهتمام شديد فتابع:

- أخذت سلاحه وجهاز اتصاله وأمرت كل الأبراج بلا استثناء بتوجيه نيرانها إلى الشرق بينما يقوم بقية المدافعين بتولي أمر المهاجمين من الأسفل. استمرت المعركة حتى صباح اليوم الثاني، كنا جميعًا منهكين ومصابين، لقد أصبت يومها برصاصتين وعشرات الجروح وتهدمت أجزاء كبيرة من السور، لكن المهاجمين كلهم قد انسحبوا ونجحنا في الصمود، تفقدت الأضرار التي لدينا فوجدت أننا فقدنا العديد من الرجال الجيدين، العشرات منهم قادة وضباط كبار ومتدربون جدد ومتطوعون، شعرت وقتها بمرارة الفقد، هؤلاء رجال كانوا يتمتعون بالحياة منذ ليلة واحدة والآن هم موتى غارقون في دمائهم. وتحت الأسوار لم يكن

الأمـر يختلـف كثـيرًا، آلاف الجثـث قـد افترشـت الأرض ونحـن مـن قتلناهـم.

- كنتـم تدافعـون عـن حياتكـم وعـن حيـاة كل مواطنـي المُسـتعمرة.

تجاهل صادق كلامه وتابع:

- أخـذت فرقـة مـن الرجـال وخرجنـا خلـف السـور، مئات الأطفـال والنسـاء والعجائـز ماتـوا برصاصنـا، لم يطلبـوا سـوى مـكان يحتويهـم، وغـذاء نظيـف، وقتهـا سـألت نفـسي، كـم طفـلًا قـد قتلـت بسـلاحي؟ كـم امـرأة قـد سـاعدت في قتلهـا؟ كـم أمًّـا قـد جعلتهـا تبـكي فـراق طفلهـا أو العكـس؟ هـل أنـا مسـؤول فعـلًا أنـا لم أكـن أعلـم أهـي غلطتـي؟

بـدأت نـبرة صوتـه في الارتفـاع وقـد تشـنج جسـده فهـدأه الطبيـب:

- لقد أتوا مهاجمين، لم يأتوا قط بالخير.

- لم يحملوا سلاحًا ويوجهوه ناحيتي.

- لا فـرق لقـد كنـت تـؤدي عملـك، لقـد سـقط منـا كـما سـقط منهـم نحـن لم نكـن سـببًا في حرمانهـم مـن الطعـام.

- ولكننا كنا سببًا في قتلهم.

صمـت الطبيـب ولم يعقـب واسـتمر الصمـت طويـلًا بينهـم حتـى عـاد الطبيـب يسـأله:

- ما جدوى كل هذا؟

رد صادق:

- لا شيء

رد الطبيب بسرعة:

- ربما كل شيء.

بنفس السرعة رد صادق:

- وربما كل شيء.

- صحيح.

أضاف الطبيب:

- هل تفكر في الانتحار؟

- كل يوم أفكر فيه.

- ولماذا لا تنتحر؟!

- لا أعرف، حقًّا لا أعرف.

بدأ الطبيب في لملمة أغراضه وهو يقول:

- آخر سؤال سأوجهه لك لننهي جلستنا تلك.

تضايق صادق كثيرًا فلقد تمنى أن تستمر جلستهم تلك طويلًا لكنه تغلب على ضيقه وقال:

- تفضل.

- يوم السور، عندما تمت مهاجمتنا، إذا عاد بك الزمن هل تُكرر ما فعلته يومها؟



صمت صادق، صمت طويلًا وهو يدور ببصره في أرجاء الغرفة الصغيرة التي شعر أنها تزداد في الضيق حتى أصبحت كالقبر عليه وتكلم سريعًا وكأنه يرمي قنبلة ضاق ذرعًا بحملها.

- لن أنقص تفصيلة واحدة مما فعلته في ذاك اليوم، ما فعلته، سأفعله مرة أخرى.

ابتسم الطبيب ثم غادر الغرفة.

****

في أحد بُقع أطلال القاهرة التي يتخذها ريان كمقر له جلس مع أربعة رجال يتحدثون في ما بينهم وكان سالم أحد الرجال الأربعة.

قال أحد الرجال:

- لكن الهجوم على دورية للحراس وقتل كل من فيها ليس بالأمر الهين على الإطلاق.

قال آخر:

- صحيح أن العدد دائمًا وأبدًا في صالحنا ولكن العتاد في صالحهم.

رد عليهم سالم:

- بالتخطيط الجيد نستطيع كسر شوكتهم الأمر صعب ولكنه ليس مُستحيلًا.

أيده ريان الذي تحدث لأول مرة:

- هذا أكيد إذا قُمنا بمباغتتهم وكان عامل المُفاجأة لصالحنا، فثق بأننا سنصفي عناصر تلك الدورية بسهولة.

قال الرجل الثالث:

- وبماذا نستفيد عندما نُبيد تلك الدورية؟

رد سالم بخشونة:

- لا تسأل يا رجل، أنت فقط تنفذ الأوامر.

لم يجسر أحدهم على الرد إلا أن الرجل عاد يسأل مرة أخرى:

- هل لدى الشيخ غنام عِلم بتلك الغارة؟

تبادل ريان وسالم النظر وفجأة أخرج ريان مسدسه وصوبه باتجاه الرجل وهو يصيح به:

- أتريد الموت يا رجل؟ هه، أتريد الموت؟!

ساد الذعر وسط الرجال وعاد ريان يقول:

- لن تموت أنت فقط، بل ستموت أنت وكل عائلتك وكل من تعرفهم.

جثا الرجل على ركبتيه وهو يبكي ويرجو ريان بأن يعفو عنه فابتسم الأخير وهو يقول له:

- حسنًا، سأعفو عنك هذه المرة، لكن في المرة المُقبلة لن تنهي المُقابلة وأنت تتنفس.

شكره الرجل وأثنى عليه وعلى كرمه فأمره ريان بالنهوض والذهاب، وقبل أن يلتفت الرجل ليغادر المكان أوقفه ريان وقال له:

- لم يحدث شيء هنا، صحيح؟

رد الرجل بسرعة وذعر:

- أنا لم أرك اليوم يا سيدي من الأساس، فكيف يحدث شيء.

ابتسم ريان ابتسامة مُخيفة أرعبت سالم نفسه وهو يقول للرجل:

- حسنًا، اذهب.

استدار الرجل وهو يكاد يعدو وكأن شياطين الجن كلها تطارده حتى خرج من المكان كله فعاد ريان يتكلم بهدوء شديد وكأن شيئًا لم يكن:

- هذا الرجل جبان.

وافقه الحاضرون جميعهم فورًا فعاد يتابع كلامه:

- لنعد إلى خطتنا.

ثم نظر إلى رجله سالم موجهًا له الحديث:

- قُل لي يا سالم هل ما زلنا نمتلك بعض أزياء الحراس.

رد سالم بهدوء:

- أجل، نمتلك العديد منها.

تنفس ريان الصعداء وقال:

- إذن هكذا أستطيع القول بأن خطتنا ستنجح، وتلك هي البداية فقط.

****

« من الدورية الخامسة إلى مقر القيادة، باقٍ من زمن الدورية عشر دقائق، النتيجة: سلبي».

زفر الضابط قائد الدورية بضيق والتفت إلى طابور الرجال من خلفه وهو يقول مُمازحًا إياهم:

- هل نعود الآن ولا نكمل الدورية يا رجال؟

لم يرد عليه أحد واستمروا في السير إلى أن توقف قائدهم فجأة رافعًا قبضة يده المضمومة ليأمرهم بالتوقف ثم فتحها ليرفعوا سلاحهم بتحفز، بينما توجه هو ناحية كومة من الصخور كانت تُواري خلفها جسدًا ما.

قال قائد الدورية بصوت مُنفعل:

- إنه أحد جنودنا يا رجال.

وانحنى ليفحص الجسد المُسجى أرضًا، وبمجرد أن انحنى قائد الدورية، نهضت الجثة من رقدتها فتراجع القائد مذعورًا ودب الرعب بين جنوده، وسمعوا دوي الرصاصات تنهال عليهم من كل اتجاه لتحصدهم حصدًا، بذعر نظر القائد إلى رجاله الذين تحصدهم الرصاصات في نفس اللحظة التي قام بها من مثّل أنه جثة أحد الحراس، برفع مسدسه إلى رأسه، لكنه نجح في تفادي المُسدس بالرصاصة التي انطلقت من فوهته، ليشعر برصاصة أخرى من خلفه تصيبه في ظهره لكن درعه ينجح في التصدي لها، لكنه شعر وكأن ألف مطرقة قد كسرت عموده الفقري.



رفـع سـلاحه وحـاول أن يسـتدير ولكـن الرجـل مـن أمامـه عاجلـه برصاصتـين في صـدره.. وهنـا لم يحتمـل درعـه كل تلـك الصدمـات المُتتاليـة، فنجحـت إحـدى الطلقـات في اخـتراق الـدرع والنفـاذ إلى صـدره، وسـقط مُدرجًـا بدمائـه.

****

- قبل يومين من الغارة على دورية الحراس.

جلس ريان وسالم بعد ذهاب الرجال وحدهما يراجعان تفاصيل خطتهما مرة ثانية وبعد لحظات من الصمت الذي كسره سالم بسؤاله:

- لكنك لم تقل لي يا ريان، ما الذي سنجنيه من هجومنا على تلك الدورية؟

نظر له ريان باستخفاف وهو يقول له:

- هل انتبهت إلى خط سير تلك الدورية التي سنهاجمها؟

نظر سالم إلى عدة أوراق موضوعه أمامه وهو يقول:

- تقريبًا توقيت الهجوم سيوافق وقت عودة تلك الدورية إلى المُستعمرة ونحن لم نهاجم من قبل أي دورية في هذه النقطة شديدة القُرب من أسوار المُستعمرة، سنكون على بُعد عدة كيلومترات من أسوار المُستعمرة.

- نحن لم نصل إلى تلك النقطة تقريبًا منذ الهجوم الكبير.

وافقه سالم بإيماءة من رأسه فاستطرد ريان:

- وصولنا إلى تلك النقطة يعني إعلان الحرب على المُستعمرة، لن يمر الأمر مرور الكرام عليهم، سيتخوفون من هجوم قريب على الأسوار، ربما يبادرون هم بالهجوم علينا، تخيل حملة عسكرية على الأطلال تُزعزع سُلطان الشيخ غنام.

غَزت الحيرة وجه سالم الذي قال:

- لكننا سنُمنى بخسائر فادحة إذا قامت المُستعمرة بهذا الهجوم، أضف إلى هذا إمكانية توحد كافة أهل القاهرة خلف الشيخ غنام لصد هذه الحملة.

تجلى الضيق على ملامح ريان الذي لم يفكر في الاحتمال الأخير قط، فصمت للحظات ثم قال:

- لا يهم، نحن سنجد طريقة للاستفادة من تلك الحملة، سنستغلها للإطاحة بحكم والدي سنجد طريقة ما، المهم هو أن تشتعل الحرب بين المُستعمرة وبين القاهرة وهذا ما يهمنا الآن فقط.

****

دخل قائد الحراس مُسرعًا بلا استئذان إلى غرفة الاجتماعات التي تضم كلًّا من قائد المُستعمرة وكبير العلماء وهو يقول:

- لقد انتزعت بضع كلمات من قائد الدورية الذي نجا من الهجوم، لقد استخدموا خُدعة حتى يوقفوا الدورية ويتمكنوا من مباغتتها وتصفية كل أفرادها وتجريدهم من سلاحهم وملابسهم ودروعهم.

قال قائد المُستعمرة:

- الهجوم أيضًا تم بالقُرب من أسوارنا، أعتقد أن هذا تحذير من هجوم وشيك على أسوارنا.

رد قائد الحراس:

- هم ليسوا أهلًا لنا، إذا دخلوا معنا في معركة حول الأسوار فهم خاسرون بلا محالة.

رد قائد المُستعمرة:

- إنهم يستدرجوننا للهجوم على الأطلال، وهذا ما لن نفعله أبدًا.

بغطرسة رد قائد الحراس:

- حتى وإن قمنا بحملة عسكرية ضد أهل الأطلال بنصف قوتنا فقط فسنمحوهم محوًا.

تنحنح كبير العلماء وتدخل في الحديث الدائر لأول مرة قائلًا:

- أعتقد أن الأفضل ألا ننساق وراء أي أعمال عدائية غير مُبررة، فلا فائدة نجنيها من الهجوم عليهم.

رد قائد الحراس:

- لا، بل هناك فائدة، أقل فائدة سنجنيها هي حماية دورياتنا من تلك الهجمات المُستمرة عليهم.

قال كبير العلماء وهو يعبث بعدة أوراق أمامه:

- إذن فلنمنع تلك الدوريات من الخروج.

ثار قائد الحراس وارتفعت نبرة صوته وهو يقول:

- وأمننا كيف سنحافظ عليه يا هذا، تلك الدوريات هي خط دفاعنا الأول ضد أي خطر، وهي مصدر معلوماتنا الوحيد عن ما يحدث خارج الأسوار، فإذا منعناها فسنصبح كالعميان، لا أنا لا أوافق على هذا الكلام إطلاقًا.

كاد أن يشتبك معه كبير العلماء في جدال طويل إلا أن قائد المُستعمرة تكلم لوأد الجدال في مهده قائلًا:

- لن نوقف الدوريات، ولكننا مؤقتًا سنقلل من المدى الحركي لتلك الدوريات، حتى إذا تعرضت إحدى الدوريات لهجوم، سنتمكن من دعمها في وقت قليل، كذلك سنزيد من تسليح الدوريات.

حـل السـخط عـلى ملامـح قائـد الحـراس لرؤيتـه قائـد المُسـتعمرة يتخـذ قـرارات في صميـم عملـه لكنـه لم يعـترض.
في حين استطرد قائد المُستعمرة:
- في الوقت نفسه سنلعب لُعبة مع الشيخ غنام.
ردد كبير العلماء في حيرة:
- لعبة؟
سأل قائد الحراس:
- كيف؟
نظـر لهـما قائـد المُسـتعمرة ثـم قـال وهـو ينقـر بأصابعـه عـلى زجـاج طاولـة الاجتماعـات الكبـيرة:
- لعبـة صغـيرة، قـد تنهـي تمامًـا حالـة اللاسـلم واللاحـرب بيننـا وبينهـم.
قابلته نظرات الحيرة فشرح لهم:
- سنرسـل لهـم (درون) صغـيرًا، عليـه رسـالة مُسـجلة، نعـرض فيهـا عليهـم البـشر مُقابـل الغـذاء وأيضًـا بعـض الذخائـر، سنسـيل لعابهـم وربمـا قـد نتفـاوض معهـم مُسـتقبلًا حـول إضافـة شرط أو اثنـين وبالطبـع نحـن الطـرف الأقـوى، لذلـك نحـن مـن سـنضع الـشروط والقواعـد، وبهـذا سـنضرب عصفوريـن بنفـس الرصاصـة. أولًا سـنقلل خسـائرنا لأن أول شروطنـا سـتكون وقـف هجماتهـم عـلى دورياتنـا، ثانيًـا سـيكون

لدينـا مـورد بـشري لا ينضـب لإجـراء التجـارب عليهـا، وربمـا ســنتعاون معًـا في المســتقبل القريــب للبحــث عــن الغــذاء والمــوارد الأخــرى.

عم الصمت المكان وبعد لحظات تحدث قائد الحراس:

- لا أوافق على إعطائهم ذخائر، هذا سلاح ذو حدين.

رد قائد المُستعمرة وكأنه يضايق قائد حراسه:

- وربمـا ســنعطيهم بعــض الأســلحة الدفاعيــة أيضًــا، تلــك الأســلحة التــي قاربــت عــلى الإصابــة بالصــدأ نتيجــة عــدم اســتخدامها لســنوات.

هنا هب قائد الحراس من مقعده وهو يقول:

- سيدي، أرى أنك تهدد أمننا بهذه الاتفاقية.

رد عليه قائد المُستعمرة بهدوء:

- لســت مجنونًــا لأعطيهــم أســلحة تســتطيع إصابتــي في برجـي العـالي، كل مـا في الأمـر هـو زيـادة بعـض البهـارات عـلى الـكلام، إنـه مجـرد كلام فقـط.

نظر قائد الحراس إلى قائد المُستعمرة ثم قال:

- اعذرني أيها القائد فلدي أعمال أهتم بها.

ولـف عـلى عقبيـه مغـادرًا غرفـة الاجتماعـات دون انتظـار إذن قائـد المُسـتعمرة الـذي قـال فـور خـروج قائـد حراسـه:

- يـا دكتـور أشرف، صياغـة الاتفـاق وتجهيـز (الـدرون) هـي



مهمتك من الآن، ستبلغني بكافة التفاصيل أولًا بأول، أنا أعتمد عليك في هذا الأمر.

نهض كبير العلماء وهو يلملم أغراضه من على الطاولة وهو يقول:

- لا تقلق أيها القائد، سنبذل أقصى ما في وسعنا لإنجاح الأمر.

أشار له القائد بالانصراف بينما عقله مشغول في وضع خطته، التي بواسطتها سيحكم سيطرته على كافة أرجاء القاهرة.

****

السير، يحبه، مُعتاد عليه، لم يخش قط سفرًا لطول المسيرة أو بُعد المُراد، كان يحب السير مُنفردًا هكذا خُلق، سيره مُتعة إن كان وحيدًا، نقمة إن كان في جماعة. سيره يشعره بالحياة، يرى فيها الأضواء والألوان يشكلهما كيفما يشاء راسمًا في خياله لوحة لا تقل حيوية ولا جمالًا عن الموناليزا، كم مرة في سيره رسم الموناليزا والعشاء الأخير، فقط في خياله، فالإله لم ينعم عليه قط بموهبة الرسم، لكنه سار ويسير وسيسير بهدف أو من دون، لن يعيش بلا سير.

من بعيد يرى سور المُستعمرة وبوابتها تفتح ذراعيها لاحتضانه، ولأول مرة في حياته، يشعر بطول المسيرة وصعوبتها، الحمل يزداد على كتفيه فيشعر وكأن ظهره قد قُسم، يرى وجوهًا كثيره، بعضها مألوف له وبعضها يراه لأول مرة، الأصوات مُتداخلة، لا يستطيع تمييزها، حرارة الشمس تخنقه وسواد درعه يمتص الحرارة ويسلق لحمه.

البوابة بعيدة، قدماه ستخونانه بعد لحظات، يحاول الصمود، كادت الفتاة الصغيرة أن تسقط وتسقطه معها، لكنه صمد بطريقة ما وأكمل السير، بيدٍ واحدة خلع خوذته المكسورة وأغمض عينيه. الضوء، إنه يكره الضوء.

يرى العديد من الحراس المتشحين بالسواد يركضون



تجاهـه، جسـده كلـه يخذلـه، لا يؤتمـر بأمـره، قدماه أصبح وزنهـما أطنانًـا، لا لـن يحتمـل، هـو يريـد الوصـول، هـو لا يسـقط أبـدًا، هـو منيع، كـم مـرة أوشـك فيها عـلى السـقوط ولكنـه أدهـش الـكل بوقوفـه صامـدًا، كان دائمًـا آخـر رجـل يقـف، هـذه المـرة مُختلفـة، جسـده لم يعـد يحتمـل قلـة الدمـاء، وسـقط صـادق.

حـاول أن يفـادي الفتـاة أثـر السـقوط ونجـح في هـذا ليأخـذ هـو أثـر الارتطـام بالكامـل عـلى جسـده، كل عظمـة في جسـده تـئن مـن الألم، وصـوت ارتطـام جسـده بـالأرض صـمّ أذنيـه.

الـبرودة تنتـشر سريعًـا في جسـده، الرؤيـة تصطبـغ بالأحمـر رويـدًا رويـدًا، الأحمـر يتحـول إلى الأسـود تدريجيًّـا، ومـن بعيـد يسـمع صوتًـا مألوفًـا ينـادي باسـمه.

****



أمام مقعد الشيخ غنام الخشبي الكبير، اجتمع حشد من الرجال، يحيط بهم بعض الرجال المُسلحين ببنادق نارية، جلس الشيخ متكئًا على عصاه صامتًا يستمع إلى آراء الرجال من حوله، كانت قد وصلت هذا الصباح طائرة صغيرة قادمة من اتجاه المُستعمرة، تحوي رسالة بصرية مُسجلة، قرر الشيخ غنام عرضها أمام بعض أهل الأطلال، بعدما شاهدها هو مع بعض رجاله المُقربين أولًا، وانقسمت آراء مواطنيه حول موافق على عرض المُستعمرة بحجة أنهم سيحصلون على بعض الغذاء النظيف والذخائر التي ستساعدهم في الدفاع عن أنفسهم ضد أي عدوان، أو رافض له بحجة كيف يجعلون أنفسهم لقمة سائغة لأهل المُستعمرة.

انتهى آخر الرجال من عرض وجهة نظره ليسيطر الصمت على المكان انتظارًا لقرار الشيخ غنام الذي ظل على وضعه، دون أن يتحرك من مكانه قيد أنملة وكأنه تمثال قُدَّ من شمع.

كسر الشيخ غنام حاجز الصمت قائلًا:

- هم لم يوضحوا غرضهم الذين يريدون من أجله بعض الأفراد من هنا، لكن إن كان أمرهم خيرًا فلماذا لا يسروا به لذلك أنا أظن كما يظن أغلب الكبار هنا أن هناك خدعة ما يدبرونها لنا، لذلك..

في تلك اللحظة قاطع حديثه ابنه ريان الذي أتى برفاقه من الصبية الملثمين وهو يبتسم ابتسامة لا معنى لها.

كان الجمع متخوفًا من تلك اللحظة، ففي تلك المنطقة من الأطلال التي كان يقف على أنقاضها أحد أكبر أحياء القاهرة الشعبية كلما اجتمع الشيخ غنام مع ابنه ريان كانت تتحول تلك المنطقة إلى منطقة منكوبة. الجميع يعلم رغبة ريان في خلافة أبيه، والأغلبية يعلمون طموحه الذي لا حدود له ولا مسيطر عليه.. والآن أصبح الجميع على شفا حفرة من تلك المواجهة التي يتخوفون منها.

تابع الشيخ غنام حديثه غير آبه بدخول ابنه:

- لذلك ومن منطلق كوني كبير القاهرة فإنني أعلن لكم أن سلامكم وأمنكم هو مسؤوليتي الوحيدة والدائمة حتى آخر أنفاسي، أنا أرفض هذا العرض تمامًا ولا أقبل به.

تحرك ريان إلى الأمام وتحفز حرس أبيه لكنه هدأ مرة واحدة وابتسم قائلًا:

- لكن يا شيخ، نحن نفقد فرصة كبيرة للحصول على غذاء وذخيرة وربما نفاوضهم مُستقبلًا على أسلحة أيضًا وربما يحدث بيننا تعاون في المُستقبل، هذا العرض سيفيد الطرفين.

نهض الشيخ غنام مُشيرًا لما حوله بعصاه قائلًا:

- أتريدني أن أبيع قومي ببعض الخبز والرصاص؟!

أحـس ريـان بتعلـق العيـون بـه لكنـه لم يفقـد رباطة جأشـه ودافـع عـن منطقـه قائلًا:

- يمكننـا أن نقـدم لهـم المغضـوب عليهـم أو مـن يرتكبـون المخالفـات هكـذا نكـون قـد وجدنـا عقابًـا للمتمرديـن وفي الوقـت نفسـه نكـون قـد نفذنـا المطلـوب مننـا لسريـان هـذا الاتفـاق.

دق الشيخ غنام الأرض بعصاه قائلًا:

- هــؤلاء قومــي، أنــا مــن أعاقــب مخطئهــم، وأكافــئ مُخلصهـم لا أنـت ولا المُسـتعمرة، لـن أوافـق ولـن أسـمح أبـدًا، حتـى لـو حاربـت مـن أجلهـم، أفهمـت يـا ريـان.

لم تفارق الابتسامة وجه ريان وهو يقول:

- أنـت أدرى بالأطـلال يـا شـيخ غنـام، إنـه مكانـك وأنـت تعـرف كيـف تحافـظ عليـه جيـدًا، وأتمنـى أن تظـل هكـذا حتـى آخـر أيامـك، ولـك طـول العمـر يـا أبي وسـيدي.

نظـر الشـيخ غنـام لابنـه نظـرة أخـيرة ثـم قـال بصـوت لم يسـمعه إلا هـو:

- أنا القاهرة.

****

«إنها كعكة، دائمًا وأبدًا كانت كعكة».

قالها صادق وهو ينفث دخان تبغه بعيدًا عن وجه مُسعد الذي رد عليه قائلًا:

- وستظل كعكة يتصارع عليها الناس حتى تقوم قيامتهم.

سحب صادق آخر أنفاس لفافته وهو يقول:

- أتعلم شيئًا أيها العجوز، إنها أجمل من أجمل كعكة قد رأيتها في حياتي.

- يبدو أنك جائع.

قالها مسعد ضاحكًا ليبتسم صادق وهو يستطرد:

- القاهرة، لغز دائم لا مفر منه، لن تحله أبدًا لكنك مُجبر على التعايش معه ومُجبر أيضًا أن يعيش فيك، ستكرهها لكنك إن ابتعدت عنها ستجد فيها ما يجذبك إليها ثانية، ستحبها لكنك ستريد مُفارقتها، أمرها غريب.

ضحك مسعد ثانية وهو يقول:

- أصبحت شاعرًا يا رجل.

- لا شعرًا ولا نثرًا يا عجوز لكن تلك هي الحقيقة. هي مُرة ولكنها تظل حقيقة.

- بالفعل هي حقيقة.

مـرت لحظـات مـن الصمـت ثـم عـاد يقـول صـادق مـن وسـط سـحابة دخانـه الكثيفـة:

- المُستعمرة تذكرني بالقاهرة.

نظر له مسعد وهو يقول:

- المُستعمرة لا تُشبه القاهرة لأنها هي القاهرة بالفعل.

أشاح صادق بوجهه وهو يقول:

- أتعلـم شـيئًا يـا جـدي في لحظـات أرى نفـسي أحمـل مشـعلًا كبـيرًا أحـرق بـه كل شيء أمامـي، المُسـتعمرة بالقاهـرة بأطلالهـا، بـكل شيء.

- هل تود حرقنا جميعًا فعلًا؟!

- وقتهـا سـنختصم عنـد الإلـه وهـو سيسـمعنا وسـيحكم بيننـا بعدلـه.

لم يعجب الكلام مسعد الذي قال:

- لا أوافقك الرأي يا صادق في هذا.

رد صادق:

- لأنك تحب المُستعمرة؟!

أجابه مسعد:

- ولمـاذا أكرههـا، مـن دون أسـوارها كنـت سـأموت كـما مـات جميـع مـن عرفتهـم يومًـا، أنـا أكـره القوانـين والقواعـد وليـس المـكان، أكـره الضوابـط الصارمـة التـي لا داعـي لهـا ولا

أكـره الجـدران، وإذا أتيحـت لي الفرصـة يومًـا مـا أن أمـوت دفاعًـا عـن أسـوارها فسـأفعل هـذا دون تـردد، ثـم إني عرفتـك دائمًـا مثـلي كارهًـا لظلـم المـكان وليـس المـكان نفسـه.

بُهـت صـادق مـن لهجـة مُسـعد الغريبـة عـلى آذانـه لكنـه قـال بنفـس الحـدة:

- كيف تُحب هذا المكان؟!

- وكيف تكرهه؟!

- هو رمز.

- رمز؟!

- أجـل رمـز للظلـم والقهـر، إنهـا عبوديـة العـالم الجديـد يـا جـدي هيـا اسـتيقظ مـن سـباتك.

لأول مـرة ينهـض مسـعد بعـد مقابلتـه لصـادق دون أن يبتسـم ودون أن يتفـوّه بحـرف واحـد.

****

«أبي يضيع علينا فرصة لن نجدها مرة أخرى، الغذاء يشح ولن نستطيع إطعام كل تلك الأفواه الجائعة التي سيتمرد علينا أصحابها في أقرب فرصة تتاح لهم».

قالها ريان بكل غضب وحقد الدنيا الذي يعتمل بنفسه فحاول سالم تهدئته قائلًا:

- خيوط اللعبة كلها ما زالت في أيدينا ولم تهرب منا بعد.

بنفس الغضب قال ريان وهو يجلس على كرسي مُتهالك أمامه:

- إن انتظرنا أكثر من هذا فستضيع اللعبة كلها منا وسنصبح خارج إطار الرؤية، الآن المُستعمرة تعترف بنا وتعرف أن هناك كبارًا وقادة للأطلال لا بدَّ من الحديث معهم وأخذ الإذن منهم قبل الاقتراب من الأطلال، لكننا نركل عرضهم ونركل مؤخراتهم، إذن ما يريدونه سيحصلون عليه بالقوة، إنهم يمتلكون طائرات حربية يا رجل.

كان سماع كلمة طائرات حربية بمثابة صدمة كهربائية تعرض لها سالم، وأعادت له ذكرى تمنى نسيانها ودفنها لكن هيهات، لا مفر منها الآن.

وبكل الرعب صاح سالم:

- هل سيستخدمونها ضدنا؟

- بـكل تأكيـد يـا سـالم لذلـك يجـب علينـا أن نتحـرك ونضرب ضربتنـا بسرعـة بـلا إبطـاء أو تأخـير، هل أنـت ورجالـك معي؟!

دون تردد قال سالم:

- معك حتى الموت يا رفيقي.

نهض ريان وصافحه بقوة وهو يقول:

- الآن سـيذكر التاريـخ تلـك اللحظـة، لحظـة بدايـة خطـة إنقـاذ القاهـرة.

****



السير، يحبه، مُعتاد عليه، لم يخش قط سفرًا لطول المسيرة أو بُعد المُراد، كان يحب السير مُنفردًا هكذا خُلق، سيره مُتعة إن كان وحيدًا، نقمة إن كان في جماعة. سيره يشعره بالحياة، يرى فيها الأضواء والألوان يشكلهما كيفما يشاء راسمًا في خياله لوحه لا تقل حيوية ولا جمالًا عن الموناليزا، كم مرة في سيره رسم الموناليزا والعشاء الأخير، فقط في خياله، فالإله لم ينعم عليه قط بموهبة الرسم، لكنه سار ويسير وسيسير بهدف أو من دون لن يعيش بلا سير.

هذه المرة سيره طويل للغاية، بلا هدف والطريق أمامه طويل لا نهاية له، لا تسعفه الذاكرة ليتذكر متى بدأ سيره هذا، كل ما يعرفه أنه يسير منذ وقت طويل للغاية، يسير ويسير ويسير..

السير، يحبه، معتاد عليه.

منذ أن ولد وهو يسير، كان قد تعلم السير قبل أوانه، هكذا كانت تقول له أمه دائمًا، كان ذكيًا دقيق الملاحظة، حتى عندما وصل إلى الرابعة من عمره، اشتكت والدته من عدم تفريقه الألوان بعضها عن بعض، كذبها هو أمام الطبيب، وكأنه كان تحديًا، حيث فرق كل الألوان بسهولة، وخطفت الأضواء بصره، لقد كان يحب الألوان حبًا جمًا، لكن حياته كانت دائمًا بلا ألوان.

****

في إحـدى خيـام الضيـوف التابعـة للشـيخ غانـم، جلـس عـلى الأرض مـع ثلاثـة رجـال يتناولـون الطعـام ويتبادلـون حديثًـا باسـمًا في مـا بينهـم ولا يوجـد معهـم إلا رجـل واحـد فقـط مـن حـرس الشـيخ، كان الـود طاغيًـا عـلى جلسـتهم الوديـة تلـك لكنـه تبخـر سريعًـا عندمـا سـمعوا جميعًـا دويّ انفجـار زلـزل الأرض مـن تحتهـم، نهضـوا جميعًـا فزعـين وامتـدت يـد الحـارس إلى سـلاحه بينـما صرخ أحـد الرجـال:

- يبدو أن المُستعمرة لم يعجبها ردنا على عرضها.

وقبـل أن يـرد عليـه أحـد، دخـل الخيمـة أحـد الحـراس وهـو يصرخ:

- نحن نتعرض لهجوم من الجهة الشرقية.

صاح الشيخ غنام في حارسه قائلًا:

- اجمـع مـا تسـتطيع مـن الرجـال واذهـب إلى هنـاك، وحـاول إبلاغـي عـن طريـق اللاسـلكي بمـا يحـدث عنـدك عندمـا تصـل إلى هنـاك.

ثـم توجـه إلى صنـدوق خشـبي كبـير في أحـد أركان الغرفـة فتحـه وتنـاول جهـازًا لاسـلكيًّا وأعطـى لرجلـه الجهـاز الآخـر وهـو يصرفـه، ثـم طفـق يـذرع الخيمـة جيئـة وذهابًـا والرجـال مـن حولـه يتبادلـون حديثًـا مذعـورًا بينـما أخـذ الشـيخ غنـام يـردد:

- كان يجب أن أستعد لهذا اليوم.

أخذ يكررها مرارًا وتكرارًا حتى دخل الخيمة ابنه ريان بصحبة سالم، اتجه الأب ناحية ابنه وهو يصيح به:

- نحن نتعرض لهجوم يا ريان.

لم يحرك ريان ساكنًا وهو يقول:

- كان يجب أن تتوقع هذا يا أبي، المُستعمرة لن تنسى لك رفضك لعرضهم.

ابتعد عنه أبوه وهو يقول:

- لي الحق في اتخاذ القرارات التي أرى أنها صالحة.

رد ابنه سريعًا:

- صالحة من وجهة نظرك أنت وليس من وجهة نظر رعيتك يا شيخ غنام.

لأول مرة ينادي عليه بهذا اللقب فدائمًا كان يناديه بأبي أو سيدي وعندما يحتدم بينهم الجدال كان يقول له يا شيخ فقط دون غنام. لكن أبيه لم ينتبه لهذا وهو يصرخ:

- لم أتوقع أن تكون ردة فعلهم عنيفة إلى هذه الدرجة.

أمعن ريان النظر في وجوه الرجلين رفاق أبيه وهو يقول:

- أنت لم ترَ بعد الطائرات والدبابات والمدرعات، إنهم يمزحون معنا فقط.

ومـن بعيـد تناهـى إلى مسامعهم أصـوات إطـلاق النـيران، فامتـدت يـد غنـام إلى أحـد الأسـلحة الملقـاة أرضًـا ولكـن سـالم تحـرك بسرعـة مخيفـة حتـى وصـل إلى يـده وأمسـكها قائـلًا:

- ماذا تود أن تفعل يا سيدي؟

رد الشيخ وقد بدأت الرجفة تزور أحباله الصوتية:

- إنهـم عـلى أبوابنـا، إنـه غـزو يجـب أن نتصـدى لـه، لـن تسـقط القاهـرة مرتـين أبـدًا.

بـدأت أصـوات الانفجـارات تقـترب وأصـوات الرصـاص تقـترب أكـثر فأكـثر حتـى سـكنت تمامًـا وصمـت كل مـن بالخيمـة، بـل صمتـت أطـلال القاهـرة كلهـا، ولم يعـد هنـاك أي صـوت عـلى الإطـلاق، مـرت دقائـق والجميـع متخشـبون في أماكنهـم بـلا حـراك وكأنهـم في صـلاة صامتـة مقدسـة يفسـدها الصـوت. حتـى اقتحـم الخيمـة عـدد مـن صبيـة ريـان وقـال أحدهـم:

- الأمر تحت السيطرة يا زعيم.

مـلأ الرعـب وجـه الشـيخ غنـام عندمـا رأى مرافـق ابنـه ينعتـه بالزعيـم في حضرتـه كذلـك أحـد رجالـه قـد فهـم الأمـر فامتـدت يـده إلى سـلاحه لكـن سـالم بـادره برصاصـه في منتصف جبهتـه لترديـه قتيـلًا ليجثـو الشـيخ غنـام عـلى ركبتيـه بينـما يقـول ابنـه بسـخرية شـديدة:

- لقد سقطت القاهرة بالفعل يا أبي.

ثـم وجـه سـلاحه إلى وجـه الرجـل الثـاني وأطلقـه بـلا تـردد ليسـقط الرجـل جثـة بـلا وجـه ويلتفـت إلى أبيـه وهـو يكمـل بنفـس السـخرية:

- لكن في يدي أنا.

صرخ الشـيخ غنـام كـما لم يـصرخ مـن قبـل، وبـكى بـكاء لم يبكِـه يـوم وفـاة أمـه. وريـان يشـاهده والابتسـامة مرسـومة عـلى شـفتيه والدمـوع تغـرق مقلتـي عينيـه.

صمـت الشـيخ فجـأة كـما صرخ وبـكى فجـأة ونظـر في عينـي ولـده وهـو يقـول بصـوت مُتحـشرج:

- لماذا؟

جثـا ريـان عـلى ركبتيـه ليقابـل أبيـه وجهًـا لوجـه وهـو يقـول لـه محـاولًا مغالبـة بكائـه:

- لمـاذا؟ لأنـك لا تصلـح، لأنـك ضعيـف وجاهـل، لأنـك ربيتنـي عـلى هـذا، آسـف أنـت لم تـربِّ ابنـك، أنـت جعلـت الشـارع هـو مـن يربيـه، وهـذا هـو مـا علمنـي إيـاه أبي الحقيقـي يـا شـيخ غنـام، انتـزع مـا تريـد طالمـا أنـت تسـتطيع، وهأنـذا أنتـزع منـك القاهـرة.

بصوت خائف رد عليه:

- وحياتي؟!

لم يـرَ أحـد مـن قبـل ريـان وهـو يبـكي، لكنهـم جميعًـا قـد رأوه هـذا اليـوم، بـكى طويـلًا ولم يجـرؤ أي ممـن حولـه علـى التحـرك. هـدأت نوبـة بـكاء ريـان فجـأة، وارتسـمت علـى وجهـه ابتسـامته المُخيفـة وهـو يقـول:

- وحياتك.

وعاجـل أبـاه برصاصـة في رأسـه أردتـه قتيـلًا في الحـال ليعود ريـان إلى بكائـه مـرة أخرى.

****



**عام ٢٠٤٠ م المقر الإداري لشركة (أمريكان جينوم).**
**بعد اندلاع الحرب العالمية الثالثة بيوم واحد.**

جلس ثلاثة من موظفي مجلس إدارة الشركة الأمريكية في أحد الأقبية المؤمنة داخل المقر الإداري للشركة تمهيدًا لنقلهم إلى المُستعمرة (ب) كانوا جميعًا مصريي الجنسية، وأحدهم هو المدير التنفيذي للشركة في القاهرة ورئيس مجلس إدارتها ومعه نائبه وأحد أعضاء مجلس الإدارة.

كان التوتر يشملهم برعايته ويغلفهم، وأصوات الانفجارات تأتي مكتومة من بعيد، القلق على العائلة، القلق على المستقبل، هم يعلمون أنهم محظوظون لأنهم من موظفي تلك الشركة، فأمريكان جينوم لا تنسى رجالها أو عائلاتهم، هم في حمايتها دائمًا وأبدًا على أي أرض.

قال هشام محجوب نائب رئيس مجلس إدارة الشركة بتوتر:

- أصوات الانفجارات لا تتوقف، أنا قلق للغاية.

رجل قصير القامة هو، ضئيل الحجم، أصلع الرأس، حاد النظرات، يرتدي نظارة طبية يقسم كل من حوله إنه ليس بحاجة إليها، صوته حاد بطريقه جعلته مثارًا لسخرية كل من حوله.

رد عليه رئيس مجلس الإدارة بصوت رصين وإن كانت تشوبه لمحة تعب واضحة:

- لا تقلق يا هاشم إنهم قادمون من أجلنا و..

قاطعته نوبة سعال عنيفة تناثرت معها قطرات دم من فمه، وانزلق من أحد جيوب بذته الأنيقة بخاخ صغير لم ينتبه إلى سقوطه أحد سوى هاشم الذي استغل قيام عضو مجلس إدارة آخر بمساعدة رئيسه، فداس بقدمه على البخاخ ليتهشم إلى قطع صغيرة ركلها سريعًا إلى أحد أركان القبو وهب إلى رئيسه هو الآخر مُتصنعًا الجزع والخوف عليه.

ذهب الرجل الآخر حيث باب القبو وأخذ يدق بيديه عليه ويبحث عن منفذ لفتحه فقاطع هاشم محاولاته قائلًا:

- لا تحاول، باب القبو لا يفتح من الداخل بل من الخارج فقط وبواسطة شفرة لا يمتلكها سوى فريق الإنقاذ فقط.

بدأت حالة رئيس مجلس الإدارة في السوء وأصبح يجاهد لكي يلتقط أنفاسه، وبدأت بشرته في الازرقاق، ويداه تبحثان عبثًا عن بخاخه، في حين صرخ هاشم:

- البخاخ أين البخاخ؟

تلفـت الرجـل حولـه باحثًـا عـن البخـاخ في حـين لم يعـد يصـدر أي صـوت مـن رئيـس مجلـس الإدارة وقـد سـال الـدم مـن شـفتيه في خيطـين رفيعـين فنظـر هاشـم إلى العضـو الآخـر قائـلًا وهـو يرسـم عـلى ملامحـه الحـزن والتأثـر:

- لقد مات الرئيس.

رد عليه الرجل الآخر:

- في أصعب توقيت.

سـاد الصمـت بينهـما للحظـات وقـام هاشـم بـترك جثـة مديـره عـلى الأرض وأغمـض عينيـه ونظـر إليـه نظـرة أخـيرة.

- الآن رسميًّا أصبحت أنت رئيس مجلس إدارة الشركة.

بنفس اللهجة رد هاشم:

- شيء لا أطلبه في وقت صعب للغاية، أنا خائف.

ربت عليه الرجل في حرارة وهو يقول:

- أنـا واثـق مـن أنـك سـتكون خـير مـن يقـود المُسـتعمرة (ب) بعـد الحـرب.

بابتسامة حزينة حقيقية هذه المرة قال هاشم:

- سأحاول أن نصل جميعًا إلى بر السلام آمنين.

****

قطع أحمد سلام رئيس الشركة الأمنية (الحراس) التابعة إلى شركة أمريكان جينوم الجسر الزجاجي المُعلق الواصل بين مبنى إدارته، والمبنى الإداري للمُستعمرة حيث مكتب قائد المُستعمرة هاشم محجوب بخطوات هادئة واثقة، هو ثالث قائد للحراس، تولى القيادة بعد صادق عبد الهادي الذي ترك المنصب والحراسة برمتها بعد خمسة عشر يومًا فقط من توليه القيادة.

كان ضابطًا سابقًا بوزارة الداخلية، وكان الكل يتوقع له مُستقبلًا باهرًا في العمل الشُرطي إلا أنه استقال فجأة من عمله، ليلتحق بإحدى الشركات الأمنية ذات الجنسية الأمريكية.

صارم هو، حازم في عمله عنيد وسريع الغضب، طويل القامة حيث يقترب من المترين طولًا وبرغم سنوات عمره الخمسين فما زال يتمتع بلياقة وقوة شاب في العشرينيات.

يحرص دائمًا على صبغ شاربه بالأسود، تاركًا البياض يعبث بشعر رأسه الكثيف، أعينه سوداء ذات نظرة قاسية.

وصل أخيرًا حيث مكتب هاشم محجوب ليطرق بابه ويدخل مُباشرة ويقف أمام هاشم محجوب وقفة عسكرية صارمة، فسأله الأخير بقلق:

- هل هناك مشكلة ما؟!

رد أحمد عليه:

- ليست مشكلة على الإطلاق، إنه خبر جيد.

بلهفة رد عليه هاشم:

- ما هو هذا الخبر؟

جلس أحمد وهو يقول:

- حدث انقلاب في الأطلال، ريان هو من تولى المسؤولية بعد أن قتل أبيه وكل الرجال الموالين له، وآلت إليه مقاليد الأمور في جميع أرجاء القاهرة.

بسعادة رد هاشم:

- هل ما حدث سيغير من سياستنا تجاههم أو العكس؟

- بالتأكيد، سيغير كل شيء، وجود ريان على رأس كبار أهل الأطلال سيعطي لنا فرصة بعرض ما لدينا مرة أخرى.

صمت للحظات منتظرًا رد رئيسه الذي تنفس بعمق وقال وابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيه:

- أعد إرسال عرضنا مرة أخرى إلى الأطلال، وقُل إن التعاون بيننا قد ينمو ويصبح أكبر، وسيصبح الطرفان رابحين.

نظر أحمد إلى هاشم مطولًا ثم قال:

- كما تأمر.

ثم غادر بخطوات سريعة مكتب هاشم تاركًا إياه خلفه غارقًا في تفاصيل خطته التي سيسيطر بواسطتها على القاهرة كلها.

****

جلس صادق على كرسي هزاز في غرفته، مُنتظرًا وصول صديقته لينا، ليحدثها في أمر يريد استشارتها فيه.

لم ينتظر كثيرًا حيث فُتح الباب ودخلت منه بعد أن أغلقته من خلفها وجلست قبالته على السرير.

الترقب والفضول ينهش جسدها، فلم يعتد صادق على طلبها بتلك الطريقة، فقد فوجئت به يدخل مقر عملها ويخبرها أن تمر عليه في المنزل لأمر هام لم يفصح عنه وقتها رغم مُطالبتها له بأن يتكلم.

نظر إليها صادق طويلًا مُتمليًا في ملامحها الجميلة طويلًا، كانت قصيرة القامة، مُمتلئة القوام، بيضاء البشرة، شعرها طويل ناعم مُنسدل على كتفيها ويشترك مع لون عينيها في لون الليل الذي يجعل لها مذاقًا مُختلفًا عن باقي النساء.

لم تحتمل صمته طويلًا فقالت له في نفاذ صبر:

- أتراني لأول مرة، أفصِح عما لديك بسرعة يا صادق.

لم يحرك عينيه من عليها وهو يقول:

- لقد قررت العودة إلى صفوف الحراس مرة أخرى يا لينا.

لم تستوعب ما قاله منذ أول وهلة فكررت:

- تعود إلى صفوف الحراس مرة أخرى، هل تمزح؟!

نظر إلى عينيها مليًّا وقال:

- لا، لا أمزح هذا قراري، وأريد أن أسمع رأيك به، هل أنتِ مؤيدة لي أم لا؟

لم تقدر وقتها على النظر في عينيه مُباشرة فاكتفت بالإشاحة بوجهها بعيدًا وقد تجمعت الدموع في مقلتي عينيها وهي تقول بصوت مبحوح:

- رأيي تعرفه منذ زمن، أنت لا يليق بك سوى العمل العسكري فقط، ولا شيء سواه يا صادق.

لم يبد صادق أي ردة فعل، في حين نهضت هي من على السرير بعد أن مسحت دموعها وأمسكت به من يده وهي تقول له:

- هيا بنا سنذهب إلى مقر عملك الجديد لتسحب أوراق الوظيفة، هيا أريد أن أشاهد عودتك لحظة بلحظة كأنه بث مباشر.

وضحكت ضحكة مبتورة انتزعتها انتزاعًا نظر لها نظرة أخيرة ثم ربت على خدها وقبلها على جبينها وأمسك يدها وسارا معًا حتى خرجا من السكن.

لم يتبادل الاثنان كلمة واحدة طوال سيرهما حتى وصلا إلى مقر الحراس، دخل صادق وهي وراءه المبنى، وسار صادق حتى وصل إلى مكتب التطوع وقابله واحد من الحارسين بدهشة شديدة، صيته ذائع، وشهرته واسعة،

القائد الذي ترك منصبه بعد أسبوعين فقط.

القائد الذي أصبح كالظل. عامله الحارس بود، فهو قائد سابق للحراس، وكذلك كان ضابطًا بالجيش المصري.

أخذ صادق بضع أوراق من الحارس بعد أن تبادل معه كلمات قليلة للغاية تخللتها ابتسامة مبتورة على شفتيه، ولينا وراءه تنظر له بشفقة.

انتبه لنظرتها لكنه لم يعقب عليها، أخذ في ملء الأوراق ثم همس لها قائلًا:

- تبقى فقط الكشف النفسي إن اجتزته بنجاح فسأعود كضابط وليس كجندي.

ابتسمت له وهي تقول له:

- ستجتاز الكشف بنجاح، لا تقلق، ثق بنفسك فقط.

نظر بعيدًا ثم قال لها:

- هل ستنتظرين الكشف أم ستذهبين.

ردت دون تردد:

- بالطبع سأبقى معك.

ظل الاثنان واقفين حتى أتى نفس الحارس إلى صادق وطلب منه الذهاب معه حيث سيوقع عليه الكشف النفسي.

ذهـب صـادق وحـده بينـما بقيـت لينـا في المكتـب، وبعـد دقائـق قليلـة كان صـادق في غرفـة أحـد الأطبـاء النفسـيين التابعـين إلى الحـراس.

وقـف أمـام الطبيـب الـذي كان يرتـدي البـزة السـوداء المُميـزة للحـراس.

بمجـرد وقوفـه وقفـة عسـكرية منضبطـة سـأله الطبيـب بصرامـة:

- ما اسمك؟

بصرامة وبصوت مرتفع رد:

- صادق محمود عبد الهادي.

هـمّ الطبيـب بـأن يسـأل سـؤالًا آخـر لكـن صـادق قاطعـه قائـلًا:

- ضابـط سـابق بالقـوات المسـلحة المصريـة برتبـة مُقـدم، ضابـط أمـن سـابق بشركـة الحـراس التابعـة لشركـة أمريـكان جينـوم، والقائـد الثـاني السـابق للحـراس.

صمت الطبيب ثم نظر في ملف صادق أمامه وسأله:

- لماذا تركت الحراس؟

دون تردد رد صادق بسرعة:

- كنت في حاجه إلى إجازة طويلة لأستعيد عافيتي.

نظر الطبيب في عينه وهو يقول:

- والآن تريد العودة إلى الحراس لتستفيد من المزايا التي حرمت منها.

اقترب صادق من مكتب الطبيب بخطوة واحدة عسكرية ثم قال:

- لقد تركت الحراسة عندما كنت قائدًا لها، بإرادتي الحرة، وكما تركتها أعود إليها مرة أخرى.

قال له الطبيب:

- آخر سؤال سأسأله له لك، ماذا تمثل المستعمرة بالنسبة إليك؟

بعد لحظات من التردد قال صادق:

- بيتي الذي دافعت عن أسواره ذات مرة، وإذا أتيحت لي الفرصة سأدافع عن أسواره مرة أخرى دون ذرة واحدة من التردد أو الخوف.

نظر الطبيب مرة أخيرة في ملف صادق ثم قال له:

- حسنًا في الغد سنرسل لك رأينا في تطوعك سواء بالإيجاب أو بالرفض.

ثم أخرج ورقة من درج مكتبه، ذيلها بتوقيعه ثم قال له:

- أنت في إجازة حتى ليلة الغد، قدمها إلى المجلس الرقابي اليوم.

أومـأ صـادق برأسـه وهـو يأخـذ الورقـة مـن الطبيـب وخـرج مـن الغرفـة ليجـد الحـارس في انتظـاره ليسـير أمامـه حتـى يصـل إلى لينـا التـي كانـت تنتظـره بقلـق وبمجـرد أن رأتـه اندفعـت نحـوه قائلـة:

- ماذا فعلت، هل تم قبولك؟

ربت على كتفها وهو يقول لها مُطمئنًا إياها:

- غدًا سنعلم يا لينا، لا تقلقي.

مالـت عـلى كتفـه فأبعدهـا بهـدوء حـازم وهـو مُبتسـم في وجهها وقـال لهـا برفـق:

- ليس هنا.

ابتعـدت عنـه بحركـة حـادة فأمسـك يدهـا وهـو يقـول لهـا بنفـس الأسـلوب:

- وليس الآن.

نظـرت لـه مندهشـة ولم تعقـب عـلى كلامـه، فهـو لم يرفضها يومًـا في أي وقـت، لكنهـا أرجعـت الأمـر إلى قلقـه وتوتـره، وعندمـا خرجـوا مـن مبنـى الحـراس قالـت لـه:

- عـليّ أن أذهـب الآن، ورديتـي التاليـة سـتبدأ بعـد سـاعة مـن الآن وعـليّ أن أسـتعد.

أومأ لها برأسه إيجابًا وقال لها:

- وأنا سأسير، لدي إجازة حتى الغد.

ابتسمت له وهي تقول في دلال:

- أيها المحظوظ، إذن سأنتهي من عملي وأمر عليك في السكن، علّنا نستفيد من تلك الإجازة في شيء مُفيد نفعله.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة ولم يرد عليها بل لوّح لها بيده وسار كل منهما في طريق مُخالف لطريق الآخر.. كالمعتاد.

سار صادق، بلا هدف محدد، وبعد ساعة وجد نفسه أمام مُسعد الذي كان قد انتهى من عمله لتوّه وقف أمامه وهو ينظر له، ثم تكلم سريعًا وكأنه يرمي قنبلة، ضاق ذرعًا بحملها:

- لقد قدمت طلبًا لإعادة التحاقي بالحرس مرة أخرى.

لم يتلقَّ مُسعد تلك القنبلة بروح رياضية، لم يرد على صادق وسار بعيدًا عنه، لحقه صادق وقال له بغضب:

- ما الذي تريد مني فعله، ما بيدي حيلة، وإن كنت أريد التغيير، فلن أستطيع التغيير وأنا مواطن عادي.

بنفس الغضب قال مسعد:

- وتعود مرة أخرى لمن كنت تهاجمهم، إنه النفاق بعينه يا رجل.

ظل مسعد سائرًا في طريقه، فأوقفه صادق بعنف قائلًا:

- ما ذنب هؤلاء، ليسوا هم المذنبين، القادة هم سبب البلاء.

بُهت مسعد من عنف صادق معه، فأزاح يده التي تمسك كتفه بقوة قائلًا:

- أنت مُخطئ كالعادة يا رجل، أنت تحيد عن الصواب وتفقد عقلك تدريجيًّا، قُل لي بصراحة إنك قد سئمت من المعاملة السيئة وتطمح إلى معاملة أفضل.

كاد صادق أن يلكمه في أنفه ولكنه تمالك نفسه سريعًا وهو يقول:

- أي مُعاملة التي تتكلمون عنها جميعًا، لقد تركت الحراسة وأنا قائدها بملء إرادتي، والآن أعود اليها كما تركتها.

أشاح مسعد بنظره بعيدًا فزفر صادق وهو يقول:

- اسمعني أيها العجوز، أنا رجل عسكري مهما فعلت، فأنا عسكري لا أعرف حياة غير حياة العسكرية والواجب، وبيتي يحتاجني، بيتي الذي فقدت من أجله عشرات الرجال من أجل الحفاظ عليه يحتاجني ويناديني، وأنا لن أخذله وسألبي نداءه حتى لو كلفني هذا حياتي.

نظر له مسعد ثم قال بهدوء مُميت:

- احذر مما تقوله يا صادق فقد يتحقق يومًا.

ثم سار مُبتعدًا عنه، ولم يحاول صادق إيقافه هذه المرة.

****

«لقد وصل عرضهم مُجددًا هذا الصباح يا زعيم، ولكنك كنت نائمًا ولم نرد إيقاظك أو إقلاقك، نفس العرض السابق، ولكنهم هذه المرة يؤكدون إمكانية التعاون بشكل أكبر بيننا وبينهم في المُستقبل، كما أنهم أيضًا يرسلون لك التحيات بشكل شخصي، بالإضافة إلى ذلك فقد تركوا لنا تعليمات تفيد بكيفية تسجيل ردنا على عرضهم وإرساله إليهم، وسيظل هذا الدرون لدينا جهاز اتصال بيننا وبينهم في حال قبولنا لعرضهم».

أنهى سالم كلماته أمام ريان الذي كان قد استيقظ لتوّه من نومه، ففرك الأخير عينيه ثم تثاءب قائلًا:

- أبلغهم بقبولنا لعرضهم.

تردد سالم كثيرًا في تنفيذ الأمر مما جعل ريان يسأله:

- قُل ما لديك، لا تتردد.

بصوت متردد رد عليه سالم:

- ألا يجب أن نفكر في هذا العرض مرة أخرى يا سيدي، أعتقد أن هذا العرض ينتقص من سيادتنا على المدينة.

ارتسمت الابتسامة المُخيفة إياها على وجه ريان ثم نهض مقتربًا من سالم قائلًا له:

- عندما يتم عرض صفقة عليك يا سالم، وبالمناسبة أي صفقة تحمل لك نسبًا مُتفاوتة من الخسارة والمكسب،

عليك أنت أن تحدد مقدار ربحك وتقارنه بمقدار خسارتك، فإذا ثقلت كفة أرباحك، تقدم إلى الأمام، وتمم صفقتك فورًا، وإن كان العكس فالعكس تمامًا، رؤيتي لهذا العرض أننا رابحون، غذاء وذخيرة وربما بعض الأسلحة مُستقبلًا، كذلك سنتخلص من المعارضين لنا أو المتمردين علينا، ولا تنسَ أن هناك العديد ممن ما زالوا يكنون بالولاء لوالدي الراحل. لذلك فنحن رابحون بنسبة مئة في المئة من هذه الصفقة، هل اقتنعت الآن يا صديقي.

رد سالم فورًا قائلًا:

- لا أحد يعرف الصالح للقاهرة إلا أنت يا ريان، أنا دائمًا بجانبك سواء اقتنعت بكلامك أم لا، أنا رجلك، وسأنفذ أوامرك فقط.

انتفخت أوداج ريان فربت على ظهر سالم وهو يقول:

- أنا أعرف يا صديقي أنا أعرف، لذلك لدي مهمة لك.

اعتدل سالم في وقفته وهو يقول لريان بحماس:

- مُرني يا سيدي.

أبعد ريان عينيه عنه للحظات وهو يقول:

- بعد أن تبلغ سكان المستعمرة بقرارنا، عليك أنت ورجالك أن تبحث عن من تبقى حيًّا من رجال والدي، فهؤلاء سيكونون أول قربان نقدمه لهم، ضِف على ذلك أن



عـدد الأشـخاص الـذي سـيطلب سـتقوم أنـت بزيادتـه، كعربـون محبـة بيننـا وبينهـم.

قالهـا وهـو يغمـز بعينـه اليمنـى ثـم أشـار لـه أن ينـصرف فانـصرف الرجـل فـورًا.

وقـف ريـان وحيـدًا بعـد مغـادرة سـاعده الأيمـن، توقـع أن يكـون سـعيدًا عندمـا يصبـح في الحكـم، لكنـه حزيـن، يعلـم أنـه مُخطـئ. بـل هـو متأكـد مـن هـذا، يـرى نفسـه يركـض بأقـصى سرعتـه نحـو الحفـرة، لكنـه لـن يتوقـف، ولا يريـد أن يتوقـف. هـو يريـد أن يقـول عنـه النـاس، ريـان. الرجـل الـذي سـار نحـو نهايتـه بخطـوات هادئـة.

****

فتح الخزانة المحفور عليها حروف اسمه وأخرج منه رداءه أسود اللون المُكون من قطعة واحدة، ليرتديه، ثم يتبعه بالخوذة التي لم يغلق زجاجها الأسود، ووقف يتأمل شكله في المرآة، وكأنه قد صغر عشرات السنوات دفعة واحدة، عندما حلق ذقنه، وأجبرته لينا على صبغ الشعيرات البيضاء التي ظهرت في رأسه.

نظر نظرة رضا أخيرة على نفسه ثم قام بتثبيت درعه الواقي على صدره وتحسس غمده الخالي من السلاح فهو لم يستلم مسدسه بعد، وإن كان قد استلم هراوة كهربائية مؤقتًا.

التفت خلفه فوجد لينا تنظر إليه بسعادة بالغة وبمجرد أن التف اندفعت هي نحوه مُسرعة لتتعلق برقبته، ليتركها تحتضنه وبعد لحظات قالت له:

- أيامنا السوداء، قد ولت بلا رجعة يا صادق.

أزاحها برفق غير معتاد وهو يقول:

- أجل، ولت إلى الأبد.

أزاحت خصلة نافرة من شعرها الفاحم وابتعدت عنه مسافة قصيرة لتلقي نظرة أشمل عليه وهي تقول:

- الأسود يليق بك فعلًا.

نجحت عبارتها في جعله يبتسم حتى قالت هي:

- أتعلم أنه يمكننا الزواج الآن.

حافظ صادق ببسالة حقيقية على ابتسامته وقال لها بصدق:

- أتمنى أن أعيش إلى اليوم الذي أتزوجك فيه فعليًّا أمام الجميع.

غزا القلق محياها الجميل وعلقت:

- هناك استثناء لرجال الأمن كي يسمح لهم بالزواج، أم أنك تتهرب مني؟

قالت شطر عبارتها الأخير مُمازحة إياه، ولكنها قد فشلت في هذا وإن ظل محافظًا على ابتسامته الهادئة ورد عليها قائلًا:

- هناك استثناء بالطبع وأنا أنوي استغلاله يا حبيبتي، لكن لا بدَّ لي من تثبيت أقدامي أولًا في الشركة مرة أخرى، ويجب أن أثبت للجميع أنني القائد الحقيقي الوحيد هنا، هناك العديد من الأشياء التي لا بدَّ أن تتغير.

هنا ازداد القلق ولم تتحمل لينا أكثر من هذا فقالت:

- ماذا تنوي أن تفعل بالضبط يا صادق، ما الذي تخطط لفعله؟

مال صادق نحوها وطبع قُبلة على وجنتها وهو يقول لها بهدوء:

- سأفعل واجبي ولا شيء غير واجبي، لا تقلقي يا عزيزتي، وتفسدي علينا تلك اللحظة.

هي لم ترد فعلًا إفساد لحظته تلك فقررت المغادرة وتركه وحيدًا في تلك اللحظة، ربما كانت هي عبئًا عليه.

وغادرت السكن ليغادر بعدها بدقائق، أحس بالنشوة وهو يسير تحت أشعة الشمس بزيه الأسود المُميز، وتعمد أن يلقي التحية على كل من يقابله ليستمتع بنظرات الناس إليه وهو يرتدي زيه ودرعه الجديدين.

لكن قبل الوصول إلى مقره تعمد أن يقف أمام مراقبه السابق وهو يقول له بسخرية:

- مرحبًا بك أيها المراقب ذو الزي الأزرق، ما الذي دفعك إلى النزول مُبكرًا هكذا قبل موعد عملك الرسمي.

نظر له المراقب بدهشة وهو يقول:

- إذن ما سمعته صحيح لقد عُدت إلى صفوف الحراس مرة أخرى.

فرد صادق ذراعيه على جانبيه بامتدادهما وهو يقول:

- أرتدي زيًّا ودرعًا وخوذة بلون الليل، أعتقد أنني منهم الآن.

ثم قهقه بصخب وعاد يقول:

- في المـرة القادمـة التـي أراك فيهـا في الشـوارع دون إذن مسـبق لـن أخالفـك بـل سـألقي القبـض عليـه.

في الترتيـب الوظيفـي والسـلطوي، فالحـارس هـو أعـلى موظفـي الشركـة مرتبـة، وسـلطته تفـوق سـلطة أي موظـف إداري آخـر.

فاكتفى المراقب بأن يقول:

- لك هذا أيها الضابط، لك هذا.

لوح صادق له بيديه مودعًا ثم أكمل سيره.

****

أخـذ ريـان يتجـول مـع رجالـه وسـط أطـلال القاهـرة، ثـم أشـار إلى بقعـة معينـة تقـع عـلى سـطح إحـدى المبـاني التـي لم تتهـدم بشـكل كامـل ثـم قـال لرجلـه سـالم:

- وهنـا أيضًـا أريـد دوريـة ثابتـة للمُراقبـة، تتغـير كل اثنتـي عـشرة سـاعة، اجعلهـا تتكـون مـن ثمانيـة رجـال، أربعـة رجـال صباحًـا ومثلهـم ليـلًا، واهتـم بوسـائل الإضـاءة لـدى دوريـة الليـل.

أومأ سالم برأسه وتابع السير وراء زعيمه الذي قال:

- أيضًـا أريـد ثلاثـة فـرق كل فرقـة تتكـون مـن خمسـة رجـال بأسـلحة ناريـة ليطوفـوا حـول حدودنا كل سـت سـاعات، كذلـك قُـم بجمـع كل الوقـود الـذي لدينـا وضعـه في إحـدى سـياراتنا الخفيفـة مـع بضعـة رجـال مسـلحين.

صمت دون أن يعطيهم وظيفة معينة فسأله سالم:

- وهؤلاء ما دورهم؟

رد ريـان بسرعـة وهـو يتوقـف أمـام أحـد البيـوت التـي مـا زالـت صامـدة بشـكل مـا ولم تدمـر مـن أثـر القصـف الجـوي:

- سـيحاولون اخـتراق حـدود القاهـرة والذهـاب إلى مـا يجاورهـا، للبحـث عـن ناجين في المقام الأول قد نسـتفيد منهم في مـا بعـد، وفي المقام الثاني سـيبحثون عـن غذاء أو مصـادر للطاقة أو أسـلحة أو ذخـيرة أو ملابـس أو أي شيء آخـر ذي قيمـة.

ثم أضاف بعد لحظات من الصمت:

- هــذا البيــت المكــون مــن ثلاثــة طوابــق ســيكون مقــر إقامتــي الجديــد، احرصــوا عــلى نقــل كل أغــراضي إلى هنــا.

ثم التفت إلى أحد الصبية الملثمين من خلفه قائلًا:

- منــذ هــذه اللحظــة ســيتولى حــرسي الخــاص هــذا المنــزل، الطابــق الأول لكــم، الطابــق الثــاني لأغــراضي، أم الطابــق الثالــث فســيكون مــكان مبيتــي.

وأكمــل ســيره يلتفــت حولــه هنــا وهنــاك ويقابــل بعــض الرجــال الذيــن يتحدثــون معــه حــول مشــاكلهم أو بعــض الاقتراحــات، فــكان يســمعهم بصــبر ويأمــر أحــد رجالــه بكتابــة كل مــا يقــال لــه ليقــوم بدراســته في مــا بعــد.

وعندمــا انتهــت جولتــه أمــر رجالــه بالانــصراف كل إلى عملــه وأبقــى عــلى ســالم الــذي قــال لــه:

- أنــت لم تنــم منــذ ليلتــين، وجهــك شــاحب وملامحــك مرهقــة، يجــب أن تنــال قســطًا مــن الراحــة.

التفت له ريان وقال:

- هنــاك أمــر يشــغل بــالي بشــدة منــذ أن توليــت مســؤولية القاهــرة.

رد سالم:

- ما هو هذا الأمر؟

- أريد نظامًا قويًّا، مُتماسكًا لا تنفصم عراه.

لم يفهم سالم مقصد ريان الذي تابع قائلًا:

- مخازن الطعام، سنزود عليه الحراسة ويجب أن يكون مسؤولًا عنه شخص واحد فقط، هذا الشخص مهمته الأساسية توزيع حصص الطعام، وأيضًا البحث عن طرق وسبل جديدة لتوفير الطعام، كذلك مخازن الأسلحة التي ستكون مهمتك أنت وحدك.

رد عليه سالم:

- ثقتك فيّ تسعدني، سأكون عند حسن ظنك.

لم يلتفت ريان إلى عبارته وتابع:

- ستكون مسؤولًا عن كل ما يخص السلاح وذخيرته، وستحاول البحث عن سبل جديدة للحصول على الأسلحة، كذلك سيكون هناك مسؤول عن أمن القاهرة، أريد أن يهتم كل رجل فقط بوظيفته دون غيرها، وسنكافئ المخلص والمُجِدّ في عمله، وسنعاقب المخطئ، سيكون هناك نظام، ولن أسمح أبدًا بخرق هذا النظام.

لم يعقب سالم فاستطرد ريان:

- ماذا فعلت في ما أمرتك به؟

رد سالم سريعًا:

- كل من تبقى حيًّا من رجال الشيخ غنام، تم نقلهم إلى أحد المُستودعات الكبرى التي تقع على أطراف الأطلال القريبة من الطريق الصحراوي، ليسهل هذا من عمليات التبادل المُستقبلية.

رد ريان باستحسان:

- جيد ما فعلت يا صديقي، لكن ماذا عن عائلات هؤلاء الرجال؟

توتر سالم لكنه نجح في إخفاء توتره ورد عليه:

- أنت لم تأمر بشيء في هذا الصدد، لذلك لم أفعل شيئًا لهم.

بحماسة رد ريان:

- أنت رجل مُخلص يا سالم، لقد أحسنت أيضًا في هذا، أما بالنسبة لعائلات هؤلاء الرجال، فقم أيضًا بنقلهم مع ذويهم في نفس المستودع وضاعف عليهم الحراسة؛ لأنني سأدخلهم في عمليات المُقايضة تلك مع المُستعمرة.

بوجوم رد سالم:

- لكنهم ليسوا طرفًا في خصومتنا مع ذويهم يا زعيم، هم لا ناقة لهم ولا جمل.

- أجل أعلم، وأنا أشعر بالأسف من أجلهم، ولكنني أريد عددًا كبيرًا من الناس لأوردهم إلى المُستعمرة.

- لك ما طلبت يا سيدي.

ربت ريان على كتفه وهو يقول له مُشجعًا:

- ونِعَم الصديق المُخلص أنت يا رفيقي، أنا محظوظ لوجودك معي في تلك الحقبة التي ستكتب في تاريخ مصر الجديدة.

ابتسم سالم ابتسامة شاحبة لم يملك غيرها ولم يرد على ريان الذي استطرد قائلًا:

- سنكتب تاريخًا جديدًا لمصر، وسأكون أنا أهم جزء في هذا التاريخ.

****

أحس صادق بنشوة عارمة عندما أذل المراقب، كان هدفه وقتها أن يراه أكبر عدد ممكن من المواطنين وهو يرتدي زي الحراس الأسود المُميز، بدأ عدد المواطنين في التناقص فقد حان موعد العمل الرسمي الموحد لكل سكان المُستعمرة، ومع قلة عدد الناس، خفتت حماسة صادق ونشوته، تضايق من ضوء الشمس فأنزل زجاج خوذته ليقي عينيه من الشمس، وانحدرت من عينيه دمعة صامتة.

ظل سائرًا في طريقه إلى نقطة تجمع الحراس بلا حماس أو رغبه في الوصول، كما أن الانسحاب والعودة كانا يداعبانه طول الطريق، فأصبح السير الحماسي، كسير من يقدم خطوة ويؤخر الأخرى.

لكن لفت انتباهه توقيف دورية من جنديين لرجل ما لم يتبين ملامحه من بعيد، لكن عندما اقترب من الدورية والرجل، تعرف عليه فورًا، فقد كان مُسعد.

اندفع نحو الجنديين ليقف حائلًا بينهما وبين مسعد وهو يصيح بهما:

- ماذا تفعلان هنا؟

كان صادق هو الأعلى رتبة وتبين الجنديان هذا عن طريق الشريطين الذهبيين المحيطين بسواعد يديه.

وقف الجنديان وقفة عسكرية صارمة وأحدهما يقول:

- هـذا المواطـن يسـير بتلكـؤ شـديد وقـد حـان موعـد العمـل يـا سـيدي الضابـط.

رد مسـعد بصـوت مرتجـف ولم ينتبـه إلى صـوت صـادق بسـبب ارتباكـه الشـديد:

- لقد أخبرتهم أن ظهري يؤلمني ولا أستطيع السير.

صاح عليه الجندي الآخر:

- إذا صدقنا كل شخص يخبرنا أنه متعب فلن نجد من يعمل في المستعمرة كلها أيها العجوز الخرف كما أنك..

قاطعه صادق بلطمة قوية أطارت خوذته غير المحكمة الغلق من الأساس وقد شُج جانب وجهه الأيمن وسال منه الدم غزيرًا.

تحسس الجندي موضع إصابته في ألم، بينما أزاح صادق زجاج خوذته وهو يصرخ به:

- لا تتحدث وأنا واقف أيها الجندي، ما زال هناك وقت هو لم يتأخر كثيرًا، هيا انصراف.

أخذ الجندي خوذته وهو ينظر إلى صادق بعد أن أدى له التحية العسكرية في حين انسحب زميله وراءه بلا كلمة واحدة بعد أن أدى التحية هو الآخر لصادق.

بعد انصراف الجنديين استدار صادق إلى مسعد الذي صُعق لرؤيته في الأسود ولم يبدِ أي ردة فعل، لم يظهر عليه إلا اختلاجة حزينة غزت وجهه.

ربت صادق عليه وأخذ بيديه ليسيران معًا صامتين، إلى أن كسر مسعد حاجز الصمت قائلًا:

- هل ما سمعته صحيح؟

رد عليه صادق:

- ماذا سمعت؟!

- لقد مات الشيخ غنام أو قُتل، وتولى ابنه مسؤولية القاهرة وأطلالها من بعده.

- أجل، مات غنام وتولى ابنه المدلل مقاليد الأمور وسنعاني كثيرًا منه، فطموحه كما يقال ويُحكى عنه أنه بلا حدود.

لم يرد مسعد وساد الصمت للحظات ثم سأله مسعد فجأة:

- الأمور تزداد سوءًا، أعتقد أن المشكلات التي لا حل لها على عتبات أبوابنا ولن يردها أحد.

رد صادق على سؤاله بسؤال آخر:

- لم خلقنا الله على هذه الأرض يا جدي الحبيب؟

تعجب من سؤاله لكنه أجابه:

- لأشياء كثيرة يا ولدي، العبادة وتعمير الأرض وجعلنا أمناء على كل ما وهبنا الله.

ابتسم صادق وهو ينزل زجاج خوذته قائلًا:



- لقـد خلقنـا للإصـلاح يـا جـدي، وهـذا مـا أنـوي أن أفعلـه، لـن أرى السـفينة تغـرق وأقفـز منهـا، سـأصلحها، أو سـأموت وأنـا أحـاول.

****



نفس الحُلم دائمًا، نفس التفاصيل، ما حدث قد طُبع في ذاكرته، طباعة لا أمل في محوها مع الزمن، يرى في ذلك الحلم ما حدث يومها بالتفصيل، أما اليوم فهو يشاهده كفيلم سينمائي عتيق هو أحد أبطاله، فرغم مرور عشرات السنين، ما زال يشعر بنفس الخوف الذي شعر به في تلك الليلة، يشم رائحة البارود المُمتزج بالدماء والغبار، يُصعق من صوت الانفجارات.

يشاهد موت أمه الذي تسبب فيه أبوه يوميًّا، لقد حجز تذكرة أبدية لمُشاهدة هذا الفيلم الذي لن يرفع من دور العرض أبدًا طالما ظل هو حيًّا..

يرى نفسه صغيرًا لم يتجاوز العشر سنوات عندما طال منزلهم قصف إحدى طائرات التحالف الشرقي. فزع أبوه، صراخ أمه عندما أصيبت إصابة فادحة، تجاهل أبوه كل ذلك، وبحث عن حقيبة ممتلئة عن آخرها بالمال، أخذها وحمله، وبطريقة ما نجا الاثنان. وماتت الأم.

شعر ريان بصورة أو بأخرى أن له يدًا في ما حدث لأمه، هو وأبوه الشيخ غنام من تركاها خلفهما، ولكنه كان صغيرًا لا يملك أمر نفسه، كان ينتظر الانتقام لوالدته حتى يقدر على النوم.

لكنه بعد استيقاظه مفزوعًا في تلك الليلة شعر أنه قد انتقم من الشخص الخطأ، وأن انتقام والدته لا يزال ناقصًا..

****

وقـف صـادق وسـط الجنـود المُسـتجدين والمتطوعـين في طابـور منفصـل عـن طوابـير باقـي الحـراس في انتظـار قائـد الحـراس الـذي سـيوزع عليهـم الوظائـف مـا بـين حفظـة الأمـن أو دوريـات حراسـة خارجيـة.

كانـت الشـمس حارقـة والسـواد المُتشـح بـه الرجـال يزيـد مـن حرارتهـا ولكنهـم ظلـوا ثابتـين عـلى وقفتهـم العسـكرية الصارمـة.

مـرت ربـع سـاعة كاملـة حتـى وصـل أحمـد سـلام قائـد الحـراس وعنـد وصولـه صـاح أحـد الضبـاط:

- انتباه.

ضرب الحـراس كعـوب أقدامهـم في الأرض في وقـت واحـد تقريبًـا ليثـيروا عاصفـة مـن الغبـار.

وقـف أحمـد بـين الطابوريـن في شـموخ وهـو يضـع خوذتـه تحـت إبطـه مُتفقـدًا جنـوده وضباطـه، ظـل سـائرًا بـين الصفـوف حتـى توقـف أمـام طابـور الجنـود الجـدد والمتطوعـين وصـاح بصـوت عـالٍ بلهجـة آمـرة لا تقبـل النقـاش:

- اخلعوا خوذكم.

ليخلـع الجميـع خوذهـم ووقـف هـو يتأمـل وجوهـم وهيئاتهـم ثـم قـال:

- الحـرس، خـط الدفـاع الأول والأخـير عـن هـذا المـكان، مـن يحسـب أنـه يلتحـق بنـا مـن أجـل ميـزة مـا أو لغـرض ينتفـع بـه فأنـا أقـول لـه أنـت واهـم كبـير، الحـرس يموتـون كل يـوم مـن أجـل بقـاء تلـك المُسـتعمرة آمنـة، نحـن أسـاس هـذا المـكان، ومـن دوننـا لـن يسـتقيم هـذا المـكان أبـدًا.

نظر إلى صادق وتلاقت أعينهم للحظة ثم قال:

- سـتخرج دوريـة واحـدة فقـط اليـوم سـنحدد أسـماء ضباطهـا وجنودهـا الآن، أمـا بقيـة العنـاصر فسـيتوزعون لمهـام داخليـة.

ثـم اسـتدار مُبتعـدًا ليقـف مـع بعـض الضبـاط وهـو يتكلـم معهـم مُشـيرًا إلى طابـور الجنـود الجُـدد، وبعـد دقائـق أتى أحـد الضبـاط أمـام طابـور الجنـود الجـدد المكـون مـن صفـين كل صـف بـه عـشرة رجـال قائـلًا بصـوت جهـوري:

- صـادق محمـود عبـد الهـادي إلى خـارج الطابـور، أمـا بقيـة الرجـال فسـيتوزعون عـلى أبراج السـور.

ثم أشار إلى أحد الضباط القريبين:

- الضابط محمد سيوزع عليكم مهامكم، انصراف.

اسـتدار الجنـود الجـدد جميعًـا إلى حيـث يقـف الضابـط الـذي سـيوزع عليهـم المهـام في توقيـت واحـد وسـاروا نحـوه بخطـوات عسـكرية صارمـة تدربـوا عـلى أدائهـا لفـترة طويلـة،

بينما وقف صادق وحده منعزلًا عن الدنيا، لا يرى أو يسمع أو يشعر بأي شيء. وزاد الطين بلة أن الضابط قد تركه دون أن يعطي له أي أوامر وعلى الجانب الآخر تم اختيار ثمانية عشر رجلًا ليشكلوا طابورًا آخر بينما تفرق باقي الحراس في جميع أنحاء المُستعمرة.

استمر حديث قائد الحراس مع ضباطه حتى أشار أحد الضباط إلى صادق أن يذهب إليهم، ارتدى صادق خوذته، وسار بخطوات عسكرية صارمة ثابتة وبقلب مُضطرب ورغبة عارمة في الهروب تجتاحه، لكنه كان قد وصل إلى أحمد سلام فتوقف أمامه مُباشرة وأدى له التحية العسكرية، ليردها له أحمد وهو يمد يده إليه قائلًا:

- مرحبًا بك يا صادق بين صفوفنا مرة أخرى.

رد عليه صادق:

- أشكرك يا سيدي.

بدأ أحمد في السير فعليًا وهو يقول له:

- هلا سرت معي قليلًا يا صادق.

رد صادق بطريقة آلية:

- لي الشرف يا سيدي.

بطأ أحمد من خطواته حتى لحق به صادق وبعد لحظات من الصمت قال الأول:

- لماذا الآن؟

فهم صادق مغزى السؤال فقرر عدم المراوغة والرد مباشرة فقال:

- لأن هذا ما ولدت لأجله، الحياة العسكرية هي كل ما أعرفه، فأنا لا عائلة ولا أهل لي، لا يوجد لدي أحد أخاف عليه أو يخاف عليّ.

رد أحمد بسرعة:

- كما أنك قوي وشجاع وتدربت جيدًا وقُدت الحرس من قبل.

توقف صادق عن السير وقال بحدة:

- أنا رجل عسكري، جُبلت على طاعة الأوامر والعمل لصالح المكان الذي أنتمي إليه، أنا أخدم الآن المُستعمرة، وهذا كل ما سأفعله حتى آخر أيامي يا سيدي.

مهدئًا إياه رد:

- أنا أعلم كل هذا، ولذلك اخترتك اليوم لتكون ضمن ضباط الدورية التي ستخرج للأطلال.

شعر صادق بمزيج من التوتر والقلق والترقب في حين استطرد أحمد:

- أنا أعلم إمكانياتك جيدًا يا صادق، ولا مشكلة لدي في وجودك هنا، أنا من أوقع أوراق انضمام العناصر الجديدة

إلينـا، وقـد قـرأت اسـمك ووافقـت عـلى وجـودك، لـو كان لـدي مشـكلة معـك لما وافقـت عـلى انضمامـك مـن الأسـاس، الفـترة القادمـة حاسـمة في تاريـخ بلادنـا، ولذلـك نحـن نحتـاج إلى كل فـرد عسـكري مـدرب.

ازداد قلق صادق وهو يسأله:

- هل هناك حرب قادمة؟!

حرك أحمد كتفيه وهو يقول:

- بالتأكيـد هنـاك حـرب، أقسـم بحيـاتي إنهـا سـتحدث لكـن متـى؟ حقًّـا لا أعلـم.

ثم أمسك كتف صادق بقوة وهو يقول له بصدق:

- لقـد قُـدت الدفـاع عـن هـذا المـكان في يـوم مـا، ووقتهـا كنـت أنـا ضابطًـا تحـت قيادتـك والآن يـا صـادق أسـألك، هـل تدافـع مـرة أخـرى عـن المُسـتعمرة حتـى ولـو تبدلـت الأماكـن أو المناصـب؟!

بسرعة رد صادق:

- لا يـا سـيدي، سـأدافع عـن أسـوار هـذا المـكان تحـت أي ظـرف وفي أي منصـب.

زفر أحمد بارتياح وهو يقول:

- إذن استعد للذهاب معنا.

نظر له صادق بتعجب وهو يقول:

- هل ستخرج معنا في تلك الدورية يا سيدي؟!

صدمه أحمد عندما قال:

- نعم يا صادق.

كانت تلك أول مرة في تاريخ المستعمرة يخرج فيها قائد الحراس على دورية مكونة كلها من ضباط دون جنود، وأن يشترك كل هؤلاء الضباط في أنهم قد تلقوا تدريبًا قتاليًّا في إحدى فترات حياتهم، لذلك عرف صادق أن هناك أمرًا جللًا على وشك الحدوث.

وانقبض قلبه، لكنه لم يملك رفاهية التراجع الآن، ولم يتبادل الاثنان أي كلمة حتى عادا إلى نقطة التجمع وبدؤوا في ركوب المُدرعات، وفُتحت بوابة المُستعمرة، ولأول مرة منذ سنوات طويلة يغادر صادق بوابة مُستعمرته..

****

**القاهرة (العاصمة الجديدة).**

**مبني مديرية الأمن.**

**عام ٢٠٣٨ م.**

" ما هي حُجتك لوجودك داخل مسرح الجريمة يا حضرة النقيب؟».

قالها ضابط التحقيقات الذي يجلس قُبالة أحمد سلام الذي تململ في جلسته غير المُريحة على ذلك الكرسي الخشبي وهو يقول:

- لقد سمعت صوت إطلاق الرصاص فذهبت إلى هناك لأجد الجثث كما وجدتموها أنتم، وللعلم فأنا من قمت بالإبلاغ عن وجود تلك الجثث في ذلك المُستودع، لو كنت أنا القاتل ما كنت سأبلغ أبدًا، ضِف على ذلك أن سلاحي الرسمي كما هو لم يُطلق منه طلقة واحدة كذلك لن تجدوا ولو بصمة واحدة لي في مسرح الجريمة.

وصمت للحظات لينظم تنفسه المُضطرب من أثر الانفعال وعاد يقول:

- ثم إن القتلى الثلاثة جميعهم مُجرمون معروفون، ومسجلون خطر وقد ماتوا أنا لا أرى أي مشكلة في موتهم.

رد المُحقق:

- نعم مجرمون، ولكن لهم حقوق، ويجب أن يعاقب

مـن قتلهـم بالقانـون.

بعصبية رد أحمد:

- وأين القانون منهم عندما ارتكبوا جرائمهم تلك يا سيدي؟

بنفس العصبية رد المُحقق:

- وهل القانون يقول إن المُجرم يقتل بلا مُحاكمة؟

- وإذا كان القانـون عاجـزًا عـن تحقيـق العدالـة التـي وجـد مـن أجلهـا هـل نجلـس ونشـاهد المجرمـين وهـم يعيثـون فسـادًا في بلادنـا؟

- آخـر مـرة تـم الإمسـاك بهـؤلاء الثلاثـة تـم الإفـراج عنهـم لعـدم كفايـة الأدلـة، وهـذا بحـد ذاتـه عـدل أيهـا الضابـط.

- أتؤمـن حقًّـا بـأن قانوننـا أو طريقتنـا تؤمـن العـدل فعـلًا يـا سـيدي؟!

لم يرد عليه المُحقق في حين عاد أحمد يقول:

- لـو تريـد توجيـه اتهـام رسـمي لي فتفضـل يـا سـيدي، أمـا عكـس ذلـك فاسـمح لي بالانـصراف فلـدي عمـل أقـوم بـه.

زفر المُحقق وأشار لأحمد بالانصراف.

انـصرف أحمـد مـن مكتـب المُحقـق وسـار حتـى وصـل إلى مكتبـه ليدخـل إليـه ويجلـس عـلى مكتبـه ويفتـح أحـد أدراجـه مُخرجًـا منـه ورقـة كبـيرة مـدون فيهـا خمسـة عـشر اسـمًا، نظـر فيهـا للحظـات ثـم قـام بشـطب ثلاثـة أسـماء منهـا وعـلى وجهـه ابتسـامة سـعيدة.

****

طُرقات مُهدمة، كل البيوت التي على جانبي الطريق أصبحت رمادًا، بروفة ليوم القيامة، عِظام، جماجم، مركبات، مدينة كانت يومًا ما تتنفس، مدينة كانت تعج بساكنيها، أصبحت الآن أطلالًا، وساكنوها تراب تذروه الرياح.

لم يتغير شيء بالنسبة لما رآه صادق آخر مرة عندما نفذ مهمة الإجلاء التي كانت موكلة إليه بنصف نجاح.

لكن رغم هذا تطلع صادق إلى المشهد من خلال زجاج نافذة المُدرعة المُربع الصغير، شعر بالاختناق لكنه لم يعرف مبعثه، هل هو حديثه القصير مع قائده، أم انقباضة صدره لما رآه. رغم أنه عاصره مُباشرة وكان فيه لحظة بلحظة.

تعجب أيضًا من خروج هذا الكم من الضباط في دورية واحدة مكونة من مدرعتين وعشرين رجلًا مُدججين بالسلاح ومدربين تدريبًا جيدًا، علاوة على خروج قائد الحراس بنفسه في تلك الدورية.

كانت الظنون تعصف برأسه، وبعين خياله استرجع أصوات الانفجارات والمُضادات الأرضية فعادت الحياة إلى المشهد الأسود الكئيب، رغم هذا فالألوان والأصوات لم تخفف من حدة كآبته بل زادتها بشاعة.

عاد ينظر إلى داخل المدرعة وأصوات الانفجارات تتكرر في رأسه بصورة تكاد تجعله يصرخ، نظر في من حوله،

الجميـع متشـحون بالأسـود، الخـوذ وزجاجهـا يخفـي الملامـح، شـعر بـأن الزمـن توقـف بـه في حلقـة سـوداء بـلا نهايـة. انفجـارات.. جثـث.. دمـاء.. زبانيـة الجحيـم مـن حولـه يرتـدون الأسـود، وملثمـون كي لا يكتشـف أحـد ملامحهـم البشـعة التـي ينـز القيـح منهـا.

كاد أن يصرخ وأصوات الانفجارات في رأسه تزداد حدة.

وتوقـف كل هـذا فجـأة مـع توقـف المدرعـة المفاجـئ، تلفـت صـادق حولـه بلهفـة كالمجـذوب ومـن حولـه سـمع ضحـكات سـاخرة خافتـة.

أمرهـم الضابـط قائـد الدوريـة بالنـزول. وعندمـا حـان دور صـادق للخـروج مـن المدرعـة لفحتـه أشـعة الشـمس، ورغـم زجـاج المدرعـة داكـن اللـون المُصمـم خصيصًـا للحمايـة مـن أشـعة الشـمس، فـإن صـادق أغمـض عينيـه وأصبحـت أشـعة الشـمس نافـذة لمـا يرتديـه.

بعـد دقائـق تمكـن مـن التأقلـم ونظـر حولـه ليجـد أنهـم يقفـون عنـد أحـد مداخـل القاهـرة، وينتظرهـم حشـد غفـير مـن الرجـال المُسـلحين بأسـلحة ناريـة عتيقـة وهـراوات وبعـض السـيوف، ليتحفـز لمـرأى كل هـذا، لكـن تحفـزه تحـول إلى دهشـة عندمـا وقعـت عينـاه عليـه، شـاب، نحيـل كثيـف الشـعر واللحيـة، يقـف وسـط العـشرات مـن رجالـه بخيـلاء

وكبريـاء وكأنـه قـد ملـك الدنيـا ومـا فيهـا.

صمـت الكـون للحظـات وقائـد الحـراس يتقـدم وحـده ناحيـة الشـاب النحيـل ويخاطبـه بصرامـة:

- أأنت ريان؟

لم تعجب طريقته ريان الذي قال:

- نعم هو أنا، حاكم القاهرة الحالي.

ازدادت دهشة صادق عندما سمع أحمد يقول بود:

- مرحبًا بـك يـا سـيد ريـان، لقـد جئـت بنفـسي مندوبًـا عـن شركـة (أمريـكان جينـوم) ويسـعدني لقـاؤك للغاية.

بدبلوماسية تلقائية أكسبها إياه الشارع قال ريان:

- بـل السـعادة كلهـا لي يـا حـضرة القائـد، وأتعشـم أن يكـون لقاؤنـا هـذا بدايـة لعهـد جديـد ومسـتقبل مـشرق لكلانا.

صمت للحظات ثم أشار إلى صدره قائلًا:

- أنا.

وأشار بيده إليهم جميعًا وهو يقول:

- والمُستعمرة.

فهـم صـادق مغـزى كلامـه ولكنـه لم يـدرك هـل فهـم الجميـع مغـزى الـكلام أم أنـه وحـده مـن فعـل هـذا، لكـن رد أحمـد أكـد لـه أنـه قـد فهـم مغـزى كلام الفتـى النحيـل عندمـا قـال:

- الفائدة ستعم على الجميع، وصدقني أننا سنتأكد من هذا.

قال شطر جملته الأخير ببطء مُنتظرًا رد فعل ريان الذي تعامل ببرود أعصاب يحسد عليه فقال بهدوء بارد:

- ما طلبتموه مني موجود، أين ما أتيتم به؟ أرى رجالك لا يحملون سوى السلاح ويتصادف أن رجالي يحملون مثله أيضًا.

بنفس البرود رد أحمد:

- لا تقلق، كلماتنا كالذهب.

واستدار إلى أحد الضباط وأشار له إلى إحدى المدرعات ليتجه الضابط نحوها هو وثلاثة ضباط آخرين ويبدؤون في إخراج سبعة صناديق، تعرف صادق عليها فورًا، فقد كانت صناديق ذخيرة وبعض صناديق الأطعمة والمشروبات المُعلبة، قام الضباط برص الصناديق أمام ريان ورجاله وبعد أن انتهوا قال أحمد:

- ها نحن ذا، تلك بضاعتنا، فأين خاصتكم؟

تجاهل ريان كلام أحمد ونظر خلفه ليندفع رجله سالم من وسط الحشد فاتحًا كل صندوق من السبعة في حين قال الأول:

- اعذرني يا حضرة القائد، الحذر مطلوب.

باقتضاب رد عليه أحمد:

- مفهوم.. مفهوم.

انتهى سالم من فحص الصناديق وأشار لريان بأن كل شيء على ما يرام، فوضع الأخير سبابة وإبهام يمناه في فمه وأطلق صافرة طويلة تردد صداها من حولهم لثوانٍ عديدة.

ومن خلف الحشد سمع الحراس أصواتًا لمحركات سيارة لم تعد تستخدم منذ ما يزيد على الخمسة عشر عامًا. سيارة ذات صندوق خلفي كبير، أفسح الحشد لها الطريق لتتقدم مثيرة عاصفة من الغبار من حولهم حتى تصل إلى ريان وتتوقف جانبه تمامًا ويقفز من صندوقها عدة رجال. توتر رجال الحراس ورفعوا فوهات أسلحتهم ناحية الحشد حتى إن أحمد قد مد يده إلى غمد مسدسه، لكن ريان أوقفهم وهو يقول بمزاح:

- هل ستقتلوننا الآن؟!

وأشار بيده قائلًا:

- إنها بضاعتنا يا رجال، هيا يا سالم أفرغ حمولتنا.

كان صادق مذهولًا وغير مُصدق لما يراه، فهو يشهد الآن تعاونًا من نوع ما بين شركته وأهل القاهرة، تعاونًا تفوح منه رائحة نتنة.



بـدأ سـالم في تنفيـذ أمـر سـيده وبـدأ في إنـزال حمولتهـم مـن صنـدوق السـيارة، رجـال ونسـاء وأطفـال، خمسـة عـشر شـخصًا مكبـلي الأيـادي والأقـدام، ومعصـوبي الأعـين ومكممـي الأفـواه، لا تسـمع منهـم سـوى أنـات الألم، ومـن الواضـح أن الرجـال قـد تعرضـوا لحفلـة ضرب وتعذيـب مُحترمـة، بينـما النسـاء مُمزقـات الملابـس وتُزيـن وجوههـم العديـد مـن الكدمـات والدمـاء الجافـة، أمـا الصغـار فحالهـم لا يختلـف كثـيراً عـن حـال الكِبـار.

شعر صادق برغبة عارمة في أن يرفع سلاحه ويطلقه على كل الواقفين أمامه؛ أحمد سلام ورفاقه، ريان ورجاله، وبدأت سبابته بالفعل في مداعبة الزناد لكن عقله منعه من ذلك، فحتى ولو نجح في إسقاط خمسة رجال سيكون ميتًا قبل أن ينجح في قتل الرجل السادس، فكر أيضًا في قتل قائده مع ريان فقط، لكنه قدر أن من سيخلفهما سيكمل ما بدآه اليوم، لقد حصل التفاعل ولا سبيل لإيقافه سوى هدم المعمل بأكمله.

انتهى سالم من إنزال الفئران البشرية، ليقوم بعض ضباط الحرس، باقتيادهم إلى المُدرعة التي كان فيها صناديق الطعام والذخيرة.

الآن فهم صادق كل شيء. وبدأ عقله يربط الأمور بعضها ببعض.

انتهـت عمليـة المقايضـة بنجـاح ووقـف ريـان أمـام أحمـد وهـو يقـول لـه:

- ها قد صدقنا في وعدنا لكم، ونفذنا كل شروطكم.

رد أحمد بتبرم:

- طلبات وليس شروطًا.

بنفس التبرم وبطريقة طفولية:

- وقد نفذناها أيًّا كانت ما هي.

أومأ أحمد برأسه مُستسلمًا في حين قال ريان:

- في المرة القادمة سيكون هناك هدية مني لكم.

للمـرة الثانيـة منـذ بدايـة الحـوار يسـتخدم هـذه الصيغـة، وكأن القاهـرة بأطلالهـا بسـكانها بـكل مـا فيهـا تشـكلت عـلى هيئتـه.

أقـرن قولـه بإشـارة لرجالـه بالتراجـع فبـدؤوا بالأفـول في حـين لـوح هـو بيـده مودعًـا ضبـاط الحـرس.

مـشى ريـان خلـف رجالـه بعـد أن تأكـد أن صناديـق الذخيرة والطعـام تـم تحميلهـا عـلى السـيارة العتيقة.

ومن بين أسنانه نطق أحمد:

- الضرورات تُبيح المحظورات، والغاية تُبرر الوسيلة.

غـاب ريـان ورجالـه عـن الأنظـار فالتفـت أحمـد إلى ضباطـه قا ئلًا:

- تأكدوا جميعًا أن أفعالنا مهما بلغ سوؤها الظاهري، فإن باطنها هو الصالح والصالح فقط، الحرس يحمون المُستعمرة وهذا ما نفعله وما أقسمنا على فعله.

لم يرد عليه أحد وقد حجبت الخوذ فرصة صادق لمتابعة ردود أفعالهم فعاد ليستطرد:

- لذلك لا داعي للتحدث بما حدث اليوم مع أي أحد، أما الآن فسيعود فريق «واحد» بالمدرعة أما فريق «اثنان» فسيبقى ثلاث ضباط لمرافقة الحمولة من داخل المُدرعة أما الثمانية الآخرون فسيعودون سيرًا على الأقدام.

لم يناقشه أحد في كلامه، واستعد الجميع لرحلة العودة.

****



لم يـدرِ أي زجـاج هـو الزجـاج المكسـور، خوذتـه أم المـرآة، بيـد مرتجفـة مـن الانفعـال خلـع خوذتـه، ولم يكـن هنـاك كـسر في أي زجـاج.

فرك عينيه ومسح العرق السائل على جبينه ناظرًا مرة ثانية في المرآة، ثم نهض فجأة من على المقعد الصغير المقابل للمرآة وهو يخلع درعه مُتجهًا إلى خزانته التي التقط منها ملابسه الرسمية ليرتديها على عجل من أمره ثم يغادر مقر الحراس وسط نظرات الدهشة التي تُلاحقه من زملائه..

وبخطوات سريعة غادر المنطقة المحتوية على ثكنات الحراس ومستودعات الأسلحة والذخيرة مُتجهًا ناحية مبنى مركز البحوث العلمية، وبعد عدة اختبارات أمنية تم السماح له بالدخول إلى المبنى، ليقطع أحد الممرات الموصلة إلى سكن العُلماء بخطوات سريعة أقرب إلى العدو..

حتـى وصـل إلى غُرفـة كُتـب عـلى لوحـة معدنيـة معلقـة عـلى بابهـا دكتـور محمـود السـعيد.

أخذ صادق شهيقًا عميقًا في مُحاولة منه لتنظيم أنفاسه المُضطربة وطرق باب الغرفة التي فُتح بعد لحظات من طرق صادق عليه وخرج من ورائه رجل في أوائل العقد الثالث من عمره أصلع الرأس، أبيض البشرة، تشعر وكأنه نائم بسبب عينيه الضيقتين.

أشار محمود لصادق بالدخول سريعًا ليدخل الثاني بينما يغلق الأول الباب وراءهما..

افتتح صادق الحديث وهو يجلس على أقرب مقعد إليه قائلًا:

- هل لديك علم بهؤلاء الأشخاص الذين وصلوا منذ ساعتين إلى مقركم؟!

جلس محمود على مقربة منه وهو يقول له بدهشة:

- كيف علمت بوصولهم، هل انتشر الخبر سريعًا؟!!

أشعل صادق لفافة تبغ وهو يقول:

- لا، لكنني كنت من ضمن المُشرفين على وصولهم إلى هنا.

تأفف محمود من رائحة التبغ لكنه لم يتكلم بشأن هذا وقال:

- الأمر سري للغاية، لكنك تستطيع استنتاجه بالطبع.

شملتهم لحظات من الصمت قطعها صادق بعد لحظات من وسط دخان تبغه قائلًا:

- أخبرني أنت، لا طاقة لي بالتخمين.

سريعًا رد محمود:

- أنت تعلم أن موقعي الحالي كإداري لا يسمح لي بالوصول إلى كل المعلومات لكنني سمعت كلامًا كثيرًا عن

تجارب سوف تُجرى على ساكني الأطلال هؤلاء، لكن ما نوع تلك التجارب وإلام تهدف هذا لم أتوصل إليه قط، ضِف على ذلك حالة الطوارئ والسرية المفروضة منذ وصول هؤلاء القوم إلى هنا ستشعر أن هناك شيئًا مُريبًا يحدث هنا.

رد صادق:

- أستطيع ربط الخيوط بعضها ببعض، نحن أعطينا لهم غذاء وذخيرة..

قاطعته نظرات الاستنكار من محمود فتابع هو غير عابئ بها:

- وهم سلموا إلينا أفرادًا من قومهم، نحن أمام صفقة رائحتها عَفِنة للغاية.

باستنكار سأله محمود:

- هل أعطيتم لسكان الأطلال سلاحًا وذخيرة؟

رد صادق بسرعة وبسخرية:

- لست أنا يا رجل إنه أحمد سلام.

لم يرد عليه محمود بينما تحولت نبرته إلى الجدية وهو يقول له:

- حسنًا أعتقد أننا سنتحرك مُبكرًا قليلًا عن موعدنا، أريدك أن تخترق غدًا الشبكة الداخلية للمُستعمرة، وبِث

رسالتنا قبل موعد انتهاء الدوام الرسمي بنصف ساعة فقط.

ظهرت الحماسة على صوت محمود وهو يقول:

- إذن سنتحرك أخيرًا يا رفيقي.

ثم خبت حماسته فجأة كما اشتعلت فجأة وهو يقول:

- لكن أتظن أن دعوتنا السلمية تلك ستجعل هاشم محجوب ينتبه إلى مطالبنا؟!

بهدوء رد صادق:

- على الأقل سيعلم الناس أن هناك فرصة للاعتراض، هناك فرصة للمُقاومة، إذا تحركت أعداد كافية من الناس فلن يستطيع هاشم محجوب فعل أي شيء خصوصًا أنه سيكون خائفًا بعد صفقته القذرة مع ريان.

- سيجعل الحراس يتعاملون معنا بعنف.

- هاشم ليس غبيًّا لفعل هذا، إن فكر قليلًا سيعرف أن أوضاعنا سيئة ومزرية وأن قليلًا من اللين لن يضر أحدًا بل ربما ينجو هو من هذا المأزق.

بفتور رد محمود:

- وإن لم يستجب إلينا أحد من المواطنين؟

بسرعة رد صادق:

- إذن فأوضاعهم تعجبهم، وحالهم يسرهم وقتها لا دخل لنا .

صمت محمود فتابع صادق:

- إنها محاولة، فقط محاولة لن نخسر منها أي شيء، بل ربما نكسب منها الكثير.

قالها بلهجة لم تنجح حتى في إقناعه فعاد يقول وهو ينهض:

- ليس لدينا ما نخسره يا صديقي، ما يهمني الآن إن توصلت أنت إلى أي شيء يخص سكان الأطلال الذين بحوزتنا، أو الغرض من وجودهم هنا عليك أن تخبرني مباشرة لكن كن حذرًا.

أومأ محمود برأسه بينما لوح له صادق واستدار ليخرج من الغرفة فأوقفه محمود قائلًا بصوت خالٍ تمامًا من الانفعال:

- لن تصل إلى أي شيء يا صادق.

التفت له صادق مُبتسمًا وهو يقول له بهدوء:

- أعلم هذا يا صديقي.

أكمل طريقه نحو الباب وقبل أن يفتحه ويغادر التفت إلى صديقه للمرة الأخيرة وقال له:



- طريقنـا لا نهايـة لـه، مظلـم وبـارد ومخيـف، لكننـا سنسـير فيه .

ثـم خـرج مـن الغرفـة صافقًـا بابهـا وراءه بينـما بـدأت الدمـوع تنسـاب مـن عينـي صديقـه.

****

جلس هاشم محجوب في مكتبه يراجع آخر التقارير الواردة إليه بخصوص آخر المُستجدات عن التجارب التي يجريها مركز البحوث وبينما هو منهمك بكل حواسه وجوارحه في ما هو أمامه من تقارير، فوجئ بأحمد سلام يقتحم عليه مكتبه في سابقة هي الأولى من نوعها، لكن ما زاد من قلقه فعلًا حالة أحمد سلام الذي اقتحم المكتب وأغلق الباب خلفه ووقف أمامه مباشرة وهو يقول له بانفعال:

- لدينا كارثه أيها القائد..

لم تستطع ساقاه مطاوعته للنهوض فامتقع وجهه وهو يقول بصوت متقطع:

- ماذا حدث؟

- خلية من أربعة شباب اشتبهنا بهم لتجمعهم الدائم يوميًّا بعد دوام عملهم، وبمراجعة الكاميرات الأمنية وجدنا عدة تسجيلات لهم ليلًا أمام منزل أحدهم، استمررنا في مراقبتهم لفترة حتى أصدرت أوامري باعتقالهم، وسقط في أيدينا واحد منهم بالفعل، وبعد التحقيق معه عرفنا أنه ومن معه يخططون لتمرد ضدنا.

بصعوبة سأله هاشم:

- تمرد؟ هل نجحتم في الوصول إلى كل أعضاء تلك الخلية، الثلاثة الآخرين؟؟!

متخوفًا من ردة فعله رد أحمد:

- لقد اختفوا، لم يذهبوا إلى أعمالهم، وغير متواجدين في بيوتهم، ونخاف أن نقوم بالتفتيش عنهم بشكل علني كي لا نثير ذعرًا وتساؤلًا نحن في غنى عنهما الآن.

لم يرد هاشم في حين استطرد أحمد:

- بعض الضباط في جهازنا يرون أن لهذا التمرد علاقة بحادث الهجوم على الدورية الذي حدث منذ سبعة أشهر.

بدأ هاشم في التماسك وقال:

- أجل، تلك الدورية التي قُتل جميع أفرادها وتم الاستيلاء على مركبتهم وكامل عتادهم.

أكمل أحمد:

- وكذبنا على الناس يومها وقلنا إن الدورية قد تعرضت لهجوم مصدره القاهرة أثناء تفقد محيط أسوارنا.

رد هاشم:

- بينما في الحقيقة تلك الدورية هوجمت داخل المستعمرة وليس خارجها.

ساد الصمت بينهما لدقيقة كاملة بدا فيها الترقب على وجه أحمد انتظارًا لردة فعل قائده بينما بدت أمارات

التفكير العميق على وجه أحمد الذي قطع الصمت قائلًا:

- نحن في ورطة إذن يا أحمد، هل توصلتم إلى أي تفاصيل أخرى بخصوص هذا التمرد؟!

ظهر الغضب على وجه أحمد وهو يقول بحدة:

- العنصر الذي وقع في أيدينا عنصر جديد، لا معلومات لديه عن أي شيء فقط القليل فلم نستطع أخذ تفاصيل كثيرة منه، وبرغم أن الأربعة رجال كانوا مُلثمين ومتخذين كافة الاحتياطات حتى لا يتم كشف شخصياتهم، لكننا كشفنا غطاءهم وأوقعنا بأحدهم ماذا تنتظر منا أن نفعل أكثر من هذا؟!

نظر له هاشم مطولًا محاولًا استشفاف ما يدور بداخله لكنه لم ينجح في هذا فحاول تهدئة قائد حراسه فقال له:

- لا شيء فقط اهدأ وقُل لي ماذا تنوي أن تفعل، لحفظ أمن المُستعمرة؟

رد أحمد بسرعة وكأنه كان ينتظر هذا السؤال:

- سنزيد عدد دورياتنا الداخلية، وسنزيد الحراسة على مستودعات الأسلحة والذخيرة ومرابض الدبابات والمدرعات، وسيكون هناك طاقم حراسة كامل من النخبة أمام مقر مجلس الإدارة وربما نقلل عدد ساعات العمل قليلًا حتى يعود الناس إلى منازلهم مبكرًا وتصبح الشوارع خالية كي

يصبح كشف أي تجمعات مشبوهة أسهل لنا.
أومأ هاشم برأسه مُستحسنًا الكلام ثم سأل قائد حراسه:
- هل أنت قلق؟!
بهدوء شديد رد عليه أحمد:
- بالطبع، فإذا واجهنا هجومًا خارجيًّا وآخر داخليًّا ثِق بأننا لن نصمد سوى سويعات معدودة، وأنا لا أثق بريان، لذلك لا تعتقد أنك قمت بتحييده، وأنك نقلته من خانة الأعداء إلى خانة الحلفاء.
ثم صمت لحظات مُترقبًا رد فعل قائده الذي استمر صمته فاستطرد:

- كل ما أستطيع تأكيده لك يا سيدي بأن الحراس سيدافعون عن المُستعمرة حتى آخر حارس، هذا كل ما لدي.
لم يعقب هاشم على كلامه لكنه نظر إلى السقف للحظات ثم قال بصوت خافت:
- حسنًا أيها القائد يمكنك الانصراف الآن.
استدار أحمد بهدوء مُصطنع ليغادر الغرفة تاركًا هاشم محجوب خلفه والقلق يكاد يفقده صوابه، وتذكر الحلم



الـذي يـراوده منـذ فـترة طويلـة، حلـمًا يـرى فيـه نفسـه يسـير وسـط ممـر طويـل وضيـق كالقـبر، في نهايتـه حفـرة، يحـاول أن يتوقـف عـن السـير لكـن جسـده يخونـه ولا تطاوعـه قدمـاه، فيسـتمر في السـير مُرغـمًا..

وفي النهايـة يسـتيقظ قبـل بلوغـه نهايـة الحفرة بسـنتيمترات قليلـة غارقًـا في بحـور مـن العـرق وبحلـق جـاف كالصحراء.

النهايـة قادمـة وهـو يراهـا. نبـوءة مصريـة قديمـة لا فـكاك منهـا لكنـه سـيجد المفـر، ولـن يسـقط في الحفـرة أبـدًا..

****

خرج شاب صغير لا يتجاوز عمره السادسة عشرة من إحدى الصوب الزراعية التي يعمل بها داخل المُستعمرة بخطوات هادئة رصينة لا تناسب سنوات عمره المعدودة..

وبمجرد خروجه ظل واقفًا مُوليًا ظهره للشارع بينما عيناه تمسح وجوه الخارجين من الصوب من حوله، حتى وقع بصره على رجل في أواخر الثلاثينيات قاسي الملامح، أسمر البشرة، يرتدي عوينات طبية، تلاقت أبصارهما للحظة.

بعدها بدأ الرجل القاسي بالسير فتبعه الشاب في هدوء، استمر سيرهما لمدة خمس دقائق حتى وصل الرجل إلى أحد البيوت، توقف أمام بابه مُتحاشيًا النظر إلى الكاميرا الأمنية المُثبتة أمام بابه ولحق به الشاب الصغير الذي بمجرد وقوفه أمام الباب طرقه بتتابع معين، وتمر لحظات حتى ينفتح الباب ويظهر على عتبته رجل في أواخر الخمسينيات من عمره وان لم يظهر على هيئته ضعف أو وهن، قال العجوز للشاب:

- هل أحضرت التبغ؟

رد الشاب بسخرية وهو يفرد ذراعيه على امتدادهما:

- وهل ترى في يدي شيئًا أيها العجوز؟!

انزاح العجوز جانبًا ليفسح لهما مجالًا للعبور، فقد كان

ذلك الحديث المقتضب الذي أجروه هو كلمة السر لهذه المجموعة..

داخل البيت كان هناك ثلاثة رجال بدؤوا في الظهور تِباعًا عندما اطمأنوا للوافدين الجدد، وافتتح الرجل ذو الملامح القاسية الحديث قائلًا:

- أيها العجوز، أتخبئهم لديك، كم أنت خبيث؟!!

تجاهله العجوز الذي التفت إلى الشاب وهو يقول:

- لقد سقط منهم واحد وكُشف أمرهم، وهم الآن متغيبون عن العمل ولم يبت أحدهم في سكنه ولو لليلة واحدة والغريب أن لا يوجد أحد يبحث عنهم، ولم توضع أسماؤهم في قائمة المارقين حتى الآن.

رد الشاب بسرعة:

- وهل هناك أخبار عن الشاب المقبوض عليه؟

رد العجوز:

- إلى الآن لا شيء جديد، قُبض عليه من منزله وسيق إلى مقر القيادة للتحقيق معه ولم يظهر حتى لحظتنا تلك.

زفر الشاب ثم قال:

- حمدًا لله أنه عنصر جديد لا علم له بأي شيء قد يمثل خطورة علينا.

وافقه جميع الحاضرين بينما قال الرجل صاحب الملامح القاسية:

- أعتقد أنه يجب أن نبدأ تحركاتنا مبكرًا هم يعلمون بوجودنا الآن.

قال الشاب:

- لذلك يجب أن نتريث في التحرك، فهم سينتظرون قدومنا وسيزيدون من استحكاماتهم الأمنية ومن سيشكون به سيقتلونه مكانه ولن يكتفوا بالقبض عليه هذه المرة.

تدخل أحد الرجال الثلاثة الآخرين في الحوار قائلًا:

- لذلك أنصح بأن لا نلتقي تلك الفترة ولنمارس حياتنا بشكل طبيعي حتى لا يشك أحد بنا.

رد العجوز:

- بل الأفضل التحرك سريعًا خلال تلك الفترة، لقد جمعنا عددًا لا بأس به من قطع السلاح كما أن عددنا كبير وعامل المُفاجأة سيكون في صالحنا.

ساد الصمت بينهم بعد عبارة العجوز وقد علموا أن الوقت المنتظر قد حان، ما دأبوا على التخطيط له على مدى شهور طويلة أصبحوا على عتبته، قطع الشاب حبل الصمت المكتسح إياهم:

- مجموعتي جاهزة وتحفظ أدوارها، أنا جاهز.

تحدث الرجل قاسي الملامح:

- بصفتي رأس حربتكم فأقر لكم بجاهزيتي التامة أنا وجميع رجالي.

أنهى العجوز الحديث قائلًا:

- إذن فلتنتظروا مني إبلاغكم بموعد التحرك، فقريبًا ستشرق شمسنا بلا غروب.

****

مشاعره مُتضاربة، خوف وأمل، كنبي جديد يُوحى إليه بدين جديد، من إله بعيد، الحُرية.

كان سيره يعبر عما بداخله، يقدم قدمًا ويؤخر أخرى.

وكعادته لم يكن له هدف، أو طريق.

شعر بحاجه مُلحة للحديث، فتذكر ليانا ليجد قدميه تقودانه إلى طريقها.

انتهت رحلة سيره أمام مقر عملها، لم يتبقَّ على موعد انتهاء دوامها سوى دقائق قليلة، سيطر عليه خوف مفاجئ، ماذا إن فقد كل من يحبه مرة واحدة؟ ماذا يحدث لو اختفت هي من حياته؟ أو العكس..

اشتركت مشاعره المُضطربة مع خوفه المُفاجئ في صنع لوحة مخيفة بداخله. مظلمة كحياته.

قطع تفكيره صوت الجرس الذي يعلن انتهاء فترة العمل الرسمي، ليبدأ بعده خروج الموظفين من المُنشأة.

كان يحاول أن يرى في الوجوه أثر دعوته، لكنه لم يلحظ أي شيء، فقط نظرات مُريبة إليه نسبها هو إلى زيه الأسود..

ثم رآها، ود لحظتها لو أنه يندفع نحوها ليحتضنها ويأخذها إلى مكان بعيد، ليبشرها وحدها بدعوته.

ابتسمت له عندما وقعت عيناها عليه، حاول هو الآخر الابتسام لكن وجهه خذله، سار نحوها حتى التقيا

لتتأبط هي ذراعه بسعادة وإن لمح القلق في عيونها فبادرها بالسؤال:

- كيف حالك يا جميلتي، كيف كان يومك؟!

ردت عليه وهي سائرة بجواره:

- جيد، أنت كيف حالك؟

تحاشى النظر إليها وهو يقول:

- بخير، لدي خبر جيد لك يا صغيرتي، غدًا لديك إجازة ستقضين اليوم كله معي.

بسعادة قلقة ردت وهي تصفق بجذل كالأطفال:

- حقًّا، لقد بدأت في استخدام سلطاتك أيها الخبيث.

رد بصوت منخفض:

- خبيث ولكني طيب.

ساد الصمت بينهما وأكملا سيرهما، ولاحظ هو سيرها بعيدًا عنه على غير عادتها فكر أن يلفت انتباهها إلى هذا لكنها سبقته قائلة:

- قبل أي شيء لدي كلام مهم لا بدَّ أن تسمعه اليوم.

شعر بخوف مبهم يقتحم كيانه فقال بصوت مختنق:

- حسنًا، تحدثي.

نظرت إليه نظرة لم تعجبه وقالت:

- ليس هنا، ليس الآن، عندما نصل إلى سكنك سنتحدث.

بخوف تغلغل في ثنايا قلبه قال:

- تحدثي الآن فأنت سائرة بجوار ضابط من الحراس.

- هذا سبب أدعى بأن نتحدث بعيدًا عن الأعين والآذان.

تملك الخوف منه كليًّا وبدأ في أكل أحشائه بعدما سمع عباراتها وآثر عدم الحديث معها حتى وصلوا إلى سكنه، وبمجرد دخولهم إليه وإغلاق الباب لم يتمكن من السيطرة على انفعاله فقال لها بحدة شديدة:

- حسنًا، تحدثي الآن إذا سمحتِ.

تكلمت وكأن الأمر لا يعنيها حقًّا قائلة:

- اليوم، في العمل تم اختراق جميع أجهزة الحاسب وتم بث رسالة تدعو للتجمع غدًا أمام مقر قيادة المُستعمرة، تجمع احتجاجي بسبب الظروف القاسية التي نعيشها حاليًا.

أحس صادق بضيق غير مفهوم أجبره على الصمت في حين تابعت هي:

- تم اختراق الشبكة لمدة ثلاث دقائق كاملة ولم يبث أي جهاز سوى تلك الرسالة في تلك المدة.

باقتضاب قال:

- وبعد؟!

عادت تقول هي بعد أن أحست بضيقه:

- بالطبع أنت منهم الآن فيجب أن تتضايق.

امتزج ضيقه بغضبه من عبارتها فقال لها بعنف:

- أنا هو أنا.

دون أن ترد نظرت إلى السواد الذي يرتديه، فقال بهدوء:

- أنا هو أنا مهما تغير ردائي أو منصبي، أنا صادق.

لم ترد عليه بينما بدأت الدموع تحتشد في مُقلتيها فتابع هو :

- وما لك أنت وما لتلك الدعوة، تناسيها وكأنها لم تكن.

قالها وهو يشعر بغصة في حلقه، كان يريد أن يقول لها إنه صاحب تلك الدعوة، وإنه إن قامت ثورة فسيكون هو مُفجرها، وإن عادت الأمور لنصابها فإن الفضل كله سيعود له، هو نبي العصر الجديد، قاطعت هي ثورة أفكاره عندما قالت:

- أنا سأشارك بتلك الوقفة.

ألقتها كقنبلة مزقته إلى أشلاء صاح بغيظ وهو يبعثر محتويات المائدة التي أمامه:

- منذ متي ترفضين هذا المكان؟!

تحرك وهو يفرد ذراعيه على امتدادهما ثم قال:

- طالما دافعتِ عنه، دائمًا كنتِ مواطنة صالحة، فقط تنفذين الأوامر، الآن تتكلمين عن احتجاج.

انحدرت الدموع من عينيها وهي تقول:

- دائمًا كنت أكذب على نفسي دائمًا كنت على ضلال، ودائمًا كنت أنت على حق.

- والآن ألست على حق؟!

- كنت أنتظر منك أنت بالذات يا صادق دعمي في هذا.

صاح والغيظ يأكل في أحشائه:

- ليس الآن، ليس هذه المرة بالذات.

صاحت هي:

- ولماذا هذه المرة؟!

هدأت ثورته فجأة كما هاجت فجأة وجلس على أقرب مقعد إليه وهو يردد كالتائه:

- لماذا هذه المرة؟!

اقتربت منه ثم جثت على ركبتيها عند قدميه وهي تقول:

- أنت أنرت لي الطريق، كنت أعرف أنك على حق، وأنك لا تريد سوى أن تعود الأمور إلى نصابها ترى الأخطاء بعينيك وتريني إياها وأنا كنت أغمض عينيّ لأني أريد أن أعيش.

ثم صمتت للحظات وعادت لتسأله:

- أم أن عودتـك لصفـوف الحراسـة قـد غيرتـك، وأعمـت بصيرتـك وبـصرك؟

ألقت عليه سؤالها المُحمل بكل ألم الدنيا.

أشـاح بوجهـه عنهـا بينـما تجتاحـه رغبـه عارمـة بالبـكاء والـصراخ وهـو يقـول:

- أنتِ مُخطئة كعادتك.

اقتربت منه أكثر بينما يزداد بكاؤها وهي تقول:

- إذن لماذا لا تبارك مشاركتي بتلك الوقفة؟!

بصدق حقيقي قال:

- أخاف أن أفقدك.

ردت بسرعة:

- ولا تخـاف أن تفقـد المُسـتعمرة التـي كـدت أن تفقـد حياتـك لأجلهـا عـدة مـرات.

بنفس السرعة قال:

- لقـد فقـدت المُسـتعمرة مـرة، ولا أريـد فقدانـك أنـتِ أيضًـا.

نهضـت وهـي تمسـح دموعهـا، وجلسـت قبالتـه وهـي تقول ببرود:

- إذن ستفقدني أنا أيضًا يا حضرة الضابط.

كاد أن يفقـد أعصابـه إلا أن جهـاز الاتصـال الخـاص الـذي

يحملـه أصـدر أزيـزًا مُتقطعًـا مـما يعنـي أنـه يتـم اسـتدعاؤه لحـدث جلـل.

فنهـض مُرغـمًا وهـو يشـعر بـآلام مُبرحـة تجتـاح جسـده بـلا سـبب منطقـي فقالـت لـه:

- إلى أين ستذهب، حديثنا لم ينتهِ بعد؟!

اسـتدار ليغـادر الغرفـة، وقبـل أن يخـرج التفـت إليهـا ثـم قـال:

- لا تتحركي من مكانك حتى أعود إليك.

وغـادر الغرفـة صافقًـا بابهـا خلفـه وصـوت قهقهتهـا يتناهـى إلى مسـامعه، أو هكـذا خُيـل إليـه.

****

تموضع صادق ودوريته المكونة من أربعة رجال خِلافه هو بالقرب من مقر قيادة المُستعمرة، تحديدًا في أحد التقاطعات المؤدية إلى المقر.

كانت الأمور طبيعية وهادئة في المُستعمرة، فقط تم زيادة بعض الاستحكامات الأمنية بها.

كان جزء من صادق يتمنى أن يمر اليوم على خير، وأن لا يستجيب مواطنو المُستعمرة إلى دعوته..

شعر بثقل سلاحه المُعلق على رقبته فتحسسه، التفت إلى رجاله من خلفه وهو يصيح بهم:

- سأتفقد مُحيطنا يا رجال، فلم يبقَ على موعد انتهاء دوام العمل الرسمي سوى عشر دقائق فقط، ابقوا في أماكنكم وإن جد جديد فأبلغوني عن طريق جهاز الاتصال.

ثم استدار دون أن ينتظر منهم ردًّا مُتخذًا طريقه إلى مقر قيادة المُستعمرة.

وبعد خمس دقائق من السير السريع وصل إلى حيث يقع المقر، العديد من الرجال ذوي الملابس السوداء ينتشرون في محيطه لتأمينه، ولفيف من الضباط ذوي الرتب العالية يقفون أمام مدخل المقر وهم شاهرون أسلحتهم بتحفز شديد، استمر صادق بالسير بين الجنود والضباط، وازداد توتره فجأة عندما سمع دوي رنين الجرس

الـذي يعلـن انتهـاء فـترة العمـل الرسـمية بالمسـتعمرة، ومـع آخـر خيـوط شـمس ذلـك اليـوم، انتقـل توتـر صـادق إلى كل المُحيطـين بـه مـن ضبـاط وجنـود.

أصـدر جهـاز اتصالـه أزيـزًا متصـلًا فأخرجـه مـن جيبـه وهـو يضغـط أحـد أزراره بينـما يقربـه مـن فمـه وهـو يقـول بينـما يتلفـت يمينًـا ويسـارًا كأنـه يبحـث عـن شيء مـا:

- قائد الدورية رقم ٩ يتحدث، قدم تقريرك.

أتاه صوت أحد جنوده عبر الأثير:

- لقد دق الجرس يا سيدي ونحن في انتظار أوامرك.

مُخالفًا الأوامر والتعليمات قال بلهجة آمرة:

- اتركـوا موقعكـم الحـالي، واتجهـوا حيـث مقـر قيـادة المُسـتعمرة.

بتردد رد الجندي:

- ولكن يا سيدي..

قاطعه صادق:

- نفـذ الأمـر أيهـا الجنـدي، تمركـز أمـام المقـر أنـت وزمـلاؤك في انتظـار الأوامـر.

بآلية رد الجندي:

- عُلم أيها القائد.

انتهـى الاتصـال وقـد بـدأ عـدد قليـل مـن مواطنـي

المُستعمرة لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين في التوافد على محيط مقر قيادة المُستعمرة وهم يحملون لافتات مكتوبة بشكل بدائي بها مطالبهم، التي تمثل أغلبها في زيادة حصص الغذاء وتقليل عدد ساعات العمل، وتقليل سلطة الجهاز الرقابي.

بدأ صادق بالسير ناحية الطوق الأمني المحيط بالمقر، ثم توقف فجأة ليبقى في المنتصف بين المحتجين وزملائه.

ناظرًا إلى هؤلاء لبرهة وإلى هؤلاء لبرهة.

بينما استمر توافد المُحتجين وازداد عددهم بشكل ملحوظ، ليجعل جزءًا صغيرًا داخل صادق يشعر بالضيق رغم فخره بأن دعوته قد لاقت رواجًا بين سكان المُستعمرة.

ببطء أخذ صادق بالاقتراب، هو غريب عن الطرفين رغم انتمائه لهما حرفيًّا.. وهذا كان مبعث شعوره الغريب..

فخر ممتزج بخوف، بغض ممتزج بعشق، سعادة غامرة ممتزجة بحزن طاغٍ..

ولوهلة شعر بالخواء، لا أحد حوله، لا أحد أمامه ثم رأى وجهها وسط الفراغ الأسود الثقيل.

فراغ مميت يكتم أنفاسه ويضغط على ضلوعه.. ثم انطلقت الرصاصات فجأة صانعة موسيقى من الفوضى.

****

حصدت الرصاصات الأولى العديد من الضباط والجنود، كذلك سقط أيضًا العديد من المُحتجين، ساد الخوف وسط الجميع وأصبح الذعر عنوانًا للمشهد.

قيامة مُصغرة هكذا رآها صادق، الذي ركض بكل قوته تجاه أحد البيوت المُقابلة لمبنى القيادة وقد قرر بأن هناك رصاصات انطلقت من هناك بالفعل.

أشار إلى أحد الجنود من خلفه أن يتبعه، لكن وسط الفوضى والصرخات ضاع صوته، لكنه ركض شاهرًا سلاحه ليقتحم البيت، وفي نفس اللحظة رأى ثلاثة رجال يخرجون من نفس البيت ولكن عكس اتجاهه..

لاحظ صادق أن الرجال يحملون أسلحة نارية فصاح بهم بلهجة آمرة وهو يشهر سلاحه:

- قفوا في أماكنكم.

استدار الثلاثة وصوب اثنان منهم أسلحتهم باتجاهه بينما استأنف ثالثهم الركض فلم يتردد للحظة وهو يطلق سلاحه تجاههم وهم أيضًا فعلوا المثل لكنه كان أسرع منهم، شعر بعمودٍ من نار يخترق كتفه وآخر يحتك برقبته مُفجرًا منها أنهارًا من الدماء..

لكن رصاصات صادق كانت أكثر دقة فأصابت الأول في رأسه والثاني في موضع القلب تمامًا، أما الثالث الذي كان

يركض مُبتعدًا فأصابته الرصاصات في ظهره ليسقط مُدرجًا هو الآخر في بركة من الأحمر القاني..

ترنح صادق للحظات وشعر بطبول تدق في رأسه، مُترنحًا سار حتى وصل إلى جثث الرجال الذين أرداهم قبل قليل، أول ما لاحظه أن الرجال مُلثمون، ويستخدمون سلاحًا كسلاح الحُراس تمامًا، نظر إلى البيت الذي استخدمه هؤلاء الرجال وأدرك أنه ينتمي إلى أحد كِبار ضُباط الحراس..

كان يبعد مسافة خمسين مِترًا عن مقر القيادة والوضع ما زال مُشتعلًا وأصوات الرصاص تأتي من كل أركان المُستعمرة.

كان زملاؤه من الحرس مشتبكين مع بعض المُهاجمين الذين كانوا يودون اقتحام مقر القيادة، من بعيد رأى أحمد سلام وسط رجاله يوجههم ويشترك في القتال إلى جانبهم.

التفت مرة أخرى ناحية جثث الرجال لكن استوقفه شيء ما في جثة أحدهم فانحنى نحوه وهو يزيح اللثام عن وجهه، ثم تراجع من الصدمة، فقد كان جده مُسعد هو واحد من القتلى الذين أرداهم بسلاحه.

صديقه الوحيد، من تحمل نوبات غضبه وجنونه، أبوه الذي لم ينجبه، أخوه الوحيد في هذا العالم. مات على يديه. وبسلاحه.

شعر بالأرض تميد به وبقلبه يكاد ينفجر بين ضلوعه من فرط الحزن.

ضاقت عليه مُستعمرته كالقبر، ميتة صغرى بلا قيامة أو بعث أو حساب.

سقط صادق على الأرض من الصدمة وزحف حتى وصل إلى جدار البيت، استند إليه ووضع رأسه بين قدميه وأطلق لدموعه العنان.

لم يكن يبكي لقتله مُسعد بقدر ما كان يبكي لأن مُسعد أراد قتله وأشهر سلاحه في وجهه، أم أنه لم يكن يعرف أنه هو.

نظر مرة أخرى إلى جثة مُسعد ودقق النظر في ملامحه، التي أُضيف إليها ثُقب كبير في جانب رأسه الأيسر..

جزء منه أحس براحة، وجزء آخر شعر بخوف مبهم، تضارب مشاعره جعل دموعه تتوقف عن الانهمار، أخرج من أحد جيوب درعه مِحقنًا أزاله من غلافه ووضعه قريبًا من موضع الرصاصة التي اخترقت كتفه ثم ضغط عليه وتدفق السائل منه إلى داخل جسده، مرت لحظات حتى أخرج المحقن من جسده ونهض مُلتقطًا سلاحه وقد تجدد نشاطه مؤقتًا وتوقف نزيف جروحه..

رفـع سـلاحه وبـدأ في إطـلاق رشـقات مـن مدفعـه ناحيـة المهاجمـين الذيـن قـد بـدؤوا في التراجـع أمـام زملائـه مـن الحـراس، كان العديـد مـن المُحتجـين قـد سـقطوا لأنهـم كانـوا بـين الفريقـين المُتحاربـين.

أسـقط صـادق أربعـة رجـال ونجـح في الوصـول حيـث يأخـذ أحمـد سـلام سـاترًا وهـو يتبـادل مـع المهاجمـين النـيران.

أخـذ صـادق مكانـه إلى جـوار قائـده بينـما يبـدل خزانـة مدفعـه وهـو يصيـح:

- مـاذا سـنفعل يـا حـضرة القائـد كل مواقعنـا تعرضـت لهجـمات مماثلـة ولا يمكـن لنـا أن نرسـل أو نسـتقبل الدعـم؟!

كان أحمـد سـلام مصابًـا بعـدة جـروح وعندمـا تكلـم رأى صـادق عمـر قائـده الحقيقـي مـن تعبـه وعرقـه الغزيـر واضطـراب أنفاسـه وعـدم انتظامهـا:

- ذخيرتهم ستنفد حتمًا لن يستطيعوا الاستمرار عكسنا.

تناثـرت عليهـم قطـع حجـارة انفصلـت عـن الجـدار الـذي يحتميـان بـه وسـقط أقـرب ضابـط كبـير الرتبـة إليهـم صريعًـا فنهـض صـادق وأطلـق رشـقة مـن سـلاحه ثـم عـاد لمكمنـه وهـو يقـول:

- من هؤلاء يا سيدي.

أكل أحمد شفتيه غيظًا وهو يقول:

- مُتمـردون، موّهـوا بالاحتجـاج السـلمي ثـم هاجمونـا بالحديـد والنـار في نفـس اليـوم.

شـعر صـادق بغضبـه يتصاعـد لربـط قائـده بـين دعوتـه السريـة السـلمية وبـين التمـرد المُسـلح الواقعـين الآن هـم تحـت نيرانـه.

مـرت أكـثر مـن نصـف سـاعة وإطـلاق النـيران مـا زال مسـتمرًّا مـما حـدا بأحـد الضبـاط القريبـين منهـم بالصيـاح:

- حتـمًا هنـاك خونـة بيننـا، إنهـم يسـتخدمون نفس أسـلحتنا ولديهـم ذخـيرة كافيـة للوقـوف أمامنا..

انتبـه صـادق وأحمـد إلى تلـك الحقيقـة الغائبـة عنهـم في ظـل الجحيـم الـذي يخوضانـه وتبـادلا النظـرات في مـا بينهـما، بينـما الرصاصـات تتطايـر مـن حولهـما في كل اتجـاه..

لم تمـر سـوى عـدة دقائـق حتـى اسـتقبل جهـاز اتصـال أحمـد سـلام صـوت أحـد الضبـاط المذعوريـن وهـو يقـول:

- سـيدي، لقـد تعرضنـا لخيانـة، بعـض المُجنديـن الجـدد انقلبـوا علينـا، وتـرك بعـض الضُبـاط أسـلحتهم وهربـوا، والمهاجمـون رغـم قلـة عددهـم فهـم يقتربـون مـن السـيطرة عـلى أول مُسـتودع للأسـلحة لدينـا، نحـن نحتـاج للدعـم إن لم تريـدوا سـقوطنا.

تجلى الذعر على ملامح أحمد وهو يقول:

- إن اسـتولوا عـلى ذلـك المخـزن واسـتخدموا السـلاح الـذي فيـه ضدنـا، سـتحدث مذبحـة وسـيموت المئـات.

رد عليه أحمد بسرعة:

- يجب أن نقدم لهم الدعم سريعًا.

عض أحمد على شفتيه وهو يقول:

- أعرف هذا.

ثـم نظـر حولـه لـيرى رجالـه وهـم يسـتميتون في الدفـاع عـن مقـر القيـادة وشـعر بالعجـز وهـو يقـول:

- المقـر ليـس هدفهـم الأصـلي، إنهم يسـتهدفون مسـتودعات الأسـلحة، ولكـن لـن نسـتطيع إعطـاء رجالنـا الدعـم الـذي يريدونـه.

شعر صادق بالعجز يتسلل إليه ودفعه ذلك لأن يقول:

- إذن ستسقط المُستعمرة.

بجزع قال أحمد:

- لا لن تسقط.

- إذن يجب أن نكسر هذا الحصار.

فكر أحمد قليلًا ثم قال بسرعة:

- لندعهم يدخلون إلى المقر.

فهم صادق ما يرمي إليه قائده فتابع بسرعة:

- ونشتبك معهم من الداخل بينما نضع فريقًا من القناصة أعلى المبنى ليغطي انسحابنا للداخل بينما يشق فريق آخر منا طريقه ناحية المُستودعات.

أدرك أحمد ما في كلام صادق من خطر فقال له:

- هذه مُهمة انتحارية، وغير مخطط لها جيدًا، سأرمي من يقوم بها في جحيم لا نجاة منه.

رد صادق سريعًا وهو يقول:

- أنا أقبل بأن أقوم بهذا يا حضرة القائد، فقط أعطِ لي فريقًا من الرجال ودعني أفك هذا الحصار وأصل إلى مستودعات الأسلحة والذخيرة.

نظر له أحمد مُستحسنًا شجاعته وإقباله ثم قال له:

- حسنًا.

رفع أحمد جهاز اتصاله إلى فمه وألقى من خلاله التعليمات على رجاله ثم أشار إلى ستة ضباط من النُخبة على صادق بمعنى أن ينتظروا ولا ينسحبوا مع الباقين وأن يتبعوه.

ثم استدار إلى صادق وهو يقول له:

- سننسحب ثم نقوم بتغطيتكم، وستختار أنت ثغرة تعبر من خلالها إلى مُستودعات الأسلحة.

شعر صادق بالتوتر وبألم غير مفهوم في صدره وأطرافه

إلا أن كل هـذا لم يمنعـه مـن التماسـك أمـام قائـده وهـو يقـول:

- لا تقلق يا حضرة القائد، لن تسقط المُستعمرة اليوم.

مـع نهايـة عبارتـه بـدأ القناصـة في التعامـل مـع المُهاجمـين في الأسـفل بينـما يقـوم بقيـة الضبـاط والجنـود بالانسـحاب مـا عـدا الضبـاط السـتة الذيـن اختارهـم أحمـد للانضـمام إلى صـادق الذيـن تـواروا جميعًـا حـول الأعمـدة والجـدران مُتخذيـن سـواتر مـن الرصـاص المُنطلـق نحوهـم..

انتهـى الانسـحاب وكان أحمـد سـلام آخـر المُنسـحبين إلى داخـل المبنـى.

وبدأ صادق ومن معه بالتحرك.

****



«الطريق إلى الجحيم مفروش دائمًا بالنوايا الحسنة».

****

مشهد سينمائي بطيء، توقف الزمن عند تلك اللحظة، رأى فيها صادق كل تفاصيل حياته، تساءل صادق هل من معه شعروا بنفس الشعور أم لا؟؟

كان يركض بكل قوته والرصاصات تتطاير من حوله، سمع صرخة مكتومة أتبعها سقوط جسد على الأرض فعلم أن أحد رفاقه قد سقط، لكنه لم يلتفت واستمر في الركض هو ومن معه حتى خرجوا من محيط مقر القيادة.

وعندما تأكد أنهم قد ابتعدوا بالقدر الكافي عن موقع الاشتباك توقف وتوقف رفاقه معه بعدما نقص عددهم واحدًا، فأصبحوا ستة ضباط بصادق.

نظروا بعضهم إلى بعض، أنفاس مُضطربة، عرق غزير، جروح، دماء، ألم مُبرح.

لم يكن بينهم سابق معرفة، فكان صادق أول من تحدث قائلًا من وسط لهاثه:

- نحن نبعد تقريبًا مئة متر عن أول مُستودع للأسلحة، وقد هدأت أصوات الاشتباكات مما يدل على أن المُستودع قد سقط..

تبادلوا نظرات يائسة في ما بينهم ثم قال أحدهم:

- طالما قد سقط أول مستودع فمهمتنا لا طائل منها.

قال آخر:

- ونحن ستة فقط، لن نستطيع الاشتباك معهم وحدنا.

رد صادق بغضب:

- نعم ستة، ولكننا قد تلقينا تدريبات عسكرية شاقة، نحن مقاتلون بينما هم يمسكون السلاح لأول مرة في حياتهم.

لم تؤثر فيهم كلمات صادق الذي عاد ليقول:

- سأنفذ المهمة وحدي.

استمر الصمت بينهم فبدأ صادق بالسير وحده ليتبادل الضباط نظرات مُستهترة ثم تبعوه وأحدهم يقول:

- قليل من الإثارة لن يضر أيها الضابط.

بضحكات خافتة استمروا في سيرهم حتى وصلوا إلى الشارع الذي تقع فيه مُستودعات الأسلحة والذخيرة، وخلف مجموعة من الأشجار اتخذوا سواتر تسمح لهم برؤية جيدة لأول مُستودع وما يدور بمحيطه.

استخدم صادق خاصية التقريب المُدمجة في خوذته وهو يقول:

- لقد سقط أول مُستودع بالفعل، وهم يتسلحون لمُهاجمة المُستودع الثاني، هناك ما يقرب من العشرين أسيرًا منا لديهم، وعددهم يقترب من الخمسين رجلًا لم يتسلحوا بالكامل، وجميعهم داخل المُستودع عدا عدد قليل من الرجال تركوا خارج المُستودع لتأمينه.

رفع جهازه اللاسلكي وقدم تقريرًا بما يراه لقائده الذي قال له:

- أنت قائد هذه العملية يا أحمد ولديك كافة الصلاحيات للاستمرار فيها أو لإنهائها، لقد اقتربنا من السيطرة على الوضع لدينا وقريبًا سننظم صفوفنا وننضم إليكم، لك مطلق الحرية في انتظارنا أو البدء من غيرنا، انتهى.

تنفسوا الصعداء ما عدا صادق الذي قال بعد أن أغلق جهازه:

- إذا نجحوا في التسلح سيقع المئات من الضحايا يجب أن نمنعهم.

رد أحد الضباط بنبرة غاضبة:

- كلنا سمعنا القائد هم قريبون من الانضمام إلينا فلننتظرهم.

أيده الجميع عدا صادق الذي قال:

- إذا تسلحوا وجاء بقيتنا وتصادمنا معهم سيقع العشرات منا ومنهم والمئات من الأبرياء الذين لا ذنب لهم في هذا القتال.

صاح أحد الضباط بعصبية شديدة:

- انظر حولك نحن سبعة فقط وهم يتعدون الخميس رجلًا سنموت قبل حتى أن ننجح في الوصول إليهم.

أُسقط في يد صادق من منطقه ولم يستطع الرد عليه في حين قال ضابط آخر:

- كما أن لديهم أسرى من زملائنا وقد يعرضهم هجومنا للخطر.

انتظر صادق للحظات ثم قال:

- فلنفجر المُستودع بما فيه قبل أن يخرجوا منه، لن ينجو منهم أحد وإن نجا رهط منهم حتى سنستطيع إسقاطهم، سنقضي على التمرد بضربة واحدة فقط، وستنتهي المعركة هنا .

رد عليه أحدهم بجزع:

- أنت مجنون حتمًا، انفجار كهذا قد يسبب أضرارًا كبيرة في السور، كما أن هناك احتمالًا كبيرًا بأن تصل ألسنة اللهب إلى المُستودع الثاني المجاور له مما سيؤدي إلى سلسلة انفجارات قد تقضي على ترساناتنا العسكرية بأكملها.

نهض صادق من مكمنه مُهددًا بكشف مكانهم وهو يقول لهم:

- هذا هو الحل الوحيد المُتاح، وسأنفذه.

أمسك سلاحه وهو يعدله ليجعله قاذفًا صاروخيًّا ففوجئ بأحد الضباط ينقض عليه مُحاولًا انتزاع السلاح منه، لكنه تفاداه، ليركل ضابط آخر السلاح من يديه ليسقط على الأرض، وقبل أن يندفع صادق نحوه فوجئ الجميع بصوت قذيفة صاروخية منطلقة من سلاح أحد زملائهم، أعقبها صوت انفجار عنيف وتطايرت ألسنة اللهب إلى عنان السماء محيلة الليل حالك السواد إلى ظهيرة.

خلع صادق خوذته من الصدمة وهو يرى العديد من الأشخاص يهرولون في كل مكان والنيران تأكل أجسادهم، نظر الجميع إلى مطلق القذيفة الذي أشار إلى صادق وهو يقول:

- منطقه أقنعني، لقد قضينا على الخطر تمامًا، وأنجزنا المُهمة، كذلك قد نفذت أوامر قائدي المُباشر رغم أنه أقل مني في الرتبة، لكنه مفوض من قائدنا الأعلى.

ثم ذخر سلاحه مُلقيًا منه فارغ القذيفة المُطلقة مبدلًا إياها بواحدة سليمة وهو يقول لصادق:

- أعتقد أنه يجب أن نهجم عليهم الآن كي نجهز على من تبقى منهم حيًّا.

وافقه صادق الذي التقط سلاحه من على الأرض وتأكد من جاهزيته للعمل ثم انطلق راكضًا مُجهزًا على من تبقى حيًّا من المتمردين.

نظر بقية الضُباط بعضهم إلى بعض ثم انطلقوا خلفه دون أن يتبادلوا كلمة واحدة..

****

«لقد دافعت عن المُستعمرة باستماتة أيها الضابط، رغم إصاباتك وجراحك التي كانت تحتاج إلى مُداواة عاجلة ولكنك ظللت صامدًا تقاتل ونفذت أوامرك وأنقذتنا».

أنهى هاشم محجوب قائد المُستعمرة (ب) حديثه بهذه العبارة وهو ينهض من خلف مكتبه ويتقدم ناحية صادق ثم يصافحه بحرارة شديدة.

في حين قال أحمد سلام الذي كان يقف جوار صادق تمامًا:

- لقد قام صادق بعمل بطولي حقًّا، لقد رأينا جميعًا معدنه في هذا اليوم.

لم يرد صادق في حين دعاهم هاشم للجلوس بينما هو عائد ليجلس خلف مكتبه، وبعد أن استقر بهم المقام ردد صادق بصوت هادئ:

- لم أفعل إلا الواجب يا سادة، وإن عاد بي الزمن وتطلب الأمر التضحية بحياتي فهذا ما سأفعله بطيب خاطر.

استحسن هاشم محجوب كلامه في حين بدا الرضا على ملامح أحمد الذي قال:

- نعلم هذا يا صادق، نعلم هذا.

ثم التفت إلى هاشم وهو يقول له:

- لقد وقع في أيدينا العديد من المُتمردين أحياء وسنقوم باستخلاص كل المعلومات المُمكنة منهم.

رد هاشم:

- الأهم يا حضرة القائد هو معرفة مدى إمكانية تكرار هذا الأمر وهل لا تزال هناك خلايا نائمة لهم أم لا؟

تدخل صادق في الحديث قائلًا:

- لا أعتقد أن هناك المزيد منهم، تلك كانت ضربتهم الكبرى فنزلوا جميعًا إلى الشارع، فقد كانوا يحتاجون أعدادًا كبيرة لتكافئ تعدادنا وتسليحنا، كما أن بينهم نساء وشيوخًا أيضًا.

شعر بغصة في حلقه مع حروف عبارته الأخيرة مُتذكرًا مُسعد الذي قتله بيديه.

رد أحمد سريعًا دون أن يلتفت إلى صادق أو إلى كلامه:

- هذا ما نعمل عليه حاليًا يا حضرة القائد.

سأله هاشم:

- والمعتقلين الذين كانوا موجودين في تلك الوقفة الاحتجاجية؟

تنبهت كل ذرة في كيان صادق عند هذا السؤال، ليانا كانت مُشاركة في تلك الوقفة، رغم أنه لم يرها ليلتها، وظل يبحث عنها وسط القتلى والجرحى، حتى عرف من أحد

الضباط أنها قد اعتقلت للاشتباه فيها وأنها في إحدى مقار التحقيق التابعة للحراس.

رد أحمد مُجيبًا على تساؤلات صادق قائلًا:

- سيظلون رهن الاعتقال حتى تهدأ الأمور تمامًا، ومن كان له علاقة منهم بالتمرد فسيعاقب، أما من ليس له علاقة فسيخرج ويعود إلى حياته الطبيعية.

لم تُعجب الإجابة صادق الذي تحدث قائلًا:

- هم لم يحملوا سلاحًا ضدنا.

رد هاشم:

- إذا تركناهم في الشوارع فسينقلبون علينا يومًا ما ونحن لن نجلس لننتظر هذا اليوم.

عاد صادق يقول:

- لكن مطالبهم عادلة.

رد هاشم:

- أجل بالفعل، لكن الطلب بها جاء في توقيت صعب للغاية علينا، مواردنا لا تكفي، والشركة الأم في الولايات المُتحدة لا ترد على رسائلنا منذ ستة أشهر أو يزيد، كما أن اتصالاتنا بجميع فروع الشركة مقطوعة، كل ما بنيناه مُهدد وأنا لن أسمح بهذا.

قالها بصرامة شديدة ثم استطرد بعد لحظات من الصمت:

- الأوضاع صعبة جدًّا وينبغي أن نتكاتف جميعًا، نحن نحاول الحفاظ على الكيان لا هدمه.

لم يرد صادق في حين التقط أحمد مبادرة الحديث:

- واجبنا هو حفظ الأمن، وهذا ما سنفعله حتى آخر رجل لدينا يا سيدي.

ثم التفت إلى صادق وهو يقول:

- طالما لدينا رجال كصادق فسقوطنا صعب.

بشرود ابتسم ولم يعقب على كلام أحمد وقد بدا في عينيه غضب مكتوم ونبتت في صدره بذرة الانتقام، وشعر أن الوقت قد حان لهدم المعبد على رؤوس الجميع.

هي الحرب الكبرى الرابعة، الحرب التي لن يكون فيها رابح، حرب الخاسرين، عليه فقط الانتظار حتى يحين وقت اللعبة... لعبته هو.

****

«هـل قامـت القيامـة عليهـم؟ انفجـارات وأصـوات إطـلاق رصـاص، وجـزء كبـير مـن سـورهم قـد تـضرر».

ألقـى ريـان سـؤاله وهـو يقـف وسـط عـدد مـن رجالـه عـلى حـدود أطلالـه، ولمـا لم يـرد عليـه أحـد قـال بلهجـة آمـرة:

- لقاؤنـا موعـده اليـوم، تواصلـوا معهـم عـبر جهـاز الاتصـال وأخبروهـم باسـتعدادنا لعمليـة التبـادل.

انـصرف اثنـان مـن رجالـه لتنفيـذ أوامـره بينـما التفـت إلى سـالم الواقـف جانبـه باسـتمرار وقـال:

- الرجال الذين أرسلناهم إلى خارج حدودنا قد عادوا؟

باحترام مُبالغ فيه رد سالم:

- عـادوا يـا سـيدي ولديهـم أخبـار جديـدة أعتقـد أنهـا تهمـك.

التفت ريان إليه وهو يقول:

- حسنًا، أحضر لي قائد تلك الدورية وتعالَ إلى مسكني.

انـصرف سـالم لتنفيـذ أمـر سـيده في حـين توجـه ريـان إلى مسـكنه، ولم ينتظـر طويـلًا حتـى أتى سـالم ومعـه قائـد الدوريـة الـذي وقـف باحـترام أمـام ريـان الـذي قـال لـه:

- مرحبًا بعودتك سالمًا.

رد عليه:

- لك جزيل الشكر يا سيدي لقد جئت كما أمرت لأقدم لك تقريري عن رحلتنا الطويلة التي قطعناها

أشار له ريان بمعنى أن يتحدث، فقال الرجل:

- في البداية يا سيدي هناك مُدن سكنية كاملة يوجد بها ناجون، ولديهم بنية تحتية لم تتضرر بشكل كبير من الحرب كذلك لديهم موارد كثيرة، كما أن لديهم أسلحة ووقودًا وسيارات أيضًا.

لمعت عينا ريان واتسعت وهو يشير مرة أخرى إلى رجله ليكمل حديثه فأكمله:

- بعض المجتمعات التي رأيناها مُنظمة ولديها قواعد وأنظمة تحكم الحياة بها، وبعضها بلا أي قواعد أو أحكام، يأكل القوي الضعيف فيها.

بدا الاهتمام على وجه ريان الذي سأل رجله:

- هل سمحوا لكم بالدخول وسطهم.

- بعض المجتمعات سمحت لنا، والبعض لم يسمح إلا بعد تسليمنا لأسلحتنا، والبعض الآخر دخلنا وخرجنا من مجتمعاتهم وكأننا في منازلنا.

وقف ريان وفرد قامته وقد بدت على وجهه نشوة غريبة ثم توجه إلى الرجل وربت على كتفه بقوة وهو يقول:

- لكـم مُكافـأة كبـيرة يـا رجـال لقـد عدتـم لي بكنـز مـن المعلومـات، الآن فقـط عليـك أن تسـتريح وبعدهـا سـنتقابل مـرة أخـرى.

أكلـت الفرحـة وجـه الرجـل الـذي كاد أن ينحنـي أمـام ريـان ورفـض أن يعطيـه ظهـره وهـو يغـادر مسـكن ريـان الذي التفـت إلى سـالم الواقـف صامتًـا منـذ بدايـة الحديـث وقـال لـه:

- ما رأيك بما قاله هذا الرجل يا سالم؟

بحيرة رد عليه:

- هناك ناجون يا سيدي قد نستطيع أخذ ما لديهم.

نظر ريان له باستخفاف وهو يقول:

- ولماذا نهجم عليهم وعدونا قابع أمامنا؟

- المُستعمرة؟

- وهل يوجد غيرها؟!

- ألسنا على وفاق معهم يا سيدي؟

عاد ريان ليجلس على مقعده وهو يقول:

- حاليًـا نعـم، ولكننـا الأحـق بـإدارة شـؤون ذلـك المـكان، والمُسـتعمرة تعوقنـا عـن تحقيـق ذلـك.

لم يرد عليه سالم فتابع الحديث قائلًا:

- إذا اتحـد كل سـكان القاهـرة ومـا يجاورهـا ضد المُسـتعمرة فسـنضمن الفـوز وإنهاء الأسـطورة.

بغباء سأله سالم:

- أي أسطورة؟

نهض ريان من على مقعده، ثم أمسك يد سالم وهو يسحبه ناحية النافذة بقوة، فتح النافذة مُشيرًا ناحية المُستعمرة قائلًا بعصبية:

- تلك الأسطورة، ذلك المكان، تلك الأسوار.. كل شبر فيها ينتمي إليّ أنا فقط هذا هو مكاني، هذا المكان سأحكم منه مصر كلها يومًا ما.

انتقلت عصبية ريان إلى سالم الذي قال بصوت عالٍ:

- لا أدري سبب كرهك لهذا المكان يا ريان، هم لا يضروننا في شيء بل الآن نحن ننتفع بما لديهم.

هدأت ثورة ريان كما بدأت فجأة وهو يقول:

- سلامنا هش، واهن، سقطة واحدة وستشتعل القاهرة، كل ما سأصب عليه اهتمامي في هذه الفترة هو أن نكون مُستعدين عندما يشب الحريق، عندما تحين اللحظة ستكون القاهرة كلها تحت طوع بناني، عندها سيكون طريقي لحكم مصر مُمهدًا ويسيرًا.

شعر سالم بخوف مبهم لكنه أخفاه داخله بمهارة وقال بهدوء مماثل:

- إذا تصادمنا معهم ستكون خسائرنا أكبر ولا يمكن تعويضها.

رد ريان:

- من قال لك إننا سنتصادم مع أي أحد، انتظر وشاهد وتعلم.

همَّ سالم بمغادرة السكن لكن ريان استوقفه وهو يقول له :

- أنا مُتعب ولن أذهب هذه المرة لعملية التبادل أنت ستكون موجودًا نيابة عني، احرص على أن تمر الأمور مرور الكرام.

أومأ سالم برأسه وهو يقول:

- كما لو كنت موجودًا يا ريان، لا تقلق يا صديقي.

غادر سالم الغرفة في حين نظر ريان مليًّا عبر النافذة إلى أطلاله وهو يتذكر ذلك الحلم الذي أخذ يزوره يوميًّا منذ فترة قصيرة.

حلمًا يرى نفسه فيه سائرًا في ممر طويل يفضي إلى حفرة عميقة، يحاول بكل جهده التوقف لكنه لا يستطيع السيطرة على أطرافه، وقبل الهاوية بسنتيمترات قليلة يستيقظ غارقًا في العرق وأحيانًا يكون عرقه مُختلطًا ببوله. ارتجف عندما تذكر وشعر بامتلاء مثانته، كان يعلم أن



تفكيره خاطئ، ويعلم أنه سيتسبب في مقتل المئات، ولكنه لا يستطيع التوقف لسبب ما.

وفي أحد أركان غرفته رأى أمه تنظر له وهي تبتسم بحزن، ولأول مرة منذ أن بدأت أمه تتراءى له، أدار ظهره لها وأغمض عينيه وهو يبتسم..

****

لم يحكِ لأحد عن هذا الحلم من قبل لا ليانا، لا مُسعد، فقط هو.. احتفظ بتفاصيله لنفسه.

يسير في ممر طويل، مُظلم.. ولأول مرة في حياته يكره السير، يود أن يتوقف عن السير، لكن جسده يخونه وقدماه لا تطاوعانه.

يعلم أن هناك حفرة تقبع في نهاية الممر، حفرة تتهيأ لابتلاعه وهو يسير إليها بإرادته الحرة، وقبل أن يسقط، يستيقظ مذعورًا خائفًا، وحيدًا حتى لو كانت ليانا بجواره.

ليانا، كم يفتقدها، هي مرآته الكاذبة، الخادعة. تَذكُرها جعل المرارة تتصاعد إلى حلقه، هو لا يستطيع أن يساعدها، كل ما استطاع فعله هو توصية بعض زملائه عليها لكي تتلقى معاملة حسنة، رغم تأكيد زملائه له أن جميع المسجونين يتلقون معاملة حسنة، ولكن قلبه يؤلمه عليها.

نهض من على سريره ببطء، شاعرًا بعظام جسده تتكسر بسيره البطيء، أصدر جهاز اتصاله أزيزًا مُتصلًا فسار بهدوء حتى وصل إليه ونظر في شاشته ليجد رساله استدعاء عاجلة له، فارتدى ملابسه على عجل وأمسك خوذته وخرج من مسكنه قاصدًا مقر الحراس، كان مسكنه الجديد يقع على بعد عدة أمتار من المقر الرئيس، فلم يأخذ سوى دقائق قليلة حتى وصل إلى مقر الحراس، ليجد أحمد سلام

يقـف أمـام المبنـى وحولـه ضابطـان ويتبـادل الجميـع حديثًـا باسـمًا هادئًـا. وصـل صـادق حيـث يقـف قائـده فـأدى التحيـة العسـكرية لـه ليردهـا لـه أحمـد والضابطـان الآخـران اللـذان أمرهـما قائدهـما بالانـصراف، ثـم نظـر إلى صـادق وهـو يقـول لـه:

- نظرتي لك كانت في محلها أيها الضابط.

شـعر صـادق بالحـزن يعتـصر قلبـه وهـو يتذكـر وجـه مُسـعد ليلـة مقتلـه، فقـال بهـدوء يشـوبه الألم:

- لم أفعل إلا ما أقسمت على فعله يا سيدي.

تجاهـل أحمـد عبارتـه وهـو يعبـث عـلى شاشـة حاسـوبه اللوحـي ثـم قـال:

- أثنـاء تلـك المُحاولـة الفاشـلة للتمـرد، فقدنـا العديـد مـن الرجـال الأخيـار والعديـد مـن الكفـاءات والكـوادر المُدربـة، لذلـك فقـد كلفنـي القائـد بسرعـة إعـادة هيكلـة أجهزتنـا الأمنيـة والعسـكرية، ونظـرًا لمـا قدمتـه أنـت طـوال خدمتـك، فقـد كان اسـمك مـن أول الأسـماء التـي تـم طرحهـا لتـولي بعـض المناصـب القياديـة التـي وقـع أصحابهـا أثنـاء القتـال.

اسـترعت العبـارة اهتـمام صـادق وشـعر أن القـدر يقـف إلى صفـه لأول مـرة فقـال بسرعـة:

- ثقة القيادة شرف لي، وأنا مُستعد لخدمة الشركة والمُستعمرة من أي مكان.

ارتسمت ابتسامة هادئة على وجه أحمد وهو ما زال يعبث في حاسوبه اللوحي وبعد لحظات من الصمت قال:

- لذلك تم ترقيتك إلى منصب قائد الدوريات وستباشر عملك منذ هذه الدقيقة.

صُدم صادق لهذا الخبر فتوليه ذلك المنصب يعني أنه سيكون الرجل الثالث من حيث الأهمية في الحراسة بعد القائد الأعلى وبعد قائد الدفاع الداخلي، منصب لم يكن يحلم به صادق حاليًا على الأقل، أغلق أحمد حاسوبه اللوحي ونظر إلى صادق وهو يقول له:

- لقد منينا بخسائر جسيمة في ذلك التمرد ونحن الآن في مرحلة بناء ما هُدم، كذلك علاقتنا مع ما وراء السور متوترة من الأساس وينبغي التعامل معها بحذر وحرص شديدين.

رد صادق:

- لا تقلق يا سيدي، سأحرص أن تكون كل الأمور على ما يرام.

وبعد لحظات من الصمت قال صادق بصوت مُتردد:

- ماذا عن المُعتقلين يا سيدي؟!

زفر أحمد بصوت مسموع وحاول أن يتمالك أعصابه وهدوءه وهو يقول له:

- أعلم أن تلك الليلة كانت صعبة عليك، فقدت صديقك الوحيد، ولك أصدقاء كثيرون مُعتقلون.

كان يقصد مسعد الذي قُتل على يد صادق وليانا القابعة في إحدى الزنزانات المُظلمة، لكنه لم يستطع أن يقول له عشيقتك مُعتقلة ويمكن أن لا ترى الشمس مرة أخرى.

شعر صادق بقبضة باردة تعتصر قلبه في حين تابع أحمد كلامه:

- لكن الآن أنت في موقع المسؤولية، لا ينبغي أن تترك مشاعرك تتحكم بك، أنت من قتلت مُسعد أليس كذلك؟!

بصوت مُتحشرج أجاب صادق:

- أجل، بمجرد رؤيته أطلقت عليه النار ومن معه.

بدأ أحمد في السير وهو يقول:

- هلا سرت معي لنتفقد الأضرار الحادثة في منطقة المُستودعات.

دون أن ينبس ببنت شفة سار صادق ولأول مرة في حياته يشعر بعذاب في سيره.

تفوه أحمد ببضع كلمات لم يسمعها صادق رغم وضوح وعلو صوت الأول، ساد الصمت بينهم لدقائق طويلة وأحمد يتفقد أضرار القتال وصادق يسير صامتًا بجواره حتى كرر صادق كسر جدار الصمت وهو يسأله:

- إذن لا أمل في خروج من اعتقل؟

رد أحمد سريعًا:

- لا بالطبع يوجد أمل، لكن خروجهم لن يكون قريبًا حتى أكون صادقًا معك، أولًا يجب أن نتأكد أن لا علاقة لهم بالتمرد ثانيًا..

قاطعه صادق بطريقة خالية من اللياقة قائلًا:

- لا علاقة لهم بالتمرد، على الأقل من أعرفهم لا علاقة لهم.

توقف أحمد عن السير ثم التفت إلى صادق قائلًا له بعصبية:

- قضي الأمر يا صادق، هؤلاء قبض عليهم أثناء محاولة للتمرد وكل الأسباب تدفعنا للتحفظ عليهم، من له علاقة أو ارتكب جرمًا سيعاقب، أما البريء فسيخرج من سجنه ويعود لحياته أما الآن فما عليك سوى الانتظار وتنفيذ الأوامر.

هدأت حدته قليلًا ثم استطرد:

- الآن بما أنك قائد للدوريات، فبعد ساعتين من الآن ستخرج دورية كبيرة إلى حدود الأطلال لتتم عملية التبادل بيننا وبينهم، ستكون أنت على رأسها.

توترت أعصاب صادق عند تلك النقطة وانتبهت كل حواسه وهو يسأله:

- وأنت يا سيدي ألن تأتي معنا؟!

بسرعة رد أحمد:

- ليس الآن، ليس هذه المرة، لدي العديد من الأشياء كي أهتم بها، الأمر الآن يقع على عاتقك أنت بأكمله.

بدأت الخيوط تتشابك في عقل صادق وأجبر نفسه على الابتسام وبعد أن نجح في هذا قال له:

- لا تقلق يا سيدي سأكون خير سفير للمُستعمرة.

بادله أحمد الابتسام ثم أمره بالانصراف إلى مقر الدوريات، بينما أكمل هو وحده تفقد أضرار التمرد.

وعندما تأكد صادق أنه قد ابتعد بالقدر الكافي، أخرج من جيبه قرصًا صغيرًا أسود اللون لا يتعدى قطره العشرة سنتيمترات، نظر له مليًّا وابتسم فقريبًا ستحين لحظة الخلاص.

****

وسط رجاله المُتشحين بالأسود، وقف صادق بثبات عجيب، وبإحكامه إغلاق خوذته وعدم رؤيتك لملامح أو تفاصيل وجهه، فستشعر أنه تمثال من الأبنوس اللامع، في المرة الأولى التي خرج فيها مع هؤلاء الرجال إلى خارج أسوار المُستعمرة كان ضابطًا عاديًّا لا يميزه شيء عنهم، ولسخرية القدر منه ومن زملائه فثاني مرة يخرج فيها مع هؤلاء الرجال، يكون هو قائدهم.

لكن هذه المرة كان احترامهم له صادقًا وحقيقيًّا بلا تملق، لا لكونه قائدهم الجديد بل لما فعله أثناء التمرد، فالكل يتكلم عن صادق الذي واجه المتمردين بصدر عارٍ، صادق الذي قتل صديقه الوحيد لأنه وقف مع الجانب الخاطئ أثناء احتدام المعركة..

ومن بعيد لمح صادق عبر نظام التقريب المُدمج في خوذته عدة سيارات آتية وسط عاصفة من التراب فتكلم مع رجاله قائلًا بلهجة آمرة لكنها هادئة:

- استعدوا يا رجال، وقِفوا ثابتين في أماكنكم.

استقامت وقفة رجاله ولم تمضِ لحظات حتى وصلت السيارات الأربع وترجل منها عدد من الرجال، دار صادق في وجوه الرجال بلهفة باحثًا عن وجه ريان، لكنه لم يكن هناك، تقدم أحد الرجال وعرف نفسه له:

- أنا سالم المسؤول عن عمليات المقايضة ومندوب عن الزعيم ريان.

يا له من زعيم ويا لها من زعامة، هكذا قال صادق بداخله وهو يعرف نفسه بطريقة صارمة:

- الضابط صادق عبد الهادي، قائد الدوريات بالمُستعمرة.

شيء ما في صوت صادق جعل سالم يتراجع عن أي محاولة خرقاء لمضايقته أو استفزازه فاكتفى بأن يقول:

- هل بضاعتكم موجودة؟!

بصرامة رد صادق:

- لو لم تكن موجودة لما أتينا إلى هنا.

ضحك سالم وهو يقول:

- صدقت أيها القائد، صدقت.

ثم التفت إلى رجاله مُتحدثًا بلهجة آمرة:

- أنزلوا حمولتنا يا رجال.

اندفع عدد من رجاله لتنفيذ أمره، وفي لحظات قليلة كانوا قد بدؤوا في إخراج الناس من صندوق السيارة الكبير في طابورين مُختلفين.

ملابس مقطعة، شفاه مشققة، وجوه دامية تزينها كدمات كثيرة، البؤس في أبهى صوره تجلى على هؤلاء البشر المغدور بهم.

تأمل صادق ملامحهم البائسة ولفت انتباهه فتاة صغيرة تشابهت ملامحها مع ملامح ليانا بشكل غريب، بملابس مُمزقة وشعر أشعث وجرح سطحي في جبهتها، شعر بأنها ملكة على هذا الكون، وهذا حفل مراسم تتويجها..

قاطع صوت سالم الغليظ تأمله وهو يقول:

- ها هي بضاعتكم، أين خاصتنا؟

لم يستطع صادق إشاحة نظرة عن تلك الفتاة الصغيرة وهو يقول لرجاله:

- أنزلوا الصناديق.

ليبدأ بعدها ضابطان بإنزال الصناديق من إحدى المُدرعات بينما سالم يطلب من رجاله تسيير طابور المسجونين حيث يقف الحراس وما زال بصر صادق متعلقًا بتلك الفتاة الصغيرة.

تأكد سالم من صناديقه وبدأ الضباط في إدخال المسجونين إلى إحدى المُدرعات، حاول صادق أن يصبغ كلماته بأكبر كمّ ممكن من الود وهو يقول:

- لم نرَ السيد ريان اليوم لعل المانع خير؟

ابتسم سالم وهو يقول:

- لدى الزعيم أشياء أخرى كثيرة ليهتم بها أيها القائد.

بابتسامة متكلفة أجابه صادق:

- معلوم بالطبع، فليكن الله بعونه.

ثم التفت إلى رجاله وهو يقول لهم:

- استعدوا للعودة.

بينما كان سالم ورجاله كانوا قد انتهوا من إدخال صناديق الذخيرة والطعام إلى عرباتهم ودون أن يتفوه سالم بأي حرف ركب إحدى السيارات وغادرت فورًا.

أخفت الخوذة ابتسامة صادق الحزينة التي ارتسمت على ملامحه فور ركوبه للمدرعة وبينما بدأ الرتل بالتحرك، داعب هو بأصابعه جهاز تحكم عن بعد صغير للغاية لا يحتوي إلا على زر واحد فقط، انحدرت دموعه ساخنة على وجنتيه بينما اتسعت ابتسامته الحزينة وهو يضغط الزر، ليسمع الجميع دوي انفجار هائل أتى من ناحية الأطلال.

****

«إنها كارثة وحلت بنا، الآن ريان وجماعته يتهموننا بأننا وراء ذلك الانفجار الذي فهموه على أنه مُحاولة اغتيال لزعيمهم، وأطلقوا تحذيرًا شديد اللهجة بأنهم سيقومون بأعمال عدائية تجاه قواتنا التي ستخرج من المُستعمرة لأي سبب ولأي ظرف، أي أنهم يضربون علينا حصارًا خارج أسوارنا».

أنهى هاشم محجوب كلامه بزفرة طويلة حانقة وبعد لحظات من الصمت تابع كلامه قائلًا:

- المُشكلة أن أحد رجال ريان المُقربين له قد أصيب إصابات بالغة جراء هذا الانفجار.

لم يتحدث أحد من الضباط المُحيطين به وكان من ضمنهم أحمد وصادق في حين استمر هو في الكلام وقد ازداد غضبه:

- الأهم من هذا هو أن عمليات التبادل بيننا وبينهم قد توقفت إلى أجل غير مسمى، وهذا سيؤثر سلبًا على تجاربنا التي قد قطعنا فيها شوطًا طويلًا وتوقفها الآن سيعطلنا كثيرًا.

تحدث أحمد لأول مرة منذ بداية الحديث:

- لا أحد يستطيع فرض حصار علينا.

أيده صادق الذي ينتهز أي فرصة لإشعال الأمر قائلًا:

- أعطوني خمسين رجلًا فقط وسأحتل أطلال القاهرة كلها في غضون ساعات قليلة.

انقسم الضباط الحاضرين بين مؤيد لرأيه ومعارض له وساد الهرج والمرج للحظات حتى صرخ فيهم هاشم بكل قوته:

- أوليس فيكم رجل واحد رشيد، نحن في أزمة حقيقية هنا، الأمر لا يتعلق بسرعة إنهاء ريان وجماعته الأمر يتعلق..

خانته قدرته على التعبير فصمت وقد أشربت بشرته البيضاء بحمرة الغضب، نقر بأصابعه على سطح طاولة الاجتماعات المُتحلقين حولها هو وضُباطه.

ساد الصمت بينهم لعدة دقائق لم يجسر فيها أحدهم على التحدث حتى شعر أحمد سلام بالملل فقرر أخذ مُبادرة الحديث قائلًا:

- ينبغي التواصل مع هؤلاء الهمج ومحاولة الحديث معهم وإقناعهم بأننا لسنا المسؤولين عن هذا الانفجار.

أجابه هاشم سريعًا:

- لقد فكرنا في هذا، ولكنهم أغلقوا جهاز الاتصال أو حطموه لا أدري بعدما انتهوا من بث تهديدهم.

ساد الصمت بينهم للحظات ثم تدخل صادق في الحديث مرة أخرى قائلًا:

- إذن ليخرج إليهم وفد رفيع مكون من بعض قادة الحرس و..

قاطعه هاشم بعصبية:

- ويقومون بقتل هذا الوفد ونخسر خيرة قادتنا.

بعصبية مماثلة رد صادق:

- كل قادة الحرس مُستعدون لبذل أرواحهم في سبيل المُستعمرة بلا خوف أو تردد.

فاجأه تأييد كل الضباط الحاضرين لكلامه بينما قال أحمد:

- سنأخذ كافة الاحتياطات ونحن ذاهبون إليهم ولن ندع مجالًا لأي خطأ. مواردنا في تناقص مستمر واستمرار تلك التجارب هو آخر أمل لدينا للبقاء.

قال أحد الضباط:

- أجل، سنخرج في حملة كبيرة لن يستطيعوا مهاجمتنا ثم إن..

فوجئ الجميع بصيحة اعتراض من صادق وهو يقول:

- نخرج في حملة كبيرة يعني أننا ذاهبون للقتال وليس للتفاوض، سيخرج عدد قليل من الضباط ربما خمسة أو

ستة وسيكون قائد الحرس أحدهم كذلك أنا وقائد الدفاع الداخلي.

تلاقت أبصار صادق وأحمد للحظات وشعر صادق وقتها بأن أحمد الذي يضغط على أسنانه يسبر أغواره ويقرأ ما في نفسه، بثبات حاول صادق أن يتمالك أعصابه وهو ينظر إلى هاشم ويقول:

- هذه هي الطريقة الوحيدة من وجهة نظري للخروج من هذا المأزق.

حاول أحمد أن يتكلم لكن هاشم سبقه وقال بقلة حيلة:

- حسنًا كما تريدون، المهم هو أن نتخلص من ذلك الظرف الصعب الذي نعيشه.

بنصف ابتسامة نظر أحمد إلى صادق وهو يقول بغموض:

- إذن ليستعد كل قادة الحرس للخروج إلى هؤلاء الهمج، وأتعشم أن يعود بعضنا سالمًا من تلك الرحلة.

شعر صادق بخوف مبهم يجتاحه ويجبره بأن يشيح بنظره بعيدًا عن وجه أحمد، ولأول مرة منذ فترة طويلة يشعر صادق بالندم لما تفوه به حتى إنه لم ينتبه إلى هاشم الذي قال:



- سنبث عبر كل موجاتنا بخبر الوفد الخارج من عندنا للتفاوض مع ريان وجماعته، لعل وعسى يلتقطه أحد أجهزتهم، سنخبرهم في البث بنقطة اللقاء وسنؤكد على سلميته ولندعو الله جميعًا بأن تمر الأمور مرور الكرام.

****



«انتــــقم مــمن تسـبب في أذيتـك، لا أعـذار ولا تُــســامح، فأنــت لـــســـت إلــهًا».

****



ساد الصمت بين الضُباط الأربعة الراكبين في إحدى سيارات الحرس المُدرعة، بصفتهم الأربعة الكبار في ذلك الجهاز الأمني الذين اتفقوا في ما بينهم على الخروج وحدهم دون أي دعم أو جنود، كانت فكرة أحمد وأيدها صادق بطريقة أدهشت الكل، لكنه أرجع تأييده لتلك الفكرة لأنها الطريقة الوحيدة التي ستثبت للجميع أن الحرس لا يهاب ساكني الأطلال ولا يرهبهم وأنهم خارجون فقط للتفاوض وليس للقتال، كما رأى صادق بأنه عندما يرى بقية الحراس قادتهم يخرجون وحدهم سيرفع ذلك بلا شك من روحهم المعنوية..

توقفت السيارة عند النقطة التي تم تحديدها سلفًا وتم إبلاغ ريان بأنها ستكون أرض لقائهم وترجل منها الرجال الأربعة..

بعد أن ترجل صادق من السيارة استند بظهره إليها وهو ينظر باتجاه الأطلال مُتحسسًا مُسدسه القابع في غمده وللحظات شعر بتشوش شديد في الرؤية. دوار يكتنف رأسه بلا أي سبب منطقي لكنه تماسك وظل واقفًا ومن بعيد لمحه قادمًا نحوه..

بدماء جافة تغرق وجهه وجسده مصدرها ثقب كبير في إحدى جانبي رأسه، وبنظرات حاقدة مخيفة مُسددة إليه.

تقدم نحوه في هدوء، لم ينجح صادق في تحديد ملامح الآتي نحوه من الوهلة الأولى لكن بعد اقترابه منه بمسافة كافية تعرف عليه، كان مسعد هو من يسير نحوه.

كتلة خالصة من الشر والحقد والكراهية، بمزيج لا يوجد إلا داخل أرواح الأباليس.. أو بعض البشر.

شعر صادق أن جسده قد تسمر مكانه وبصعوبة بالغه نجحت يمناه في الوصول إلى مقبض مسدسه القابع في غمده لكنه لم يقوَ على إخراجه.

إنه كابوس لعين. هكذا حدث نفسه فأغمض عينيه للحظات وفتحها ليجد مسعد قد اقترب منه إلى حد كبير نفض رأسه وأغمض عينيه مرة ثانية ثم فتحهما عن آخرهما ليجد أمامه أحمد سلام قائد الحرس قد وقف على بعد عدة سنتيمترات قليلة منه وهو يمد يده اليسرى ليضعها على كتف صادق اليمنى التي انتفضت مرة واحدة، وشعر بعجزه عن التقاط أنفاسه فخلع خوذته بذعر شديد دفع أحمد إلى التقهقر لبضع خطوات وهو يصيح به:

- ماذا بك يا صادق؟!

شعر صادق بصعوبة بالغة في إخراج الكلمات وهو يقول:

- لا لا شيء، مُتعب.. أنا فقط مُتعب قليلًا.

رفـع أحمـد زجـاج خوذتـه وهـو يتفحـص مليًّـا في ملامـح صـادق ثـم اقـترب منـه بهـدوء وهـو يقـول لـه:

- أنت تحتاج إلى فترة راحة، فترة طويلة من الراحة.

نطقهـا بطريقـة لم تـرُق قـط إلى صـادق الـذي قـال لـه باقتضـاب:

- أنا بخير.

بسخرية رد أحمد:

- هذا واضح.

ثم التفت حوله وهو يقول:

- هل تعتقد أن ريان سيأتي إلينا؟!

بدأ صادق في استعادة نشاطه فتلفت حوله بدوره قائلًا:

- سـيأتي أو سيرسـل أحدهـم عـلى أقـل تقديـر، فضولـه سـيمنعه مـن قتلنـا أو الغـدر بنـا قبـل أن يسـمع مـا لدينـا.

- وإذا قتلنا قبل أن يستمع إلينا.

- سـنكون قـد أدينـا واجبنـا حتـى اللحظـة الأخـيرة مـن أعمارنـا.

سـاد الصمـت بعـد جملـة صـادق الأخـيرة، كان الضابطـان الآخـران واقفـين عـلى الجهـة الأخـرى من السـيارة ولم يسـمعهما صـادق يتبـادلان حرفًـا واحـدًا..

مـرت دقائـق طويلـة وشرد صـادق ولم يشـعر بنفسـه إلا وهـو يسـحب سـلاحه ببـطء وحـذر شـديدين دون أن ينتبـه أحمـد سـلام الـذي كان يوليـه ظهـره مُنشـغلًا بمراقبـة الطريـق المُفـضي إلى بقايـا القاهـرة وبنظـرة سريعـة إلى الخلـف تأكـد صـادق مـن أن الضابطـين الآخريـن لم ينتبهـا إلى مـا فعلـه، عـدل مـن وضـع الضجيـج في مسدسـه سريعًـا ليجعلـه صامتًـا ثـم ربـت عـلى كتـف أحمـد ليجعلـه يلتفـت لـه وهـو يقـول بصـوت مُتحـشرج:

- أنا آسف.

اسـتدار أحمـد إليـه ليفاجـأ بصـادق يصـوب مُسدسـه إليـه وقبـل أن ينطـق بحـرف واحـد كان صـادق قـد أطلـق سـلاحه في وجهـه مُبـاشرة لتنطلـق دفعـة مـن الرصاصـات مُحيلـة وجـه أحمـد إلى خـراب دمـوي مُهشـم، وبسرعـة التقـط صـادق جسـد أحمـد قبـل أن يقـع عـلى الأرض، وبرفـق شـديد وضعـه أرضًـا بنفسـه، شـعر صـادق براحـة نفسـية غريبـة رغـم الحـزن العنيـف الـذي يجتاحـه، وبـدأت الدمـوع تتجمـع في مقلتيـه، وبنفـس الهـدوء التقـط سـلاح أحمـد ثـم لبـس خوذتـه ودار حـول السـيارة بهـدوء ليقابـل الضابطـين الآخريـن شـاهرًا في وجوههـم سـلاحيه، ودون أن يتبـادلا أي كلـمات سـحب الضابطـان أسـلحتهما سريعًـا وأطلقاهـا نحـو صـادق الـذي قفـز



جانبًا بسرعة وهو يطلق سلاحيه في نفس التوقيت نحو أضعف نقطة في درع الحراس الأسود.. الرقبة.

شعر بعدها بمطرقة دفعته في صدره وشعر بضلوعه تنسحق والهواء ينسحب من رئتيه إثر الرصاصة التي حماه منها درعه في حين استمر هو في إطلاق الرصاص حتى سقط الضابطان صريعين على الأرض في بركة من الأحمر القاني. لم يحتمل جسده كل تلك الانفعالات والمجهود الزائد فسقط سلاحاه ثم سقط هو بعدها على الأرض شاعرًا بدوار عنيف يكتنف رأسه وبدأت الدنيا تظلم من حوله رويدًا رويدًا حتى أظلم ما حوله تمامًا.

****

ألم عنيف يجتاح رأسه وصدره. دقات قلبه مرتفعة، العرق يغرق جسده، أصوات سيارات آتية من بعيد نبهت وعيه النائم، فهب ناهضًا رغم ما يعتمل بجسده من آلام، نظر ناحية الصوت ليجد ثلاث سيارات قادمة نحوه بسرعه، تحرك هو بهدوء مارًّا من فوق جسد زملائه بعد أن التقط مسدسه ووضعه في غمده ووقف ينتظر السيارات بحذر وهدوء، لم يطل انتظاره سوى للحظات قليلة حتى وصلت السيارات إليه وترجل منها ريان وعدد كبير من رجاله الذين اندفعوا نحوه وهم يشهرون أسلحتهم في وجهه، ليرفع هو ذراعيه فوق رأسه بهدوء وقد قرر أن تبدأ مُقامرته الآن.

تقدم ريان نحوه بهدوء وخيلاء ورجاله يحيطون به، نظر بدهشة شديدة إلى جثث الحراس وقال بسخرية ممتزجة بالدهشة:

- إذن هذا هو وفد الشركة ثلاث جُثث والرابع سكران!!

تعالت الضحكات من رجاله بينما عاد ليصيح ريان:

- من الذي قتل هؤلاء الرجال، ومن أنت؟!

رد صادق بهدوء وقد بدأ يشعر بخدر في ذراعيه بسبب رفعه لهما:

- أنا قتلتهم.

دون أن يظهر عليه أي أثر للانفعال قال ريان بهدوء:

- لماذا؟!

ببساطة رد عليه صادق وكأن الأمر لا يعنيه:

- لأني مختلف عنهم.

تحـرك أحـد رجـال ريـان بعصبيـة شـديدة تجـاه صـادق وألصـق فوهـة سـلاحه برأسـه بعـد أن أجـبره عـلى الجثـو صائحًـا:

- لقـد حاولـوا قتلـك يـا زعيـم بالأمـس، دعنـي أنهـي عـلى حيـاة هـذا الكلـب.

شـعر صـادق أن خيـوط اللعبـة سـتهرب مـن بـين أناملـه فصـاح:

- لقد جئتك مُحذرًا.

اقترب منه ريان وانحنى ليواجهه وهو يقول:

- تحذرني أم تكمل ما بدأتم به.

ازداد تحفز رجاله بعد نهاية عبارته لكن صادق صاح:

- المُسـتعمرة تجهـز لحملـة عسـكرية عـلى الأطـلال بهـدف إخضاعهـا لسـيطرتها ولحكمهـا.

تعالـت الهمهـمات والصيحـات الاعتراضيـة بـين رجـال ريـان بينــما لم يعقــب الأخــير وإن ظهــر الغضــب والانزعــاج عــلى محيــاه وتابــع صــادق حديثــه قائــلًا:

- كانت الخطة تقتضي قتلك أولًا، ثم الهجوم بحملة عسكرية واسعة ضد رجالك.

صُدم الجميع من حديث صادق، فالجميع يعلم أن مواجهة مباشرة مع المُستعمرة وحرسها ستنتهي حتمًا بإبادتهم تمامًا وبذهول منزعج قال ريان:

- لماذا؟!

بسرعة رد صادق:

- هم طلبوا منكم سلعة وأعطوكم مقابلًا لها، لماذا سيستمرون في دفع ذلك المقابل بينما يمكنهم أخذ كل ما يريدونه دون مقابل؟!

بغضب رد ريان وقد أخرج مسدسًا غريب الشكل من حزامه وأشهره في وجه صادق وهو يقول له:

- لماذا خنت قومك، ها؟!

ثم تابع بثورة وهو يلتفت حوله:

- لماذا نحن وليس هم؟ لماذا قتلت زملاءك؟ لعبة من ألاعيبكم أليس كذلك؟!!

بنفس الثورة رد صادق:

- استيقظ أيها الداعر اللعين هؤلاء هم قادة حراس المُستعمرة أمامكم قتلى، وتقول لي لماذا خنتهم، أنا أحد الجنود الذين سيخوضون معركة لا منفعة منها ولا فائدة،

معركة سيموت فيها العشرات منا والمئات منكم، حمام دم لا ينتهي لماذا أخوض كل ذلك في سبيل هاشم محجوب ليحترق هو ونسله في جهنم؟

هدأت ثورته قليلًا عندما رأى وقع كلماته عليهم ثم تابع في شيء من الهدوء:

- لماذا أخسر حياتي أو حياة أحد أصدقائي في سبيل هؤلاء الرجال الجالسين على مقاعد وثيرة خلف مكاتب زجاجية فخمة؟ أنا أريد الخير لمصر.

نجحت عبارته الأخيرة في جذب انتباه ريان الذي نظر له بتمعن وهو يقول:

- كيف تريد الخير لمصر؟!

رد صادق بسرعة وقد أدرك أنه لمس وترًا حساسًا لدى ريان:

- لماذا لا نتحد جميعًا ونوحد مواردنا وننعم بقاهرة موحدة قوية نتقاسم حكمها سويًا بعدل وحكمة، وننهض سويًا من هذا العفن الذي عشش بداخلنا جميعًا.

ابتسم ريان ابتسامة حزينة لم تلبث أن تلاشت في لحظات وهو يقول:

- لماذا أثق بك؟!

رفع صادق كتفيه وهو يقول:

- لا ضـمان، إذا شـئت اقتلنـي الآن واعفنـي مـن كل هـذا الخـراء، لكـن اسـتعد لأن كل القـوة العسـكرية لأمريـكان جينوم سـتوجه لكـم ضربـة قاضيـة، واذا شـئت اتركنـي وتعـاون معـي ليكـون لـك شريـك حقيقـي في حكـم القاهـرة الجديـدة التـي سـتكون قريبًـا.

رد ريان وقد بدأ الطمع يداعب عقله:

- وكيف هذا؟

مـد صـادق يـده في أحـد جيوبـه بحركـة مفاجئـة فتحـرك الرجـال مـن حولـه متحفزيـن وانقـض عليـه أحدهـم ليمسـك ذراعـه بعنـف ويخـرج مـا في يـده الـذي اتضـح أنـه مجـرد جهـاز إرسـال صغـير أسـود اللـون وصـاح صـادق:

- عـلى رسـلكم أيهـا المهرجـون إنـه جهـاز لاسـلكي فحسـب للتواصـل.

ثم وجه حديثه إلى ريان قائلًا له:

- هناك شيء آخر في السيارة أود أن أعطيك إياه.

أمـر ريـان أحـد رجالـه بإنهـاض صـادق والذهـاب معـه حيـث السـيارة المدرعـة، نفـذ رجلـه الأمـر وعـاد بعـد لحظـات برفقـة صـادق الـذي حمـل بـين يديـه صندوقًـا صغـيرًا أسـود اللـون وهـو يقـول لريـان:

- ما أخذه رجالك هو جهاز اتصال صغير مؤمن وبطاريته تدوم لأشهر ويصعب رصد أو اعتراض ما يبث له أو عليه، أما هذا الصندوق فهو هدية لك وحدك أنت.

قالها وهو يغمز بعينه اليمنى ثم قال:

- هذا الصندوق أحد أسرار الحرس ولا يعرف به هاشم محجوب حتى.

أمر ريان أحد رجاله بأخذ الصندوق من صادق الذي قال:

- ريان كل ما أطلبه منك الآن فيه مخاطرة، علينا جميعًا، الآن نحن في مركب واحد وإذا غرق أحدنا لن ينجو الآخر أبدًا لذلك علينا أن نثق بعضنا في بعض حتى ننجو من هذا المأزق.

لم يعقب ريان ولم يبد عليه أي أثر للتفكير أو الانزعاج حتى.. وبكل هدوء وسلام الدنيا أشار لصادق بالذهاب حيث يريد وكأن الأمر لم يعد يعنيه حتى وسط ذهول رجاله لكن صادق التفت مرة أخرى إلى ريان وهو يقول له:

- سأترك هذه السيارة المُدرعة إنها تعود إلى أحمد سلام شخصيًا، كما أنها مدرعة تدريع دبابة ومؤمنة بشكل كامل وتعمل بالطاقة الشمسية، بداخلها توجد بندقية



قنص حديثة مزودة بجهاز رؤية ليلية متطور، احتفظ بها فسنحتاجها قريبًا.

استمر صمت ريان ولم يعقب على كلام صادق بينما ينظر في وجوه رجاله بينما استدار صادق بادئًا رحلة عودته إلى المُستعمرة وقد حقق أول انتصار له في تلك المعركة.

****

فُتحت له بوابة المُستعمرة الكبيرة على مصراعيها، كان يسير ببطء شديد نتيجة جراحه التي أصيب به أثناء قتاله مع زملائه، هرع إليه العديد من الجنود والضباط وأحاطوا به وقد علا صياحهم..

لم يخبرهم إلا بأنه يجب عليه مُقابلة القائد بشكل عاجل، أسندوه وأوصلوه إليه، وبمجرد أن رآه القائد حتى امتقع وجهه حتى كاد يحاكي وجوه الموتى وأمر الحراس بإدخاله إلى مكتبه ثم صرف الجميع من حجرة مكتبه ولم يبقَ إلا هو وصادق فقط وبمجرد بقائهما وحدهما تحدث إليه قائلًا بانزعاج وهو ينظر إلى الدماء السائلة من جروحه السطحية نتيجة احتكاك بعض الرصاصات بجسده، وإلى درعه المُنبعجة عند موضع القلب تمامًا:

- ماذا حدث وأين القائد أحمد وبقية الضباط؟

بحزن حقيقي ودموع صادقة أجابه:

- ماتوا، كلهم ماتوا.

بذهول وخوف رد عليه هاشم:

- كيف حدث هذا؟ هل هاجموكم؟

رد صادق والألم يشتد عليه:

- نعم يا سيدي، لقد كان كمينًا أُعِد لنا بمهارة حقيقية، سقط القائد والضابطان الآخران، قاومتهم أنا لبعض الوقت

بعـد مقتـل الآخريـن حتـى فقـدت الوعـي، فحسـبوني ميتًـا وبعـد أن اسـتيقظت وجدتهـم قـد أخـذوا أسـلحتنا والسـيارة.

لم يشـك هاشـم للحظـة واحـدة في كلام صـادق خصوصًـا في مـا يتعلـق بنجاتـه وحـده مـن هـذا الكمـين، فالـكل يعـرف أن صـادق مقاتـل صلـد صلـب لا يشـق لـه غبـار، لكـن مـا أزعجـه حقًّـا هـو فقدانـه لقائـد حراسـه فقـال بعـدم تصديـق:

- وقتلوا أحمد.

رد صادق بسرعة:

- لقـد كانـت أعدادهـم كبـيرة، ومُسـلحين جيـدًا، كذلـك وجـدت فيهـم تنظيـمًا شـبه عسـكري، أعتقـد بذلـك السـلوك العـدائي الـذي أظهـروه فـإن هجومهـم علينـا مسـألة وقـت فقـط ووقتهـا سـتكون خسـائرنا أكـبر بمراحـل مـن خسـائرنا إبـان الهجـوم الكبـير.

باستهتار رد هاشم:

- أسوارنا ستردعهم، لن يستطيعوا اختراقها..

بدأت العصبية تغزو صوت صادق وهو يقول:

- إن هاجمـوا بأعـداد كبـيرة لـن نسـتطيع ردعهـم، خسـائر الحـراس خـلال السـتة أشـهر المُنصرمـة تجعلنـا في موقـف صعـب للغايـة أمـام أي هجـوم كبـير نتعـرض لـه.

بنفس الاستهتار قال هاشم:

- سنجعل الكل يحمل السلاح ويدافع عن الأسوار، نساء، أطفالًا، شيوخًا، سيقاتل الكل وقتها.

بنفاد صبر قال صادق:

- وحتى إن نجحنا في صد الهجوم، فستكون خسائرنا غير مُحتملة وغير قابلة للتعويض أبدًا.

نظر هاشم له مليًّا للحظات ثم سأله:

- والحل من وجهة نظرك هو؟

بسرعة رد صادق وكأنه قد جهز الرد مُسبقًا:

- تجهيز حملة كبيرة والخروج بها ضد جماعة ريان، سنكتسحهم إن استخدمنا كل أسلحتنا الهجومية وستكون خسائرنا قليلة، وسنستطيع بسط سيطرتنا على أطلال القاهرة، وسنعيد إحياء العاصمة من جديد، ونحكمها نحن فقط، تخيل كم الموارد التي سنستطيع الحصول عليها يا سيدي.

ساد الصمت بعدما انتهى صادق من حديثه وظهر على وجه هاشم أمارات التفكير العميق وبعد دقيقتين كاملتين من الصمت قال له:

- لن نأخذ قرارات مُندفعة الآن، سنفكر مليًّا قبل كل خطوة نتخذها، الآن كل ما عليك فعله فقط هو الذهاب إلى طبيب وتضميد جراحك، فهناك أشياء كثيرة لا بدَّ أن نتحدث بها.

أغمض صادق عينيه للحظات وهو يضغط على أسنانه من الغيظ ثم قال:

- كما تأمر يا سيدي، كما تأمر.

وبرغم آلامه الشديدة إلا أنه استدار بخطوة عسكرية سريعة وأكمل سيره بتلك الطريقة حتى غادر الغرفة وقد عزم في نفسه على شيء ما، بينما عاد هاشم إلى مقعده الوثير بخطوات مهمومة، وبمجرد جلوسه على المقعد ابتسم وتذكر حلمه الذي ينتهي بسقوطه في الهاوية.

****

داخـل غرفتـه المُعتمـة، جلـس صـادق يتحسـس الضـمادات التـي تحيـط بضلوعـه المُشروخـة وبجروحـه الكثـيرة ثـم تجـرع مـن زجاجـة كانـت أمامـه وبعـد أن مسـح فمـه بظهـر يـده قـال:

- أنا فقط أحاول أن أجاري تغيرات الموقف.

من أحد أركان الغرفة شديدة الإظلام أتاه الرد:

- لم نتفـق قـط عـلى قتلـك لقائـد الحـراس، ولم نتفـق عـلى إدارة الأمـور بتلـك الطريقـة، لقـد اتفقنـا عـلى عـدم تصرفـك في أي شيء قبـل الرجـوع لي.

كان الصوت باردًا ميتًا لدرجة جعل صادق يتوتر ويشعر بآلام مُضاعفة في صدره حاول أن يتكلم لكن الصوت قاطعه:

- لقد أمرتك بإشعال القتال بين المستعمرة والأطلال حتى يخلو لي المجال وأتقدم لحكم القاهرة كلها، لكن لم أطلب منك قتل قائد الحراس أو الاستماتة في الدفاع عن المُستعمرة ضد المُتمردين.

رد صادق بعصبية:

- هذا واجبي.

رد الصوت بغضب:

- كفاك تكرارًا لتلك الكلمة المطاطة، أنت تقاتل لأنك مستمتع بالقتال والقتل ومولع بالدماء، أنسيت مجزرة الهجوم الكبير؟!

بدأ صادق بالانهيار وهو يقول:

- كانوا يهاجموننا.

رد الصوت ببرود:

- كانوا نساءً وأطفالًا وشيوخًا عُزلًا.

بدأ نحيب صادق يعلو في الظلام وساد الصمت للحظات حتى عاد صاحب الصوت يقول:

- هذا لا يهم، لقد اخترتك لأنك الأصلح، الأقوى والأشجع، لقد أخطأت لكن خطأك قابل للإصلاح.

همّ صادق بأن يرد لكن الصوت قاطعه قائلًا:

- مهمتك الوحيدة الآن هي الحرب، اصنع لي حربًا أعطِ لك مُلكًا قويًّا متماسكًا لا تنفصم عراه أبدًا، هاشم محجوب جبان سيتورط في المعركة بسهولة إن دفعته لها دفعًا، وريان طماع سيحارب لأجل مُلك وهمي لا ينتمي له ولا يستحقه، اضربهم بعضهم ببعض وسننجو نحن ونحكم أطلال القاهرة من المُستعمرة وقريبًا جدًّا سنحكم مصر كلها، وسنصنع إمبراطورية قوية معًا يا صادق.

اختفى صوت بكاء صادق وفي الظلام ارتسمت على ملامحه ابتسامة حزينة وهو يقول:

- سأشعل الحرب لا تقلق.

رد الصوت:

- الآن عليك أن تذهب إلى هاشم واقنعه بضرورة إطلاق الحرب ضد الأطلال، واعلم أننا لن نتقابل لمدة طويلة بمعنى أصح نحن لن نتقابل إلا عندما تنتهي من لعب دورك، أفهمت.

بخضوع رد صادق:

- فهمت.

نهض من مكانه بصعوبة متغلبًا على آلام ضلوعه وسار ببطء مُتحسسًا طريقه وسط الظلام الدامس، حتى وصل إلى باب غرفته، وبحركة سريعة ضغط زر الإنارة لينتشر الضوء بسرعة في الغرفة ثم نظر حيث الركن الذي كان يجلس أمامه ولم يجد فيه سوى مرآة صغيرة فقط!

****

نهض هاشم محجوب من خلف مكتبه بأسارير مُنفرجة ليستقبل صادق الذي يسير بصعوبة وبطء مُتغلبًا على آلامه وهو يقول له:

- مرحبًا بك يا صادق.

أومأ صادق برأسه مُرحبًا دون أن يتكلم فعاد هاشم يقول:

- اجلس يا صادق، لدينا ما نتحدث به.

جلس صادق ببطء شديد وهو يختلس النظرات من حين لآخر لهاشم الذي عاد يجلس خلف مكتبه ثم قال بعد أن استقر مقامه:

- خيرًا يا سيدي، كلي آذان صاغية لك.

نظر له هاشم وهو يقول:

- في البداية أود أن أعرف لماذا قلت إن ريان سيهاجمنا في عقر دارنا رغم أن هذا صعب الحدوث؟

نظر صادق إلى أحد أركان غرفة المكتب ثم أخذ شهيقًا عميقًا وقال:

- أولًا هم أفصحوا عن نواياهم العدائية في تلك الرسالة التي قاموا ببثها إلينا، الأهم من ذلك والذي لا أعرف كيف تغفله حضرتك، أنهم قد قتلوا قائد حراسنا رغم علمهم بهويته أهناك شيء آخر تنتظره؟ أم أنه يجب أن نرى هجومهم علينا حتى نحرك ساكنًا.

زفر هاشم بحنق وهو يقول بعصبية:

- أنا لا أدري ماذا حدث، هل استثرتموهم في شيء ما؟ هل فعلتم شيئًا ما استفزهم لدرجة مهاجمة وفد رفيع المستوى خرج للتفاوض معهم؟

رد صادق بسرعة:

- أقسم لك إن لا شيء غريب حدث، خط السير المرسوم من البداية والمعلن عنه، لا ضباط أو آليات أو شيء، فقط بدؤوا بإطلاق النار علينا، أصابت أول دفعة الضابطين الآخرين وبدأت أنا والقائد -رحمه الله- في الرد عليهم حتى أصابته إحدى الدفعات في وجهه وصدره وأنا أصبت بما أصبت به وفقدت الوعي فحسبوني ميتًا وعندما استيقظت وجدت جثامين الرجال الثلاثة ملقية أرضًا وقد أخذوا منا أسلحتنا والسيارة.

بعصبية شديدة:

- حتمًا هناك شيء خاطئ، المُشكلة أنهم لا يستجيبون لرسائلنا.

بنفس العصبية رد صادق:

- المشكلة أنهم قد أعلنوا الحرب علينا وسيتساءل الجميع لماذا نصمت ونحن الأقوى؟

بغضب شديد قال هاشم:

- أنا لا أستطيع تسيير حملة عسكرية كبيرة ضد الأطلال، لن أخاطر بخسارة مدرعة واحدة أو حتى جندي واحد ولن أنجرف إلى قتال لن أستفيد منه بشيء.

رد صادق وقد شعر أن الأمور تخرج عن سيطرته فقال:

- لكن يا سيدي.

مُنهيًا الحوار ضرب هاشم سطح مكتبه وهو يقول:

- انتهى الأمر، لا نقاش لأوامري يا حضرة القائد، وبالمناسبة، بما أنك كنت قائدًا للحراس منذ عدة سنوات والآن أنت قائد الدوريات، فأنا أعينك قائدًا عامًّا للحراس.

شعر صادق بانتصار صغير يتحقق له، وإن كان لا يشعر بالفرحة العارمة، فهو كان قائدًا عامًّا للحراسة من قبل ولولا تركه لمنصبه منذ سنوات لكان الآن هو حاكم تلك المُستعمرة وليس هاشم محجوب الجالس أمامه الآن.

لم يرد على هاشم وإن نظر إلى ركن الغرفة مما دفع هاشم إلى أن يقول:

- أرى الفرحة غائبة عن عينيك يا صادق.

نظر له صادق وقال ببطء:

- اعذرني يا سيدي، أنا في ظرف صعب، ظرف كالسد يحول بيني وبين الفرحة، لكن ما يسعدني في الحقيقة هي ثقتك بي.

ابتسم هاشم وهو يقول:

- تستحقها عن جدارة.

ثم اختفت ابتسامته فجأة وهو يسأله:

- الآن ما هو أول قرار ستتخذه بعد تعيينك في المنصب الجديد؟!

فكر صادق للحظات ثم قال:

- سأبدأ في تسيير دوريات حول محيط السور فقط بحيث تكون كل الدوريات في مدى مدافعنا، وحتى نستطيع تقديم الدعم لأي دورية تتعرض لهجوم.

تكلم هاشم وقد بدأت العصبية تغزو صوته من جديد:

- لماذا تصرون على تلك الدوريات؟

بهدوء رد صادق:

تلك الدوريات هي خط دفاعنا الأول ضد ميليشيات الأطلال، لكشف أي محاولات للتسلل أو لزرع متفجرات، وهناك أيضًا عامل نفسي، الجميع يعلم ما تم إرساله لنا، والجميع يعلم بمقتل أحمد سلام، فإذا قبعنا في أماكننا سَيُفهم هذا على أنه استسلام وخوف وخضوع وليس إعمالًا للعقل والتروي.

ساد الصمت للحظات وظهر التفكير واضحًا جليًّا على ملامحه ثم قال فجأة:

- لديك وجهة نظر تحترم، ولذلك لك ما تريد يا حضرة القائد.

نهض صادق وهو يقول:

- إذن اسمح لي بممارسة مهام عملي ومنصبي يا سيدي فلدي العديد من الأمور لأهتم بها.

أشار له هاشم بالانصراف، فألقى صادق نظرة أخيرة على ركن الغرفة ثم سار خارجًا من غرفة هاشم محجوب وقد بدأ داخل عقله في وضع اللمسات الأخيرة لإشعال الحرب الكبرى التي ستغير كل شيء.. إلى الأبد.

****

في إحدى نقاط تجمع الدوريات.

وقف صادق أمام ثمانية ضباط من قوات النُخبة التابعة للحراس وهو يقول لهم:

- العِتاد هو ما يميزنا، وليس التعداد، لذلك منذ تلك اللحظة لن تخرج أي دورية من هنا، دون أن يكون لديها تسليح هجومي عالٍ وأن يكون هناك بين عناصر الدورية ضابط أو اثنان من قوات النُخبة.

وقف الضُباط وعدد كبير من الجنود أمامه باحترام، لم يحترموه فقط لكونه قائدهم الجديد، بل كانوا يحترمونه لما قدمه في سبيل بقاء هذا المكان آمنًا وتلك الجدران سليمة.

صمت الجميع منتظرين كلماته التالية بينما وجه هو نظره إلى أحد ضُباط النُخبة قائلًا له وهو يمد يده إليه بحاسوب لوحي صغير:

- ستجد هنا أيها الضابط كافة تفاصيل الدورية، العدد والتسليح وخط السير.

مد الضابط يده اليسرى مُلتقطًا الحاسوب بينما باليمنى أدى التحية العسكرية لصادق باحترام بينما تابع صادق بلهجة آمرة:

- ألقِ نظرة.

فتـح الضابـط الحاسـوب ونظـر فيـه وبـدت عليـه علامـات الدهشـة وإن تـدارك نفسـه سريعًـا وهـو يقـول:

- خـط السـير يـا سـيدي قريـب للغايـة مـن حـدود الأطـلال ثم..

غالب تردده ثم انفجر مرة واحدة قائلًا بسرعة:

- التسـليح يـا سـيدي، التسـليح إن سـمحت لي سـيكون مبالغًـا فيـه، قـواذف مضـادة للـدروع والأفـراد، مُتفجـرات، ذخـيرة بكميـة كبـيرة، أعتقـد بتلـك الطريقـة بـأن سـيكون نصيـب كل ضابـط سـلاحان أو ثلاثـة عـلى الأقـل، ضِـف عـلى هـذا أن المُدرعـة التـي سـنخرج بهـا والتـي تـوصي بهـا التعليمات لم تخـرج قـط في دوريـة منـذ تأسـيس هـذا المكان، إنهـا ليسـت مدرعـة عاديـة إنهـا تـكاد تكـون كالدبابـة مـن حيـث التدريـع والتسـليح ثـم..

أجـبره الانفعـال عـلى الصمـت فابتسـم صـادق وهـو يقـول لـه بهـدوء لم يخـلُ مـن الصرامـة:

- نحـن في حالـة حـرب أيهـا الضابـط، لقـد قُتـل القائـد السـابق في كمـين مُحكـم وبُثـت لنـا رسـائل التهديـد المُسـتمرة بالويـل والمـوت والثبـور إن خرجنـا خـارج تلـك الأسـوار.

ثم أدار بصره بينهم وهو يقول:

- لقد حملنا على عاتقنا عبء الدفاع عن هذا المكان لسنوات طويلة، ولن نتراجع الآن أبدًا.

ثم أعاد بصره إلى الضابط الذي كان يكلمه قائلًا له:

- لذلك فتسليح تلك الدورية وعدد عناصرها ووسيلة تنقلها كل ذلك سيكون مختلفًا عما قبله نظرًا للظروف التي نمر بها الآن.

ساد الصمت بعد كلماته الأخيرة بينما نظر الضابط إلى الحاسوب اللوحي بعدم اقتناع وهو يقول:

- كما تأمر يا حضرة القائد، بعد ساعتين من الآن ستخرج الدورية طبقًا لتعليماتك تمامًا بلا أي نقصان.

ثم أدى التحية العسكرية ليردها له صادق وهو يغادر المكان على عجل، كان من المفترض به الذهاب إلى مسكنه للراحة حتى موعد خروج الدورية، أو الذهاب إلى مقر الحراس، أو حتى القيام بتفتيش داخلي سريع على عناصر الحراسة والدفاع الداخلي، لكنه مرّ على كل تلك الأماكن دون أن يتوقف، واستمر سيره حتى وصل إلى مسكنه القديم، ولم تمضِ دقائق قليلة حتى كان صادق وسط غرفته القديمة، ليتجه إلى أحد الصناديق الخشبية الكبيرة الموضوعة بإهمال في أحد أركان الغرفة ويفتحه مُخرجًا منه جهاز اتصال صغير للغاية، أدار بكرته ثم قربه من فمه ضاغطًا أحد أزراره قائلًا:

- ريان، هل تسمعني؟!

لم يستقبل أي رد فعاد يقول:

- ريان لقد قرر حاكم المُستعمرة اغتيالك، وسيرسل لك فريقًا أمنيًّا مُدربًا تدريبًا عاليًا، وسيحاول هذا الفريق اصطيادك من وسط رجالك.

استمر الصمت فأخذ يكرر رسالته في صبر حتى سمع شوشرة إلكترونية تأتي من الناحية الأخرى ثم سمع ريان يقول:

- لقد مللت من هذيانك يا رجل!

ابتسم ريان وهو يقول:

- كيف حالك؟

رد ريان بسرعة:

- هل أصبحنا أصدقاء الآن يا حضرة القائد؟!

اتسعت ابتسامة صادق ورد:

- روح جيدة بالنسبة لرجل مقبل على الموت.

ظهر الانزعاج في صوت ريان وهو يقول:

- ما الذي يضمن لي أن تلك ليست لعبة تمارسها عليّ؟

بهدوء رد صادق:

- المرة الفائتة قُلت لك لا ضمانات لي أو لك، نحن الاثنان نخاطر بكل ما نملك، مُقامرة قد تخسر فيها كل شيء وقد

تربح فيها كل شيء لا شيء مضمون يا صديقي.

رد ريان سريعًا:

- مُقامرة.. نعم لذلك أنا قلق و..

قاطعه صادق قائلًا:

- حسنًا، حتى يطمئن قلبك، سأعطيك خط سير ذلك الفريق. ودع رجالك يتعاملون معه ولا تذهب أنت وعندها سترى إن كنت كاذبًا أم صادقًا.

مرت لحظات من الصمت حتى تحدث ريان:

- حسنًا إذا صدقت، وبالفعل هناك فريق يُجهز لاغتيالي ماذا سنفعل بعد أن تفشل تلك المحاولة؟!

- لن ننتظر الفعل ونكون رد الفعل بل سنكون نحن الفعل سنبادرهم بالهجوم، بالمناسبة لقد أصبحت أنا قائدًا لحراسة المستعمرة.

قهقه ريان بشكل هيستيري وهو يقول من بين ضحكاته:

- لقد بدأت خطتك تجني ثمارها بالنسبة إليك أيها الخبيث، أحسنت حقًّا أيها الوغد، أنت عاهر كبير.

غزت المرارة ملامح صادق وهو يقول:

- تلك هي البداية فقط يا ريان، صدقني إن اتبعتني سنصل إلى حكم القاهرة ومن بعدها مصر كلها سنكون

أفضل حكام لتلك البلاد صدقني.
اندهش صادق من نبرة الصدق في صوت ريان الذي قال.
- هذا ما أصبو إليه، جعل تلك البلاد أفضل مما كانت ومما أصبحت عليه الآن.
بصوت هادئ رد صادق:
- إذن اجعل رجالك يشتبكون مع تلك الدورية، ومُر رجالك باستخدام الأسلحة والمتفجرات ومدرعة القائد السابق التي اغتنمتموها في القتال الفائت واستخدم عددًا كثيرًا من الرجال وعندما ينتهي القتال لصالحك ستجد هدايا كثيرة سنستعملها في حربنا القادمة.
لم يرد ريان فعاد صادق يقول:
- سِر معي يا ريان وثق بي، المستعمرة لن تلعب لعبة كتلك كي تتخلص منك، ثق بي.
استمر صمت ريان لفترة طويلة ولم يشأ صادق مقاطعة صمته واستمر الصمت فترة طويلة للغاية حتى ظن صادق أن ريان ترك جهاز الاتصال مفتوحًا ومضى في طريقه، لكنه تحدث قائلًا:
- أنا أشعر بالملل، خوض التجربة لن يضر سأجرب.
انفرجت أسارير صادق وهو يقول:

- إذن سأرسـل لـك الإحداثيـات والتوقيتـات والموعد المناسـب للهجـوم وعليـك أنـت الباقي.

رد ريان بصوت مبتهج:

- سـتكون حفلـة كبـيرة للغايـة يـا صديقـي، للأسـف لـن تكـون حـاضرًا فيهـا.

****

بين أطلال مباني القاهرة القديمة، العاصمة البائدة لمصر تحرك رجال ريان وسط الأطلال بخفة حتى وصلوا إلى النقطة التي حددها لهم صادق، كان ريان مُلثمًا وسط رجاله ممسكًا بسلاحه الذي أخذه من سيارة أحمد سلام المدرعة، بينما كمنت السيارة نفسها وراء أحد جدران المنازل المُتهدمة ووجه مدفعها باتجاه نفس النقطة..

مر الوقت بطيئًا ثقيلًا على الرجال حتى ظهرت المُدرعة من بعيد فتكلم ريان بصوت عالٍ:

- استعدوا يا رجال سنطلق أسلحتنا عندما تدخل المدرعة في مرمى نيران مدرعتنا وليس قبل هذا.

جاوبه صمت مطبق من رجاله فرفع جهاز اتصال صغير إلى فمه وهو يقول لرجاله الذين في المدرعة:

- عندما يدخلون مرمى نيرانكم ابدؤوا بالضرب عليهم.

سمع صوت شوشرة إلكترونية ثم صوت أجش يقول:

- كما تأمر يا زعيم.

تقدمت مدرعة الحراس بسرعة متوسطة نسبيًّا حتى وصلت عند أطلال أحد المنازل وبدأ سائقها بالدوران استعدادًا للعودة، ثم دوي ذلك الانفجار.

انفجار عنيف كاد أن يقلب المدرعة من مكانها، لكن لوزنها الثقيل عادت مرة أخرى لتستقر على عجلاتها الأربع



وانفتح باب من أبواب الجحيم، مئات الرصاصات انهمرت على المدرعة من كل جانب، ومن الفتحات المُخصصة لإطلاق النيران حاول الحراس رد الهجوم العنيف عليهم لكنهم لم ينجحوا بهذا ولم تستمر المعركة سوى لدقائق قليلة للغاية، حيث قتل الحراس الثمانية وعدة رجال من رجال ريان الذين خرجوا من مكمنهم هم وقائدهم، ليدخلوا المدرعة ويبدؤوا في إخراج جثث الرجال الثمانية منها بإهمال شديد وقسوة غير مبررة، اقترب ريان ببطء من المدرعة مُتأملًا المذبحة التي ارتكبها هو ورجاله بفخر شديد مشوب بلمحة من الحزن.

بينما بدأ رجاله في إخراج الترسانة الصغيرة من الأسلحة الموجودة داخل المدرعة، قنابل وذخيرة وصواريخ موجهة مضادة للدروع، وأسلحة ارتجاجية تسبب فقدان الوعي لمن يتعرض لها، ابتسم ريان ثم أخرج جهاز الاتصال الأسود الصغير من بين طيات ملابسه ثم أدار بكرته وهو يقول:

- محق أنت هذه المرة أيضًا، لقد تم القضاء على الدورية واغتنمنا ما معهم، ترسانة أسلحة صغيرة لكنها تكفي بالتأكيد لصنع ثغرة صغيرة في أسوار المستعمرة.

أتاه صوت صادق:



- أحسـنت يـا ريـان، اسـتعد يـا صديقـي لحظتنـا تقـترب للغايـة.

رد ريان عليه وهو يدير عينيه في ما حوله:

- أشعر بها يا صادق أنا أشعر بها..

****

قطع صادق المسافة بين مكتبه ومقر قيادة المُستعمرة بخطوات سريعة راسمًا على وجهه أكبر قدر ممكن من العصبية والغضب والكراهية حتى وصل إلى مكتب هاشم محجوب واقتحمه بلا استئذان وهو يصيح فور رؤيته لهاشم القابع خلف مكتبه:

- لقد هوجمت الدورية وقُتل جميع عناصرها نحن نتعرض لحصار فعلي، ثمانية ضُباط من النخبة تم تصفيتهم، بتلك الطريقة نحن مسجونون هنا خلف أسوارنا ولن نستطيع الخروج لأي سبب..

هب هاشم محجوب من مقعده وقد شحب وجهه وامتقع حتى كاد يحاكي وجوه الموتى وهو يقول بصوت مُتحشرج:

- كيف حدث هذا؟!

بعصبية مُصطنعة صاح صادق:

- كمين، كمين مُحكم، لقد هجموا على تلك الدورية بأعداد تتجاوز المئة فرد ونجحوا في تصفية كل عناصرها، واستولوا على كل الأسلحة التي كانت معهم، لقد نفذوا تهديدهم حرفيًّا نحن محاصرون داخل أسوارنا وإذا أردنا الخروج لأي سبب فلن نتمكن من هذا.

رد هاشم والخوف يسيطر على صوته قائلًا:

- إذن كيف سنتصرف، وكيف عرفت أنت بما حدث؟

للحظات نظر له فيها صادق بغل ثم قال:

- آخر رسالة صوتية تم بثها إلينا أفادت بتعرضهم لهجوم عنيف من جماعة ريان.

حاول هاشم أن يتماسك وقال بينما يعاود الجلوس على مقعده:

- وبماذا تنصح في مثل هذا الموقف يا حضرة القائد؟!

فرد صادق قامته في اعتداد وهو يقول بصرامة:

- يجب أن ننظم حملة عسكرية واسعة ضد الأطلال أو سنظل محاصرين هنا، الحرب قادمة لا محالة في هذا.

تفرس هاشم مليًّا في ملامح صادق ثم قال بعد برهة من الصمت:

- لماذا أضحي برجالي أو بعتادي يا صادق؟

بهدوء رد صادق:

- إذن لا يوجد أمامنا سوى الآتي بالترتيب أولًا الاستسلام لهذا الحصار وعدم خروج أي دوريات لأي سبب خارج نطاق أسوار مُستعمرتنا تلك، وبذلك ستنقطع صلتنا واتصالاتنا بالعالم الخارجي تمامًا وسنترك لهم القاهرة بأكملها ليعيثوا بها فسادًا، أو أننا كلما قررنا الخروج لأي سبب فيجب أن يخرج عدد كبير من المقاتلين والآليات

حتى نتجنب المفاجآت غير السارة ذلك سيؤدي إلى حدوث فراغ أمني ويبقى احتمال وقوع خسائر بشرية أمرًا واردًا في كل مرة تخرج فيها حملة ما بدلًا من خروج دورية واحدة أو عدة دوريات لتغطية مساحة جغرافية أوسع..

صمت صادق للحظات ليسيطر على انفعالاته ثم قال بهدوء أشد وكأنه يشرح أمرًا دراسيًّا لتلميذ بليد:

- أو نخرج بكل قوتنا لاستئصال هذا الورم القذر الذي يؤرق مضجعنا، ووقتها سيمتد نفوذ المستعمرة إلى جميع أرجاء القاهرة ومن يدري ربما بعد عدة سنوات من الجهد والعمل الشاق والإصلاح سنضمن حكم مصر كلها ونكون الدولة الوحيدة التي نهضت بعد الحرب الكبرى وعادت إلى موضعها الطبيعي..

ساد الصت بينهما وغزا التردد ملامح هاشم وهو ينهض من خلف مكتبه عاقدًا كفيه خلف ظهره ثم قال بعد دقيقة كاملة من الصمت:

- هل تضمن لي انتصارًا كاملًا؟!

تفرس صادق في ملامحه جليًّا ثم قال:

- كاملًا ونظيفًا، سأنهي أمر ريان خلال يوم واحد وسيجثو أمامك راكعًا أو سيُلقى جثة هامدة.

هز هاشم رأسه وهو يقول:

- خطوة واحدة خاطئة وسيتدمر كل شيء.

بسرعة رد صادق:

- صدقني يا سيدي هذا هو الحل الوحيد المُتاح أمامنا، فقط أعطني الضوء الأخضر لبدء العمليات القتالية ودع الباقي لي.

سار هاشم بضع خطوات حول مكتبه ثم عاد ليجلس خلفه وبعد أن استقر مقامه قال بهدوء مُحاولًا أن يبدو مُتماسكًا أمام قائد حراسه:

- وهل تضمن لي انتهاء العمليات القتالية في أقرب وقت ممكن وبأقل الخسائر الممكنة؟!

دار صادق ببصره في أرجاء الغرفة حتى توقف عند أحد الأركان وبشرود قال:

- القاهرة كلها ستخضع لنا، لا تقلق يا سيدي.

زفر هاشم ثم تكلم بسرعة وكأنه يريد أن يفرغ من الأمر:

- جيد، معك الضوء الأخضر للقيام بعملية عسكرية ضد الأطلال، أنت المسؤول الأوحد ومعك كافة الصلاحيات وسأصدر نشرة بتلك القرارات حالًا.

ارتسمت ابتسامة على وجه صادق بينما يؤدي التحية العسكرية لهاشم وهو يقول له:

- لا تقلق يا سيدي لن أجعلك تندم على هذا القرار أبدًا.

لم يرد عليه هاشم وإن تجهم وجهه بشكل ملحوظ وظهر عدم الارتياح جليًّا على وجهه، بينما استدار صادق على عقبيه بحركة عسكرية سريعة ليغادر الغرفة تاركًا خلفه هاشم يحدق في الفراغ مُتذكرًا التفصيلة التي زادت على حلمه أو كابوسه أو رؤياه.

في البداية كان يستيقظ قبل أن يسقط في الهاوية المُشتعلة، أما بالأمس فقد رأى نفسه يحترق في تلك الحفرة، حتى إنه قد سمع صوت عظامه وهي تطقطق من أثر النيران عليها.

العجيب أنه قد شعر براحة عندما احترق..

زفر هاشم وقد ارتسم على ملامحه حزن حقيقي، فهو يرى نهايته أقرب إليه من حبل الوريد.

****



# ترتيبات الليلة الأخيرة
# (١)

داخل غُرفته وأمام ركن المرآة جلس صادق ينتحب بعنف، وحبات العرق تلتصق بجبهته تأبى السقوط على عكسه الذي لا يتمنى سوى السقوط فقط.

يعرف أن سقوطه قريب، وكان هذا أحد أسباب حزنه، فكرة أن عدم وجوده في المشهد هي الصحيحة يؤلمه ويؤرق مضجعه، لا فقدانه لصديقه أو عشيقته.

وجوده هو الشيء الخاطئ، لذلك سيحرص على محو هذا الخطأ.

هدأت حدة بكائه قليلًا، واعتدل في جلسته على الأرض، ثم التقط جهاز الاتصال الصغير مُقربًا إياه من فمه وهو يقول بصوت مُتحشرج من أثر البكاء:

- ريان، هل تسمعني؟!

مرت لحظات من الصمت طفق هو يردد نداءه بصبر حتى أتاه صوت ريان عبر الأثير يرد عليه قائلًا:

- أنا هُنا أيها القائد ما الجديد لديك؟!

زفر صادق ثم قال بهدوء حازم:

- اسمعني جيدًا يا صديقي، موعدنا اقترب لقد قرر هاشم محجوب ضربك بكل قوته العسكرية.

قال ريان بجزع:

- ماذا سنفعل الآن؟ تسليحنا ما زال قليلًا حتى ندخل في مواجهة مباشرة مع الحراس، وأنت كيف سمحت بهذا؟

حاول صادق أن يتماسك وهو يقول له مهدئًا إياه:

- لا تقلق، لدي خطة حتى نخرج جميعًا من هذا المأزق!

بسرعة ولهفة رد ريان:

- وكيف هذا؟!

بنفس السرعة رد صادق:

- أولًا ستجعل مواطنيك يلتزمون بيوتهم وخنادقهم، وستجعل رجالك يتحصنون على جانبي الطريق المؤدي إلى المُستعمرة، لكنك أنت ومجموعة من أكفأ رجالك ستكونون قريبين من الأسوار، وبمجرد خروج كل القوات من بوابة المستعمرة ستنتظر إشارتي وعندها ستضرب الجهة الغربية من السور بجميع أسلحتك حتى تصنع ثغرة تستطيع النفاذ منها أنت ورجالك إلى داخل المستعمرة، وسأنتظرك أنا ومن يواليني من الحراس ومعًا سنسيطر على المستعمرة.

مـرت لحظـات ثقيلـة مـن الصمـت حسـبها صـادق دهـرًا حتـى تحـدث ريـان أخـيرًا بهـدوء مُميـت قائـلًا:

- وقومـي، أأتركهـم لقمـة سـائغة لدروعكـم ورجالكـم، أتـرك القاهـرة لهـم، هـل سـأدافع عـن قومـي بغـزوي للمُسـتعمرة؟؟!

دون سـبب بـدأت الدمـوع تنسـاب في صمـت مـن عينـي صـادق وهـو يقـول:

- لا حـل أمامـك سـوى هـذا يـا صديقـي، وإذا اسـتطعنا السـيطرة عـلى المـكان هنـا بسرعـة، سـأتواصل مـع الحـراس حتـى يوقفـوا هجومهـم عـلى الأطـلال.

تهدج صوت ريان وهو يقول:

- كم سيموت من قومي برأيك في تلك المُقامرة؟!

قال صادق بعصبية شديدة وبصوت مرتفع:

- أنـت الـذي تخـاف عـلى حيـاة وحريـة قومـك، ألسـت أنـت الـذي قمـت بمبادلـة حيـاة بعـض مواطنيـك ببضـع قطـع مـن الأسـلحة والذخـيرة؟!

ثم تنبه إلى علو صوته فخفضه وهو يقول:

- هـل أصبحـت فجـأة تهتـم بحيـاة قومـك، أنـت الـذي كان عـلى أتـم الاسـتعداد لإزهـاق مئـات الأرواح بـلا ذرة واحـدة مـن الـتردد في سـبيل وصولـك إلى حكـم تلـك الخرابـات.

كان غضبه يعميه، وبعد أن اتضحت الأمور له توقع ثورة هائلة من ريان تطيح بمخططه كله لكن فاجأه هدوء ريان الذي قال:

- ربما كنت مخطئًا في ذلك، لكن لا تزال لدي فرصة لإصلاح كل تلك الأخطاء، أنا لن أشاركك في خطتك يا حضرة القائد، سأكتفي بما قدمته لي من خدمات، وستكتفي أنت بعدم قتلي لك عندما تقابلنا أول مرة وهكذا سنصبح متعادلين. صحيح؟!

شعر صادق بغصة في حلقه منعته من الحديث فعاد ريان يقول:

- إنها نهاية، نهاية لأشياء كثيرة ولأشخاص أكثر، أنا أعرف هذا وموقن به تمام اليقين، كل رجل منا له دور، وقريبًا سينتهي، حاول الاستمتاع بوقتك يا حضرة القائد أنا سأبقى هنا مع قومي لصد هذا الغزو، وإن نجحت أنت في منعه أو إيقافه سيكون هذا جيدًا لكلينا.

انسابت الدموع أكثر من عيني صادق ولم يرد، وبعد عدة لحظات انقطع الاتصال تمامًا ليحاول صادق إعادة الاتصال مرة أخرى بريان لكن بلا جدوى، فقد انقطع الاتصال بينهما للأبد.

****

لأول مـرة منـذ أن تـولى منصـب قائـد الحـراس خلـع صـادق درعــه الأســود الثقيــل الــذي يلــزم بارتدائــه طــوال ســاعات عملـه، واكتفـى بقميـص أسـود خفيـف مـع سروال طويـل مـن نفـس اللـون، وبـدل حـذاءه الكبـير الثقيـل بخُـف خفيـف.

كان جالسًــا في مكتبــه يذرعــه جيئــة وذهابًــا بــلا كلــل أو ملـل، حتـى سـمع طرقـات عـلى بابـه فـأذن للطـارق بالدخـول، ليدخـل عليـه أحـد الجنـود مؤديًـا التحيـة العسـكرية لـه وهـو يقـول:

- المواطنـون الذيـن أمـرت إحضارهـم موجـودون بالخـارج يـا سـيدي في انتظـار أوامـرك.

أشــار لــه صــادق بإهــمال أن يدخلــوا إلى مكتبــه، فــدار الحــارس عــلى عقبيــه بحركــة عســكرية سريعــة ولم تمــر ســوى لحظـات حتـى دخـل عليـه أربعـة مواطنـين مدنيـين.

تقـدم صـادق إليهـم راسـمًا عـلى وجهـه ابتسـامة واسـعة مـادًّا يـده إلى أولهـم وهـو يقـول لهـم مُرحبًـا:

- كيـف حالكـم أيهـا الأنـذال هكـذا لا تسـألون عـن صاحبكـم صـادق كل تلـك الفترة؟!

ابتسم الرجال الأربعة بارتباك وخوف، فهم لم يقابلوا أي قائد للحراسة من قبل ولم يتمنوا مثل تلك الأمنية أبدًا، فمقابلة الرجل الثاني في المُستعمرة أمر صعب لا يتاح لأي مواطن.

شعر صادق بخوفهم وارتباكهم فدعاهم للجلوس وهو يقول بعد أن اتخذ مجلسه وسطهم تمامًا:

- لقد اشتقت لأيامنا السابقة حقًّا، أنا افتقدها وأفتقد كل ما كان فيها.

ثم تلاشت ابتسامته وهو يقول بجدية:

- وهذا ما استدعيتكم بشأنه!

تجلى الخوف واضحًا لا شك فيه على وجوه الرجال الأربعة فقال أحدهم بخوف شديد:

- نحن في خدمة المستعمرة والحراسة يا حضرة القائد و..

قاطعه صادق بابتسامة كبيرة تلتهم ملامحه:

- حضرة قائد ماذا أيها العاهر، أنا صاحبك صادق نادِني باسمي لا توجد كُلفة بيننا نحن إخوة قبل أن نكون أصدقاء.

لم يبارح الخوف مكانه من ملامح الرجال الأربعة فعاد صادق يقول:

- أنتم تعرفونني جيدًا، لا أقبل بالظلم ولا أحبه وأنا أعرفكم جيدًا وأعرف ما تفكرون فيه وما تريدونه وأنا أريد أن أذكركم أنني منكم دائمًا وأبدًا، أنا لا أعمل لفرد، أنا أعمل لكيان.

تبادل الرجال الأربعة نظرات حائرة مرتبكة في ما بينهم وقال أحدهم:

- نحن نطمع في مزيد من التوضيح يا حضرة الـ.. صادق؟!

تحولت ابتسامة صادق إلى قهقهة عالية ثم قال بعد أن هدأت ضحكاته:

- حضرة الصادق، أهي رتبة جديدة أم ماذا؟!

لم يرد أحد فتابع:

- أنا أريد حدوث تغيير جذري بهذا المكان، الوضع أصبح مأساويًّا إلى درجة كبيرة، وأحوال المعيشة من سيئ إلى أسوأ.

تركزت عليه العيون باهتمام فاسترسل في الحديث:

- هاشم محجوب وحاشيته يأخذون كل شيء ولا يعطون أي شيء، إذا استمر الأمر على نفس المنوال فسنفقد المُستعمرة إلى الأبد، لذلك وجب علينا التحرك سريعًا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

بتردد سأله أحد الرجال:

- وماذا بيدنا لنفعله نحن يا سيدي؟!

حافظ صادق على ابتسامته الودودة وكلماته المعسولة وهو يقول:

- لا تقل لي يا سيدي فأنا لست سيدًا على أحد هذا أولًا، أما ثانيًا فنحن لدينا الكثير لنفعله أنا أعلم أن الرافضين للظلم كثيرون وأنتم منهم، طبعًا أنا عرفت هذا لأنني كنت وسطكم ذات يوم وتعرضت للظلم مثلكم أنتم أيضًا ولقد كنتم شهودًا على ذلك.

وافقه وأيده الحاضرون فعاد يستطرد:

- وأنتم تعلمون العديد من المواطنين الذين وقع عليهم ظلم بيِّن فإذا اتحدنا جميعنا سنستطيع مُجابهة هاشم محجوب.

صمت للحظات ثم عاد يقول:

- إنه حتى ليس مصريًّا خالصًا.

تبدل ارتباك الرجال الأربعة إلى حماس وقال أحدهم:

- أجل نستطيع الحصول على حقوقنا من أفواههم.

وقال رجل ثانٍ بلهجة خائفة:

- لكن الحراس يا سيدي سيقفون بجانب الحاكم كما كانوا دائمًا على الأقل الدفاع الداخلي سيقف بجانب هاشم محجوب وسيدافع عنه.

قال صادق بهدوء:

- الحراس كأي جهاز أمني في العالم به شرفاء يودون الخير والعدل وسيقاتلون في سبيلهما إن اقتضى الأمر.

انتظر حتى يرى وقع كلماته عليهم فعاد يقول:

- سنصنع ثورة على هاشم محجوب، لقد مللنا منه.

أصابتهم كلماته بصدمة فهب اثنان منهم واقفين يودان المغادرة فهب صادق بدوره ليمنعهما وهو يصيح بهما:

- ما لكم جبناء هكذا، تتحدثون عن العدل والمساواة والخير وإذا وجدتم فرصة لتغيير واقعكم تهربون منها وتندبون حظوظكم، ما تلك الوقاحة التي تتمتعون بها؟!

قال أحد الرجال:

- نحن لن نخون حاكمنا أبدًا كل ما نريده فرصة فقط لإبلاغه بطلباتنا.

دفع صادق الرجلين اللذين أرادا النهوض ثم قال:

- أرأيتم ماذا فعل هاشم بالمتظاهرين الذين كانوا يطالبون بحقوقهم فقط، جميعهم ملقى في حبس بارد مظلم لا يجدون ما يستر عوراتهم أو يسد جوعهم، لا سبيل للتحسين سوى التغيير.. التام.

رد أحد الرجال:

- ما المطلوب منا إذن؟!

بسرعة رد صادق:

- حمل السلاح.

صعقوا ورد الرجل:

- أتريد منا التمرد، أنسيت ماذا حدث في التمرد السابق؟

بثورة رد صادق:

- أنا من أنقذت المستعمرة من التمرد السابق، وحدي ليس هاشم محجوب أو أحمد سلام وحراسه، أو أي أحد فقط أنا.

خافوا من ثورته وانكمشوا على أنفسهم فتابع صادق:

- وجودي في أي جانب هو ما يحدد إذا كان سينتصر هذا الجانب أم لا!

حاول أحدهم أن يرد إلا أن صادق قاطعه قائلًا:

- ارفضوا طلبي وستموتون جميعًا أنتم وكل من تعرفونه وهذا كل ما لدي.

صدموا من كلامه فاستطرد:

- الآن كل ما عليكم فعله هو تجهيز قائمة بكل الأسماء التي يشاركنا أفرادها في فكرنا وبعد إتمام تلك القائمة اعرضوها عليّ حتى أقول لكم الخطوة التالية، هيا انصرفوا.

قاموا يتخبطون بعضهم في بعض من الخوف بينما بدأ صادق في ارتداء درعه الأسود ومع خروج آخر رجل منهم دخل أحد الجنود إلى صادق وهو يقول له بعد أن أدى التحية العسكرية بقوة:

- جميع الضباط الذين أمرت بتجميعهم، يتمركزون في النقطة السادسة بانتظار تشريفك لهم يا حضرة القائد.

انتهى صادق من إحكام إغلاق درعه وهو يقول للجندي:

- جيد ما فعلت، أما الآن بالنسبة لهؤلاء الرجال الأربعة الذين كانوا هنا، أود منك مراقبتهم على مدار اليوم وإذا اقتربوا من أي مبنى تابع لنا أو من مقر الحكم تفتح عليهم النيران مباشرة بلا إبطاء.

رد الجندي بآلية:

- كما تأمر يا سيدي.

أشار له صادق بالانصراف، وقبل أن يغادر صادق مكتبه توقف أمام مرآة كبيرة تأكد فيها من هندامه ثم لوح لصورته في المرآة مودعًا وغادر مكتبه.

****

جلس سالم مُتململًا في جلسته بينما وقف أمامه ريان فاردًا خريطة حديثة للقاهرة أمامه وحوله جمع من الرجال وريان يقول لهم:

- هناك طريقان مؤديان للقاهرة، حتمًا سيتم الهجوم عبرهما، الطريق الرئيس سنملؤه عبوات ناسفة وسيتم نشر مجموعتين من الرجال على جانبي الطريق لتعطيل تقدم تلك القوات، أما الطريق الآخر فسينتظر به أغلب رجالنا سنضع مجموعة في وسط الطريق لمناوشتهم ومحاولة إيقاع أكبر قدر ممكن من الخسائر بهم ومن ثم تنسحب هذه المجموعة ونتركهم حتى يدخلوا إلى الأطلال عندها نقوم نحن بهجومنا المضاد.

استحسن الرجال فكرته فعاد يقول:

- أخرجوا كل قطع السلاح من المخازن وسلحوا كل من يستطيع حمل سلاح، سيقاتل الجميع هذه المرة، هذه المرة هي الوقفة الأخيرة لنا حتى إن هزمنا فسيباد الحراس هنا في أطلال القاهرة القديمة.

أقرن قوله الأخير بأن ضرب سطح الطاولة بقبضته ثم طبق الخريطة الورقية بعنف وألقاها أرضًا ثم قال بهياج شديد:

- هيا اذهبوا لا وقت لدينا.

هـرع الرجـال مـن حولـه لتنفيـذ أوامـره بينـما اتجـه هـو إلى سـالم الـذي حـاول النهـوض لكـن ريـان منعـه وهـو يقـول بهـدوء:

- اسـترح يـا صديقـي فأنـت مـا زلـت مُتعبًـا بسـبب إصاباتك التـي حدثـت لك.

كانـت الضُـمادات تحيـط بـرأس سـالم وبذراعيـه، قـال لـه ريـان:

- سيهاجموننا، لكننا لن نكون لقمة سائغة لهم.

قال سالم:

- تسـتطيع حـل كل تلـك المشـاكل دون قتـال أو إراقـة دماء يـا ريـان، احقـن الدمـاء التـي ستسـيل، إنهـا حـرب لا طائـل منهـا صدقنـي.

هز ريان رأسه يمينًا ويسارًا وهو يقول:

- لا يـا صديقـي، لـن نخـاف منهـم بعـد الآن، لـن نهابهـم ولـن نستسـلم لهـم، سـنقاوم حتـى لـو كان هـذا آخـر مـا سـنفعله في حياتنـا.

اكتست ملامح سالم باليأس وهو يقول.

- لا أحد سينتصر يا ريان.

فرد ريان قامته باعتداد وهو يقول:

- أعلـم هـذا يـا صديقـي، أنـا أعلمـه، لذلـك أنـا مصمـم

علـى القتـال سـتنتهي كل أسـاطير مـصر دفعـة واحـدة، الحراسـة والأطـلال والمسـتعمرة، كل شيء سـينهار وسـيتاح لمـن بعدنـا البنـاء بهـدوء وبعقـل.

اغرورقـت عينـا سـالم بالدمـوع فأمسـك ريـان برأسـه بـين كفيـه وهـو يقـول لـه:

- لا تبكِ، هذا قدرنا لا تدفعه عنك، استسلم له.

ثـم انحـدرت مـن عينيـه دمعـة سـاخنة مسـحها سريعًـا وهـو يغمغـم:

- أسـير نحـو هاويـة لا أملـك سـبيلًا للتوقـف قبـل بلوغهـا، سأسـقط فيهـا كـما سيسـقط فيهـا الكثـيرون، لا أحـد سيسـتطيع إنقـاذي.

بلهفة وتضرع قال سالم:

- أنـت تسـتطيع أن تنقـذ نفسـك يـا ريـان، أنقـذ نفسـك وأنقـذ مـن حولـك.

أطـرق ريـان برأسـه أرضًـا وبعـد لحظـات مـن الصمـت ومـن بـين دموعـه قـال:

- سـبق السـيف العـذل يـا صديقـي، سـبق السـيف العـذل، اسـتعد كي تأخـذ مكانـك إلى جـواري في ميـدان المعركـة.

****

وقف صادق أمام ثلاثة من كبار ضباط الحرس، عند وصوله إليهم في البداية كان الثلاثة يتجادلون بصوت مُنخفض حول موضوع ما توقفوا عن تناوله فور رؤيتهم لقائدهم.

افتتح صادق الحوار قائلًا:

- قبل أن نكون أصدقاء، فقد خدمنا سويًّا علم مصر من قبل وحاربنا لأجله عندما كنا في الجيش سويًّا، وبعد الحرب الكبرى كنت زميلكم هنا في الحراسة ثم قائدكم لفترة وجيزة وهأنذا مرة أخرى أعود لأخدم معكم وأتشرف بقيادتكم..

أثنوا ثلاثتهم عليه فعاد يقول:

- لذلك وعندما توليت القيادة مرة أخرى لم أجد إلا أنتم، رجالًا أثق بهم وأطمئن عندما أوليهم المناصب القيادية الهامة في مُستعمرتنا.

تحدث أحدهم:

- خدمتنا تحت قيادتك شرف لنا يا حضرة القائد وثقتك بنا تسعدنا وتفرح قلوبنا.

أيده الضابطان الآخران فرد صادق وابتسامته تتسع:

- ولهذا فأنا أود مُحادثتكم في أمر هام ومصيري.

تلاشت ابتسامته واختفت نبرة الود في صوته لتتحول إلى جدية صامتة وهو يقول:

- صراحة، أنا لا يعجبني الوضع الحالي في المستعمرة.

لم تؤثر فيهم كلماته واحتفظ كل منهم بملامح وجهه كما هي وكأنهم لم يسمعوا شيئًا، ضايقه هذا فقرر استفزازهم أكثر قائلًا:

- هاشم محجوب رجل متردد، خائف، يحسب نفسه إلهًا، ولكنني أشك أن هناك إلهًا بهذا الطول.

ابتسموا ثم تلاشت ابتسامتهم سريعًا بينما استمر صادق في الحديث قائلًا:

- إنه يقودنا نحو الهاوية بلا تردد، ينفرد بالقرار هو وصديقه مدير الإدارة العلمية، ليصبح هو والعلماء هم المتحكمون فعليًّا في كل شيء، ونحن نموت في سبيل بقائهم في المقام الأول.

ردد أحد الضباط بآلية شديدة:

- هذا واجبنا وهذا ما تدربنا على فعله.

رد عليه صادق:

- واجبنا هو حماية هذا المكان، وهاشم يهدد هذا المكان بطريقة إدارته له، يجب أن نضع حدًّا لهذا.

تكلم أحد الضباط وهو يقول:

- أتريد منا التمرد يا حضرة القائد.

التفت له صادق ونظر في عينيه بهدوء شديد وهو يسأله:

- ذكرني بمنصبك الحالي أيها الضابط.

رد عليه الرجل:

- أنا قائد الدفاع الداخلي يا حضرة القائد.

قال صادق:

- أنت تعرف أنني من اخترتك لمنصبك هذا بالتأكيد.

- أعرف هذا يا سيدي.

اعتدل صادق في وقفته موجهًا حديثه لثلاثتهم قائلًا:

- أنتم رجال، شجعان وأوفياء، ولاؤكم لا شك فيه، لكن ولاءكم لمن؟ هل الولاء لشخص، أم لكيان، أم لمكان أم لسلاح أم لصديق؟ هناك حرب قادمة، حاولت فعل المستحيل كي أتجنب وقوع هذه الحرب لكن لا فائدة، هاشم محجوب يسير نحو تلك الحرب وهو يسحبنا خلفه كقطيع من الخراف، إنه ينعم بكل شيء في هذا المكان، أفضل طعام، أفضل شراب هناك من يسهر على راحته، كل هذا وهو مجرد مدني لا يفقه في علوم الحرب شيئًا، ويا ليته مصري خالص.

تبادل الضباط الثلاثة نظرات قلقة بينما تابع صادق:

- نحن نُعامل كمجرد مرتزقة لحفظ الأمن فقط، بينما نحن الأجدر بحكم هذا المكان، بل نحن الأجدر بحكم القاهرة كلها.

كان للكلام وقع ثقيل على الرجال الثلاثة لكنهم تمالكوا رباطة جأشهم وقال أحدهم:

- أتفق معك يا حضرة القائد لكن ألست ترى أن التمرد في هذا الوقت بالذات سيكون كارثة على الكل وسيقع مئات الضحايا.

بسرعة رد صادق:

- إن لم يتم هذا التمرد الآن في هذا التوقيت سيقع مئات الضحايا، ما سنفعله هو ما سيمنع سقوط الضحايا.

خيم الصمت عليهم لدقيقتين حتى قطع أحد الضباط الثلاثة حبل الصمت قائلًا:

- وماذا إن أنهينا مقابلتنا معك الآن وذهبنا إلى هاشم محجوب وأخبرناه بما دار بيننا الآن ماذا سيكون موقفك؟!

فرد صادق ذراعيه على امتدادهما وهو يقول مُبتسمًا:

- لا شيء، سيقتلني، ثم سيقتلكم، ويقتل كل من له علاقة بي، ولن يحتاج إلى تبرير، سيقول إننا سقطنا أثناء قتالنا ضد ريان وجماعته وتنتهي قصتنا للأبد، وهذا ما أود حصوله فعلًا حتى ينزاح هذا الهم عن عاتقي.

عاد الصمت ليخيم عليهم مرة أخرى ولم يتكلم أحد حتى تحدث صادق بلهجة رجاء قائلًا:

- اسمعوا ما لديّ فقط، لن نخسر شيئًا لقد خططت جيدًا للأمر، لن تخرج الأمور عن سيطرتنا أبدًا.

التفت حوله سريعًا ثم استأنف حديثه بصوت أكثر انخفاضًا قائلًا:

- أولًا ستقومون بجمع أكبر عدد من رجالكم الذين تثقون بهم، سيكون هناك مخزن أسلحة بالكامل تحت تصرفنا، لأن قائده ولاءه لي، ستسلحون رجالكم من هذا المخزن بينما سيقوم أحد رجالي من الطيارين بتأمين المُستعمرة بالكامل من الجو، عدد الجنود الذين سيقاوموننا لن يتعدى العشرين رجلًا لأن أغلب الحراس وقتها سيكونون مشغولين بالقتال وسط الأطلال.

خيم صمت ثقيل عليهم، ثقيل لدرجة أنه جعل الهواء الذي يتنفسونه ثقيلًا على صدورهم، حتى صادق نفسه سرت في جسده رعدة خفيفة جراء ما قاله، شعر للحظات برغبة عارمة بسحب كل ما قاله والانسحاب من أمامهم ثم الهروب خارج المُستعمرة إلى الأبد.

قال أحد الضباط الثلاثة بصوت مختنق:

- وماذا عن المدنيين؟!

نظـر لـه صـادق ثـم أشـاح بوجهـه بعيـدًا وهـو يقـول بلهجـة هادئـة:

- سـيكونون في مسـاكنهم، سـتحدث الأمـور كلهـا بسرعـة لـن يـدرك أحـد مـاذا حـدث، سـينامون وهـم تحـت قيـادة مجموعـة وسيسـتيقظون وهـم تحـت قيـادة آخريـن.

رد أحد الضباط سريعًا:

- طالما مللـت مـن هـذه الحيـاة المُصطنعـة، لأحـاول تغييرها أو أمـوت وأنـا أحـاول، أنـا معـك يـا حـضرة القائد.

ردد الضباط الآخرون:

- ونحن معك أيضًا يا حضرة القائد.

شـعر صـادق بحملـه يـزداد ثقـلًا عـلى كتفيـه وهـو يقـول وقـد أدرك أنـه لم يعـد هنـاك مجـال للتراجـع:

- جيـد، بعـد سـاعتين مـن الآن، سـيصلكم عـلى حواسـيبكم اللوحيـة الـتردد الـذي سنسـتخدمه للتواصـل في مـا بيننـا وعـن طريقـه سـأخبركم بسـاعة الصفـر.

أومـأ الثلاثـة برؤوسـهم وهـم ينظـرون بعضهـم إلى بعـض فعـاد صـادق يقـول:

- الآن لا مجال للتراجع، من يريد الانسحاب الآن فليقل.

جاوبـه صمـت مطبـق فصافـح ثلاثتهـم دون أن ينبـس ببنـت شـفة ودار عـلى عقبيـه سريعًـا مُغـادرًا نقطـة التجمع..

****

«ستتقدم قوة الهجوم الرئيس عبر الطريق الأول، بينما سيتقدم فريق من ضباط النخبة مع ست مدرعات عبر الطريق الآخر وستتقابل القوتان في منتصف الأطلال تمامًا بعد التخلص من كل جيوب المقاومة».

أنهى صادق عبارته وسط نظرات لفيف من قادة وضباط الحرس أجبرته على معاودة النظر خلفه حيث تقع الخريطة الإلكترونية للقاهرة بأكملها.

عاد يلتفت مرة أخرى إلى جنوده وهو يقول لهم:

- بالطبع ستقابلون عدة كمائن على جانبي الطرقات، يجب أن تظل أجنحة قواتنا على أهبة الاستعداد دائمًا، سيخرج من المستعمرة مئة وثلاثون مقاتلًا، وسيبقى خمسون مقاتلًا لحفظ الأمن وحماية السور، ستنطلق العمليات بعد ساعة من الآن هل من أسئلة.

جاوبه صمت مطبق فطالع في الوجوه التي أمامه للحظات ثم قال:

- حسنًا، على بركة الله يا رجال، أعدوا أنفسكم، بعد ساعة من الآن ستخرج طلائع قواتنا.

اعتدل الرجال في وقفتهم وهم يؤدون التحية العسكرية لقائدهم الذي ردها لهم ثم غادر قاعة الاجتماعات أولًا، ثم خرج بعده العديد من القادة ولحق به أولًا قائد الدفاع

الداخلي وبمجرد وصوله عنده مال عليه وهمس في أذنه ببضع كلمات، فأومأ صادق برأسه ثم توقف ليلقي بعض التعليمات على رجاله، ثم سار باتجاه مكتبه وبجواره قائد الدفاع الداخلي الذي قال له بعد أن تأكد من عدم وجود أي مخلوق حوله:

- لدينا خمسة وثلاثون رجلًا يا سيدي سيكونون تحت تصرفنا في أي وقت.

تلفت صادق حوله وهو يقول:

- بمجرد خروج قوات الحملة، ستقوم أنت بتقسيم رجالك إلى مجموعات ستقوم بالسيطرة على مقر الحراس أولًا، بعده ستسيطر على مبنى الجهاز الرقابي وقم بغلق كافة مخازن الأسلحة والذخيرة ما عدا المخزن رقم سبعة - ألف فهو المخزن الذي سنتسلح منه كذلك يجب أن تقوم بتعطيل كافة السيارات والمدرعات وقم بتوزيع حماية على مرابضها.

كان الرجل ينصت له باهتمام شديد وبعد أن انتهى من كلامه قال له:

- وهاشم محجوب يا حضرة القائد ماذا سنفعل معه؟!

رد صادق بسرعة وهو يلتفت حوله:

- سأذهب إليه برفقة ثلاثة من الضباط وسنحتجزه في مكتبه حتى تمام سيطرتنا على مقاليد الأمور.

بقلق رد الرجل:

- هل نتوقع مقاومة عنيفة؟!

بسرعة رد صادق وهو يسير ببطء:

- مُقاومة نعم، عنف لا أعتقد ذلك، لا تعدادهم ولا عتادهم يسمح لهم بذلك، ولا تقلق من الضباط والجنود العائدين من القتال، ففي النهاية سيجدون قادتهم وضباطهم هم المُسيطرون، وعائلاتهم وأصدقائهم بخير، والآن اذهب حتى تشرف بنفسك على التجهيزات الأخيرة.

توقف الرجل ثم أدى التحية العسكرية لقائده وسار مُبتعدًا عنه بينما توجه صادق إلى غرفته، وصل إليها ثم فتح بابها دالفًا إليها مُغلقًا الباب وراءه.

وقف صادق على عتبتها للحظات ثم توجه إلى كرسي خشبي صغير موضوع أمام أحد أركان الغرفة وبجواره طاولة صغيرة، جلس على الكرسي ثم تناول لفافة تبغ، أشعلها وأمسك بجهاز الاتصال أدار مؤشره وقربه من فمه ثم قال:

- المُستعمرة ستكون تحت سيطرتي اليوم يا ريان، الحملة ضدك ستخرج بعد ساعات، بالمناسبة قد لا نتكلم

مرة أخرى أبدًا، كنت أريد أن أقول لك شيئًا أنت لست سيئًا، كذلك أنا ووالدك الراحل، ستتعجب إن قلت لك إن هاشم محجوب نفسه ليس سيئًا، لكن طريقتنا هي الخطأ نحن أخطاء مُتحركة تسير على قدمين، قد أموت اليوم، وأنت كذلك، قد نعيش لنصلح أخطاءنا، أو نتممها، لا أعلم حقًّا.

انسابت من عينيه دمعة ساخنة فصمت للحظات وهو يشعر بملوحة دموعه في فمه ثم قال:

- إنها النهاية يا صديقي، أتعشم أن لا تكون حزينة كحيواتنا جميعًا، حُلم بعيد المنال أليس كذلك؟!

جعل جهاز الاتصال على وضع الاستقبال ثم أخذ نفسًا عميقًا من لفافته ونظر إلى الحائط من أمامه ولم تمر سوى لحظات قليلة حتى سمع صوت ريان يأتي حزينًا:

- النهاية لن تعجبك يا صديقي أبدًا رغم أنك تتمناها من البداية مثلي تمامًا، لن تعجبني ولن تعجبك، نهايتي ستخلد في تاريخنا الجديد، نهايتك أنت لن يتذكرها أحد رغم أنها النهاية الوحيدة المؤثرة في اللعبة، لكنها ستموت.. مثلك.

ازداد انهمار الدموع من عيني صادق، وبدأ في الانتحاب بينما عاد ريان يقول:

- ستنتهي حكاية ثلاثتنا خلال ساعات، ثلاثة رجال كانوا يريدون الخير بزرع الشر، حقيقة تائهة كأرواحنا المُظلمة، فلنأمل أن تكون نهايتنا شفيعة لنا.

أمسك صادق بجهاز الاتصال بقوة بين يديه حتى كاد أن يحطمه وهو يهمس بجنون:

- قصتي لن تنتهي اليوم يا ريان بل ستبدأ، كل شيء سيتغير وأنا من سيصنع هذا التغيير، لا أبحث عن خلود، أنا أبحث عن الصواب وأنا الآن على أول طريقه ولن أبارحه قط.

قهقه ريان وهو يقول:

- مُخطئ إن ظننت هذا يا حضرة القائد، أنت تعلم هذا لكنك لا تريد الاعتراف، لكن سِر في طريقك للنهاية ولترى ماذا يوجد فيه.

صمت صادق بعد عبارة ريان ومرت عدة دقائق من الصمت المطبق، وبعدها قرب صادق جهاز الاتصال من فمه وهو يقول:

- قد لا نتمكن من الحديث مرة أخرى، لكن إن قدر لنا الحديث أو اللقاء مرة أخرى فسيكون حديثنا طويلًا للغاية.

لم يرد عليه ريان، وانتظر صادق طويلًا ردًا لن يأتي أبدًا.

****

وقف صادق في ساحة الانتظار الكبيرة المؤدية إلى بوابة المُستعمرة وهو يراقب خروج عشرات المُقاتلين والآليات العسكرية عبرها في طريقهم إلى الأطلال.

ووقف بجواره هاشم محجوب والقلق يعتصر ملامحه، وعلى بعد عدة أمتار وقف قائد الدفاع الداخلي وبجواره عدد قليل من الضُباط.

مال هاشم على صادق وهو يسأله:

- هل سننجح في مسعانا يا صادق؟

نظر صادق إلى قواته المغادرة ثم التفت إليه وهو يقول بهدوء:

- بالطبع سننجح، لا تقلق يا سيدي.

لم تنجح عبارته في قتل قلق هاشم محجوب الذي قال:

- أتمنى هذا، أتمنى هذا حقًّا يا صادق.

ثم دار عقبيه واندهش صادق عندما رأى ستة ضباط من النخبة ينفصلون عن طابورهم ويسيرون خلف هاشم محجوب، لم يعقب صادق وإن لم يغادر الموقف ناظريه ولم ينتبه إلى اقتراب قائد الدفاع الداخلي منه لكنه انتبه له عندما قال:

- إنهم الحرس الخاص بهاشم محجوب.

صعق صادق وقال:

- كيف ولماذا ومتى حدث هذ؟!

ثم التفت إليه وقال بصوت غاضب:

- ولِم لَم تُخبرني يا حضرة القائد؟!

حاول الرجل أن يدافع عن نفسه فقال:

- لم أعرف إلا منذ دقائق فقط يا سيدي، ولم أملك الوقت الكافي لإخبارك.

- لا عليك، لقد حدث ما حدث وانتهى الأمر.

بقلق سأله الرجل بصوت هامس:

- هل شك هاشم في شيء يا سيدي؟!

تسلل القلق إلى صوت صادق وهو يقول:

- هذا مُستعبد، لكن إن وصل الأمر للقتال فسنقاتل، كل شيء على المحك هنا، لن نفشل أبدًا.

سأله:

- هل ستزيد عدد الضباط الذاهبين معك إليه؟!

- بالطبع لا، ثلاثة فقط أنا رابعهم، لقد مررت بمواقف أكثر صعوبة من هذا الموقف، لا تقلق، شركة أمريكان جينوم ستبيت ليلتها في أحضاننا السوداء.

مع آخر حروف عبارته خرج آخر مقاتل من الحراس خارج أسوار المُستعمرة وسمع الجميع صوت هدير محركات البوابة العملاقة وهي تُغلق خلف القوات المُغادرة.



ووسط ساحة الانتظار تقلص عدد الحراس إلى ما يقل عن خمسين حارسًا فقط.

أشار صادق إلى ثلاثة ضباط كانوا يقفون بالقرب منه ونظر ناحية مقر قيادة المُستعمرة حيث يقبع مكتب هاشم محجوب وبدأ في السير..

****

«خمسة دقائق وستدخل أول مُدرعة إلى الطريق الأول، جميع الرجال في أماكنهم وينتظرون إشارتك يا زعيم».

وصلت تلك الرسالة اللاسلكية إلى جهاز ريان الذي استقبلها بقلب خائف وجسد مرتجف، بصعوبة رفع جهازه إلى فمه وقال بصوت حاول أن يبث فيه أكبر قدر ممكن من القوة والتماسك:

- لا تشتبكوا إلا بأوامري فقط.

أغلق الجهاز ثم استدار إلى سالم الراقد بجواره خلف بقايا جدار متهدم وهو يقول:

- أشعر بأطرافي تكاد تسقط من شدة الخوف يا سالم.

لم ينظر له سالم وهو يقول له:

- أنت من أوصلتنا إلى هذا الطريق يا ريان.

شعر ريان بغضب عنيف يجتاح كيانه وجسده فأشاح بنظره سريعًا عنه وهو يقول له:

- أنا لم أوصل أحدًا إلى أي مكان يا سالم.

بنبرة سخرية سأله سالم:

- حقًّا فعلت؟

لم يرد عليه سالم فاستشاط ريان غضبًا غطى على خوفه، لكن الخوف لم ينسحب من جسده سوى للحظات قليلة فعلى مرمى بصره ظهرت طلائع قوات الحراس، لتتشنج أصابعه القابضة على

سلاحه من الخوف فأمسك جهاز الاتصال الخاص به وهو يصيح:

- الآن، اضربوا الآن لا تدعوهم يمرون منكم.

ثم التفت إلى سالم وهو يقول له:

- سالم خُذ مجموعة من الرجال وقُم بدعم الكمائن لا تدعوهم يمرون منكم مهما حدث.

نهض سالم فورًا من رقدته وهو يركض لينفذ أوامر قائده، بينما بدأ إطلاق الرصاص وأجفل ريان عندما سمع صوت الرصاص لكنه تمالك نفسه وحافظ على رباطة جأشه ورفع سلاحه مُطلقًا منه وابلًا من الرصاصات وهو يتخذ ساترًا آخر مواجهًا لقوات الأطلال المُتقدمة نحوه.

حمي وطيس القتال بينما يحاول رجاله بكمائنهم منع عبور مدرعات الحراس من العبور إلى داخل الأطلال لكن بلا فائدة حيث تم تجاوز كمين وتدمير آخر، وبدأت طلائع قوات الحراس بالدخول إلى أطلال القاهرة.

****

صعد صادق درجات السلم المؤدي إلى الطابق الثاني لمقر قيادة المُستعمرة وخلفه سار الضباط الثلاثة من وحدة النُخبة..

استوقفهم ضابطان من الست ضباط الذين قد عينهم هاشم محجوب حراسة شخصية له، كان المبنى خاليًا تمامًا بلا موظفين أو حراسة داخلية أو خارجية، لم يكن به سوى هاشم وحراسته وصادق وضباطه الثلاثة.. نظر صادق إلى ضابط النخبة الذي استوقفه باستنكار وهو يقول بغلظة:

- أنا حضرة قائد الحراس كيف تستوقفني وتمنعني من دخول مبنى القيادة من أنت؟!

رد عليه الضابط بشراسة:

- لقد أمرني السيد هاشم بعدم السماح بالوصول إليه من أي أحد مهما كان حتى يأمر هو بعكس ذلك، أنا أنفذ الأوامر أيها القائد.

انعكست شراسة الضابط على صادق الذي قال بنفس الطريقة:

- أنا فقط من أعطي الأوامر أنا قائدك الأعلى وليس هو.

رفع ضابطا النخبة سلاحيهما في وجه صادق ورفاقه الذين رفعوا أسلحتهم بدورهم بينما يقف صادق وسطهم

وأصابعه تداعب مقبض مسدسه وهو يقول بصوت صبغه بأكبر قدر ممكن من الهدوء:

- أيها الضباط، لا يصح ما تفعلونه، نحن في نفس الجبهة و..

تناهى إلى مسامعهم صوت إطلاق رصاص كثيف وللحظة ابتعدت أنظار ضابطي النخبة عن صادق ومن معه فاستغل هذا الأمر فسحب مسدسه من غمده بسرعة وأطلقه في وجه الضابط الذي استوقفه مُحيلًا وجهه إلى خراب، تمالك الضابط الثاني رباطة جأشه سريعًا وأمسك بجثة زميله كدرع أمامه وأطلق رشقات من سلاحه باتجاه صادق الذي مرقت رصاصة بجوار رأسه وأخرى مرقت من كتفه لتطيح به أرضًا ثم أسقطت أقرب ضُباطه صريعًا مُضرجًا في دمائه ليقوم واحد من مرافقي صادق بإطلاق النيران على رأسه الظاهر من خلف جثة زميله، ليسقط الاثنان أرضًا.

نهض صادق ببطء وهو يضع يده على جرح كتفه وتفقد الضابط الذي سقط صريعًا بنظرة حزينة، حاول أحد ضباطه التقدم إليه ليفحصه فأوقفه صادق وهو يقول له:

- لا وقت لدينا، لقد سمعوا بالتأكيد صوت إطلاق النار وسيستعدون لمجيئنا.

التقط سلاح ضابطه الصريع من على الأرض، بعد أن أدخل مسدسه إلى غمده وسار حيث المصعد وتبعه الضابطان وهما يتلفتان حولهما بحذر شديد، ضغط زر المصعد الذي أبى أن يستجيب له، فزفر بحرارة وهو يقول:

- سنضطر لاستخدام الدَّرج، كونوا حذرين.

تقدم صادق رجاله رغم جرحه الذي ينزف بغزارة شديدة وبدأ في صعود درجات السلم، وأثناء صعوده أتاه صوت قائد الدفاع الداخلي:

- نحن نواجه مُقاومة شرسة هنا، لكن أعدادنا ستحسم الأمور، سيطرنا تمامًا على مقر الجهاز الرقابي ومبنى الحراسة ومرابض الدبابات والمدرعات والطائرة تؤمن الآن أجواءنا وستشارك في القتال فور سماح الفرصة لذلك. انتهى التقرير رقم واحد.

تجاهل صادق عبارات التهنئة من رجاله وهو يرفع جهاز الاتصال إلى فمه ويقول:

- أبليتم حسنًا يا رجال، قريبًا سيكون هاشم محجوب بين أيدينا.

كان قـد وصـل هـو ورجـلاه إلى الطابـق الثـاني وفـور وصولهم تناهـى إلى مسـامعه صـوت ارتطـام شيء معـدني بـالأرض ثـم تدحرجـه لمسـافة قصـيرة، عـلى الفـور دفـع صـادق رجليـه وهـو يـصرخ بـكل قوتـه:

- احتموا بسرعة.

ثـم دوى انفجـار عنيـف أطـاح بـه وبرجالـه عـدة أمتـار إلى الخلـف، ووسـط عاصفـة هوجـاء مـن الـتراب والغبـار سـمع صـادق صـوت تأوهـات عنيفـة، وشـعر بـأن كل عظـام جسـده قـد تفتـت إلى ذرات، وسـمع مـن بعيـد صوتًـا يقـول:

- استسلموا وألقوا أسلحتكم فورًا.

حـاول النهـوض ولكـن الدنيـا مـادت بـه، وأظلـم كل شيء مـن حولـه.

****



لم يـدرِ ريـان مـاذا حـدث لـه، كل مـا يتذكـره هـي.. تلـك القذيفـة التـي انطلقـت مـن إحـدى مدرعـات الحـراس فهـب مـن مكمنـه بسرعـة لم يتخيـل قـط أنـه يمتلكهـا.

حتـى اتخـذ لنفسـه مكمنًـا خلـف واحـد مـن الحوائـط الكثـيرة المُتهدمـة حولـه في كل مـكان وبـدأ في تبـادل الرصـاص مـع جنـود المُسـتعمرة الذيـن بـدوا وكأنـك كلـما تُسـقط منهـم واحـدًا حتـى يظهـر مكانـه عـشرة آخريـن.

لم تؤلمـه جراحـه الكثـيرة التـي أثخـن جسـده بهـا، وملابسـه التـي تغـير لونهـا إلى الأحمـر القـاني، وهـو يتنقـل مـن مكمـن إلى الآخـر مُطلقًـا الرصـاص عـلى الغـزاة الذيـن يـودون إبـادة قومـه!

الرصـاص يتطايـر حولـه في كل مـكان وهـو غـير عابـئ بـه، إن كان سـيموت فليمـت كالأبطـال، لا يهـم لمـن سـتذكر موتتـه مـن بعـده، لكـن لتُذكـر.

****

سمع هاشم محجوب صوت الرصاصات وهي تأتي من الطابق الأول لمقره، وعلم أنه المقصود..

كان جالسًا على أريكة كبيرة في جانب مكتبه وأمامه عشرات الشاشات السوداء التي من المفترض أن يتابع عبرها سير الأعمال في المُستعمرة. فكر في أن يمسك بجهاز التحكم عن بعد ويشغل شاشة ما لتنقل له عبر كاميرات الأمن المُنتشرة في أرجاء مقره مصدر تلك الرصاصات، لكنه تراجع عن تلك الفكرة، لن يخاف ولن يجزع وسيواجه مصيره كالشجعان الذين تحكى عنهم الأساطير القديمة، كملوك المصريين القدامى، وقياصرة الإغريق العظماء، وحكام إسبرطة الذين لا يقهرون أبدًا.

نهض وهو يخلع معطف بذته الأنيقة كذلك ربطة عنقه وتوجه ناحية مكتبه في خيلاء، وجلس على مقعده بهدوء شديد، وقد هدأت أصوات الرصاصات الصادرة من مبناه، بينما قد بدأت أصوات الرصاص تأتي من كل أرجاء المُستعمرة..

لم يجفل أو يطرف له جفن، أرجع رأسه إلى الخلف وأسبل جفنيه وهو يبتسم.

****

طنين عنيف يجتاح رأسه، رؤيته مشوشة وذهنه غائب تمامًا، جروحه ازدادت ونزيفه أصاب عقله بدوار لا يحتمل.

بكل قواه رفع رأسه عن الأرض وألقى نظرة سريعة على المشهد، كان أحد الضباط المتبقيين معه يقاتل وحده باستماتة ثلاثة من ضباط النخبة مانعًا إياهم من الوصول إليه أو إلى زميله الراقد على ظهره فاقدًا للوعي.. تنبهت حواسه دفعة واحدة فنهض باحثًا عن مدفعه الرشاش لكنه لم يجده بجواره فأخرج مسدسه من غمده واتخذ ساترًا بجوار ضابطه وهو يقول له:

- هل ازدادت الأوضاع سوءًا؟!

توقف الضابط عن إطلاق النيران وأسند ظهره إلى الحائط الذي يتخذه ساترًا هو وقائده وقال:

- إنهم ثلاثة فقط يا سيدي، وهم متمركزون في أماكن جيدة ويطلقون منها علينا.

أطلق صادق عدة طلقات من مسدسه ثم تراجع ليجلس بجوار رجله وهو يقول له:

- إذن لقد حوصرنا هنا.

توقف إطلاق النيران فجأة وارتفع صوت واحد من ضباط النخبة وهو يصيح بهم:

- استسلموا الآن.

رد صادق بسخرية شديدة:

- ولماذا الآن؟!

لم يعقب ضابط النخبة على كلامه وإن بدا من صوت الخطوات أنهم قد بدؤوا في تغيير أماكنهم، فأشار صادق برأسه سريعًا إلى مرافقه الذي فهم ما يرمي إليه قائده فنهض بسرعة من مكمنه وأطلق رشقات من مدفعه وفعل صادق المثل أيضًا.

سقط واحد من ضباط النخبة بينما بدأ الضابط الآخر المرافق لصادق بالعودة إلى وعيه تدريجيًّا وفور عودته إلى وعيه، نهض وكأنه لم يكن فاقدًا للوعي والتقط سلاحه مُشاركًا في القتال.

بدأ صادق ورجلاه بالتقدم وهم يطلقون نيرانهم بكثافة شديدة باتجاه مكمن ضباط النخبة الذين لم يستطيعوا مبادلتهم النيران.

كانت الكفة تميل لصالح صادق ورجليه، ولكسر ذلك الحصار المضروب عليهم حاول أحد ضباط النخبة القيام من مكمنه وفور أن فعل ذلك أرداه أحد مرافقي صادق على الفور ولم يتبقَّ إلا ضابط واحد فقط.

أمرهم صادق بوقف إطلاق النار وهو يقول للضابط المُحاصر بلهجة ساخرة:

- هيا استسلم يا رجل وألقِ سلاحك، لا فائدة من المُقاومة، أنا قائدك المُباشر يا رجل وليس هاشم محجوب.

لم يتلق ردًّا فأشار لواحد من رجاله بالتقدم لمكمنه، فتقدم واحد منهم بحذر شديد بينما شعر صادق بعمود من نار يخترق ظهره من الناحية اليمني وسمع صرخة الرجل الذي بجواره وهو يسقط مُدرجًا في دمائه.

كان الألم شديدًا لا يحتمل لكن صادق أبى السقوط هذه المرة فقفز مُتجاوزًا مُرافقه حيث مكمن الضابط، وبمجرد أن رآه أطلق نحوه عدة رصاصات ليرديه على الفور، وقبل أن يلتفت ليواجه آخر ضابط قد تبقى منهم كان الأخير قد أطلق عدة دفعات من مدفعه أصابت إحدى تلك الدفعات رفيق صادق الأخير في مقتل ليسقط غارقًا في دمائه وبينما حاول صادق أن يأخذ ساترًا أصابته عدة رصاصات في صدره، لكن ولا رصاصة نجحت في اختراق درعه الأسود السميك، لكن أثرها على صادق كان صعبًا، فشعر وكأن سيارة كبيرة قد صدمته وألقته للخلف عدة أمتار، ليصطدم بالحائط من خلفه ثم يرتد عنه ليسقط على الأرض وكل عظمة من عظام جسده تئن من الألم.

حاول النهوض لكنه فشل في هذا وقد بدأ في سماع صوت خطوات ضابط النخبة الأخير تقترب منه رويدًا



رويـدًا.. حـاول تحريـك أي طـرف مـن أطرافـه لكنـه لم ينجـح.

وأخـذ صـوت الخطـوات يقـترب منـه أكـثر فأكـثر ووعيـه ينسـحب مـن جسـده وبركـة الدمـاء مـن تحتـه بـدأت تزيـد، وكل شيء مصـيره الـزوال.

****

حُوصر ريان مع سبعة من رجاله في أحد المباني المُتهدمة وسط القتال المُحتدم والمُشتعل بيت رجاله وبين قوات المُستعمرة.

كانت جروحه تنزف بغزارة وحلقه جاف كالصحراء، مُمسكًا سلاحه بقبضة قوية، ووسط الرصاصات وقطع الحجارة الصغيرة المُتطايرة حوله في كل مكان اختفى الخوف من قلبه، ورأى رجاله هذا فيه فزاد من شجاعتهم وتماسكهم.

كان الرجال يتساقطون من حوله كورق الشجر في فصل الخريف، لكنه ظل يقاتل وعقله يعمل بكامل طاقته كي يخرجه هو ورجاله من هذا الحصار.

خرج من لُجة تفكيره عندما صرخ أحد رجاله وهو يبكي:

- سنموت هنا لا فائدة.

صرخ فيه ريان قائلًا:

- لن نموت اليوم يا رجال، لن يموت أحد تماسكوا.

وضع سلاحه أرضًا ونهض من مكمنه سريعًا ليلقي نظرة على القوات المُحاصرة له، لكنه ارتد سريعًا وتناثرت عليه حجارة صغيرة وصاح في رجاله:

- لن يموت أحد اليوم اصمدوا يا رجال.

زحف على كفيه وقدميه حتى وصل إلى الجهة الأخرى من المبنى وألقى نظرة سريعة كان بعدهم على الأرض يقدر بثمانية أمتار، ألقى نظرة سريعة خلفه على رجاله وهم يقاتلون بيأس ونظر إلى الأرض مرة أخرى وهو يفكر في كيفية النزول إلى هناك، قاطع تفكيره صياح واحد من رجاله:

- إنهم يصعدون إلينا.

تراجع الرجل بعد إتمامه صيحته وتراجع جميع من معه حتى وصلوا إلى حافة المبنى المُتهدم ونظروا في ذعر بعضهم إلى بعض بينما صرخ أحدهم قائلًا:

- لن أنتظر حتى يصعدوا إليّ.

نظر إلى الأرض من على حافة المبنى الذي يقف عليه ثم قفز فجأة ولم تمر سوى لحظات قليلة حتى كان قد وصل إلى الأرض، صارخًا بسبب تهشم ساقيه وعموده الفقري.

تراجع الرجال بعد سقوط زميلهم ووقف ريان وسطهم والدموع تتجمع في مقلتيه بينما قال واحد من رجاله:

- فلنلقِ أسلحتنا ولنستسلم لهم، سيتركوننا نعيش.

صرخ فيه ريان:

- أيها الجبان هم آتون في الأصل لقتلك سواء استسلمت لهم أم لا فهم سيقتلونك.

تمسك ريان بسلاحه بقوة وهو يقول:

- لن نكون لقمة سائغة أبدًا لهم.

شعر وقتها برغبة عارمة في البكاء، على أهله على وطنه وعلى والده الذي رحل عن الحياة بيديه.

ورغم الرغبة العارمة في البكاء التي تجتاح أحشائه لكنه شعر وكأن دموعه قد جفت، ازداد غضبه ومقته فصاح في رجاله:

- لن أقول مزيدًا من الشعارات التي لا تسمن ولا تغني من جوع، كل ما سأقوله لكم يا رجال، إنكم هنا تدافعون عن أولادكم ونسائكم، هم يريدون سرقتكم وسرقة أطفالكم، هم يريدون تدميركم، يريدونكم ماشية لهم.

مع نهاية حروف كلماته برزت خوذة واحد من جنود المُستعمرة من خلف بقايا الحائط المُتهدم فرفع ريان سلاحه وأطلق دفعات من الرصاص أصابت كلها رأس الجندي ودفعته إلى الخلف ليسقط، لم يتراجع ريان بعد إسقاطه للجندي بل اتجه ناحية المكان الذي سيصعد عبره جنود المُستعمرة وبدأ في إطلاق النيران بغزارة تجاه الجنود الصاعدين إليهم، وعندما رآه رجاله حذا كل منهم حذوه دون تفكير أو تردد.

****

توقف إطلاق النيران لدقائق قليلة توترت فيها أعصاب هاشم محجوب، وتعلق بصره بباب حجرته متوقعًا دخول ملك الموت منه في أي لحظة ليقبض روحه.

تملكته رغبة عنيفة للنهوض وتشغيل شاشات المُراقبة الأمنية لمعرفة ما يدور حوله داخل مقره لكنه قاوم تلك الرغبة بكل قوته، لكنه لم يستطع منع بصره من التعلق بباب حجرته. رغم برودة الغرفة المكيفة من حوله، تكونت حبات العرق على جبهته، وتسارعت دقات قلبه إلى حد مؤلم لكنه تجاهل ألمه وحاول الإنصات لصوت أي خطوات قادمة عبر الممر المؤدي إلى حجرته. نظر إلى درج مكتبه الذي يحوي مسدسًا لم يسبق قط وأن استعمله طوال حياته. وببطء شديد مد يده ناحية المكتب لكن يده توقفت فجأة مع تجدد أصوات إطلاق النيران مرة أخرى وقد عادت أصوات الرصاص مرة أخرى إلى الأجواء ولكنها أكثر قربًا هذه المرة. فأيقن هاشم بأن الخطر قريب منه هذه المرة، قريب إلى حد أعاد له ذكريات القبو عندما كان محاصرًا في القبو الضيق أثناء الغارات.. لكن هذه المرة كان يعلم أن إنقاذه سيتطلب أكثر من تدخل شركة أمريكان جينوم لصالحه. السماء وحدها هي من تستطيع إنقاذه هذه المرة..

****



لم تـدم غيبوبتـه سـوى للحظـات قصـيرة انتفـض جسـده بعدهـا وصـوت الخطـوات يقـترب منـه، أجـبر جسـده عـلى النهـوض مـن مرقـده وبعينـه دار سريعًـا حولـه مُحـددًا أقـرب سلاح إليـه، كان عـلى يمينـه فتدحـرج حتـى وصـل إليـه لحظـة وصـول آخـر ضبـاط النخبـة المُكلفـين بحراسـة هاشـم محجـوب إليـه، رفـع صـادق مدفعـه الآلي كذلـك فعـل ضابـط النخبـة، وأطلـق كل منهـما عـلى الآخـر، لم يحتمـل درع صـادق كل تلـك الصدمـات المُتتاليـة فتهـاوى مُتحطـمًا لتنفـذ منـه الرصاصـات إلى صـدره دافعـة إيـاه للخلـف سـاقطًا وهـو يكتـم صيحـة ألمـه بصعوبـة شـديدة. بينـما لم تنجـح طلقاتـه في تـرك أي أثـر عـلى جسـد الضابـط الـذي تقـدم بظفـر ناحيـة جسـد صـادق المُلقـى عـلى الأرض والدمـاء تصنـع تحتـه بركـة مـن الأحمـر القـاني، ثـم توقـف وهـو يصـوب سـلاحه بإحـكام ناحيـة صـدر صـادق المكشـوف ثـم ضغـط عـلى الزنـاد..

****

شارفت ذخيرة ريان على النفاد فصرخ بكل ما يعتمل بداخله من انفعالات:

- ذخيرة، أريد ذخيرة.

تبادل معه رجاله نظرات الحزن والحسرة واليأس فقد استمر قتالهم ضد العشرات من جنود المستعمرة لما يزيد على الساعة، وقد قاتلوا جميعًا بشجاعة واستبسال شديدين.

لكن ذخيرتهم تتناقص نظر ريان حوله نظرة أخيرة ثم رمى سلاحه في وجه أقرب جنود المُستعمرة إليه وانقض عليه مُتلاحمًا معه في قتال عنيف، ورغم بنيته الجسدية الضعيفة، لكن الغضب الذي يجتاحه أكسبه قوة هائلة فأطاح به بعد ثلاث ضربات ثم أمسك سلاحه قبل أن يسقط معه، وبدأ في إطلاق النيران..

****



سمع صادق صوت تكة معدنية مُميزة تُعلن فراغ السلاح من ذخيرته.. في الأوقات العادية كان ذلك الصوت كفيلًا بتكدير مزاجه تمامًا لكن في تلك المرة، فذلك الصوت يعني حياة جديدة له.

نهض بأقصى سرعة يستطيعها وهو يستل من حزامه خنجرًا ماضيًا مطوحًا إياه في وجه ضابط النخبة، الذي تراجع للخلف ليلقي سلاحه ويستل خنجره بدوره ويقف أمام صادق مُباعدًا بين قدميه في وقفة قتالية.

كان صادق يقف بصعوبة بالغة بسبب إصاباته وجروحه التي تنزف بغزارة، رؤيته باهته، مُشوشة تصطبغ بالأحمر. حاول التماسك وهو يتقدم ببطء تجاه الضابط شاهرًا خنجره أمام وجهه، في الأوقات العادية وفي ساعات التدريب لن يستغرق صادق سوى دقيقتين على الأكثر للتغلب على هذا الضابط، لكن في هذه الساعة كل شيء مُختلف.

انقض الضابط مُحاولًا طعن صادق الذي مال جانبًا موجهًا طعنة إلى جانب الضابط في المنطقة الضعيفة من درعه لكنه تفاداها بمهارة ثم تراجع إلى الخلف في نفس اللحظة التي انقض عليه صادق فيها موجهًا طعنة أخرى إلى وجهه، ووصلت الضربة إلى هدفها، ورغم أنها لم تسبب ضررًا يذكر في خوذة الضابط لكنه تراجع إلى الخلف والدنيا تميد به بسبب قوة ضربة صادق.



استمر الكر والفر لدقيقة أخرى حتى شعر صادق بعدم قدرته على الوقوف وفي إحدى هجماته خانته قدماه ليسقط أمام الضابط الذي خلع خوذته وعلى وجهه ملامح الظفر والانتصار ومن جبهته سال خيط رفيع من الدم.

تقدم الضابط ناحية صادق ثم وقف خلفه وأمسكه من شعره إليه ليجبره على الركوع وهو يضع خنجره على حنجرته، وخيل لصادق بأنه يسمع ضحكات هاشم محجوب الساخرة..

****

تناقص عدد رجال ريان السبعة إلى اثنين فقط، وما زال القتال متواصلًا، نفذت ذخيرة أحد رجاله فرمى مدفعه وهو يستل سيفًا قصيرًا قبيحًا من حزام بنطاله..

توقف جنود المُستعمرة في لحظتها عن الصعود إليهم فأسند ريان ظهره إلى الجدار وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، وجراحه العديدة التي تنزف أصابته بدوار عنيف كان ينتهك رأسه، لكنه ظل مُتماسكًا وهو يقول بصوت مُتعب:

- لم نكن لقمة سائغة لهم على أي حال.

قالها وهو ينظر إلى جثث رجاله الخمسة وإلى العشرات من جثث الرجال مرتدين السواد التي أصبح يعج به المكان.

قال له أحد رجاله من وسط لهاثه وهو يتأكد من وجود ذخيرة في سلاحه:

- أعتقد أننا قتلنا منهم ما يزيد على الخمس وحدات يا زعيم.

ابتسم ريان رغم ألمه وهو يقول:

- سينتصرون، ولكن انتصارهم سيكون بطعم الهزيمة، لن يعود لهم جيش بعد الآن، ولن تقوم لهم قائمة بعد اليوم.

من بعيد كان صوت إطلاق الرصاص يأتي مُتقطعًا، تحرك ريان بحذر لينظر من حافة المبنى حيث كان يصعد جنود



المُستعمرة، إلا أن واحدًا من رجاله أمسكه وتقدم هو بدلًا منه، سار ببطء. يؤخر قدمًا ويقدم الأخرى، ثم استند بكفيه إلى السور وبحذر شديد أطل برأسه إلى الخارج ولم تمضِ لحظات حتى انفجر رأسه كثمرة ناضجة أكثر من اللازم.

تناثرت الدماء وقطع من مخ الرجل مختلطة بعظام جمجمته على وجه ريان وعلى ملابسه.

رقد ريان والرجل الأخير على الأرض، وبجنون أخذ ريان يبحث عن ذخيرة لسلاحه وفعل رجله المثل.

لقم ريان سلاحه في نفس اللحظة التي صعد فيها عبر الحافة ثلاثة جنود من الحراس، أطلق ريان رصاصاته بمجرد رؤيتهم مُصيبًا اثنين منهم في مقتل، بينما قُتل رجله في بداية الهجوم، وفي نفس اللحظة أصيب سلاح ريان برصاصة تسببت في انفجاره، ليسقط على الأرض برؤية مشوشة باهتة، رأى الجندي يقترب منه وهو يوجه فوهة سلاحه نحو رأسه، أغمض ريان عينيه بقوة وسمع دوي الرصاصة.

****



في نفس اللحظة التي وضع فيها ضابط النخبة خنجره على رقبة صادق، طوح الأخير يده في حركة يائسة أودعها كل ما يملك من قوة وخبرة باتجاه وجه الضابط الذي فوجئ بتلك الضربة ولم يستطع تفاديها. لينغرس الخنجر عميقًا في عينه اليسرى صانعًا فيها فجوة دامية، زحف صادق مُبتعدًا عن الضابط الذي سقط على ركبتيه وهو يطلق خوارًا عجيبًا، ولم تمضِ سوى لحظات حتى همدت حركته تمامًا.

شعر صادق بالدم يسيل دافئًا من جرح رقبته ليغرق جسده بأكمله.

برد عنيف يجتاح جسده، حاول النهوض لكنه فشل يسمع صوت قائد الدفاع الداخلي وهو يخبره عبر اللاسلكي بنجاح خطتهم وبأن المُستعمرة قد أصبحت تحت سيطرتهم رغم خسائرهم الفادحة، حرب خاسرة أجبرهم هو على خوضها.

حربه هو، حربه الخاصة التي لا يخرج أحد منها مُنتصرًا، للمرة الثانية حاول صادق النهوض مُستندًا إلى الحائط الذي لم يبخل عليه بمساعدته.

نهض وهو يترنح ويشعر أن البرودة تجمد أطرافه، رغبته عارمة في الاستلقاء أرضًا والبكاء حدادًا على من قتلهم أو



مـن تسـبب في مقتلهـم هـذا اليـوم كانـت قويـة لكنـه كبـح جماحهـا بعزيمـة حديديـة، وبخطـوات أشـبه بخطـوات طفـل يتعلـم خطواتـه الأولى، بـدأ صـادق في صعـود درجـات السـلم المـؤدي إلى الطابـق الثالـث حيـث مكتـب هاشـم محجـوب.

****

لم يشعر ريان بأي ألم سوى وخزة بسيطة أعلى صدره، فتح عينيه ببطء ليجد الجندي الذي أمامه قد سقط وسمع صوتًا مألوفًا من خلفه يقول له:

- أأنت بخير يا ريان؟!

بصعوبة شديدة ميز ريان صوت صديقه سالم فحاول النهوض ليراه لكنه فشل وهو يقول:

- لقد أصابني هذا الوغد برصاصة أعتقد أنها تعلو قلبي بسنتيمترات قليلة، أعتقد أنني نجوت.

برؤية مشوشة رأى سالم يجثو على ركبتيه وهو يتفحصه والجزع يرتسم جليًّا على وجهه فابتسم ريان بألم وهو يقول بصوت فيه كل تعب الدنيا:

- اعتقادي خاطئ هذه المرة أليس كذلك؟

اغرورقت عينا سالم بالدموع ولم يرد عليه وهو يحاول بكفيه أن يمنع الدماء من أن تتسرب من جرح صدره فعاد يقول:

- كيف أبلينا؟!

رد سالم بصوت متحشرج:

- أبلينا بلاءً حسنًا في القتال، لقد انسحب الحراس إلى خارج الأطلال، ربما يعدون هجومًا جديدًا ولكن لا يهم، لقد كبدناهم خسائر فادحة للغاية.

سعل ريان وتناثرت الدماء من بين شفتيه وبعد أن هدأ سعاله قال:

- إذن فقد قضينا عليهم؟!

بمرارة رد سالم:

- وهم أيضًا قضوا علينا!

أراح ريان رأسه على الأرض وبضعف شديد أزاح يد سالم من على صدره وهو يقول له:

- تعادلنا إذن هذه المرة.

ابتعد سالم عنه وجلس القرفصاء وهو يمسح بكفيه دموعه المختلطة بدمائه وهو يسأله:

- ما الفائدة من كل هذا يا ريان؟!

بدأ جسد ريان بالانتفاض ولكن رغم هذا وبصعوبة أجابه:

- أن ننتهي، أن ننظف قذارتنا، لنجعل من يأتي بعدنا يستريح، نحن المشكلة ونحن حلها.

أسبل عينيه وهو يستطرد:

- لقد حللت الجزء الخاص بمشكلتي وأتعشم أن يفعل صادق المثل، لقد انتهت اللعبة يا صديقي.

أشاح سالم بوجهه بعيدًا وهو يقول:



- كان يمكـن أن ندير اللعبة بطريقـة أخـرى، كان يمكننـا الانتصـار أو حتـى البقـاء في أماكننـا بـلا حـراك، لمـاذا اخـترت الطريـق الأطـول والأصعـب يـا ريـان، كان يمكنـك فقـط أن تبتعـد عـن الصـورة، ترحـل بعيـدًا أنـت وبقيـة مـن يسـببون المشـاكل، وتتركوننـا نعيـش وندبـر أمورنـا بمـا نـراه مناسـبًا لنـا، لمـاذا كل تلـك الخسـائر، لمـاذا؟!

أنهـى عبارتـه ونظـر إلى ريـان ليجـد وجهـه قـد شـحب وبهـت وانقطـع تنفسـه تمامًـا. بلهفـة هـب نحـوه وهـو يرجـه بعنـف مُناديًـا عليـه يرجـوه أن يـرد.

بـكى سـالم كـما لم يبـكِ مـن قبـل طـوال حياتـه القاسـية الداميـة. وضـع رأسـه عـلى صـدر صديقـه وزعيمـه وبـكى.

ورغـم حزنـه الكبـير شـعر بـأن الحريـة نـشرت نسـيمها عـبر أطـلال القاهـرة، التـي كُـسر آخـر أقفـال زنازينهـا في تلـك اللحظـة، ورغـم مشـاعره المُتضاربـة مـا بـين الفرحـة والحـزن، إلا أن مـا أراد أن يفعلـه سـالم وقتهـا هـو البـكاء، البـكاء فحسـب..

****

تعب من السير وطول المسافة، هو من لم يشتكِ من قبل من طول مسيرة أو وعورتها، يتمنى الآن السقوط أرضًا.. جسده يلح عليه بالسقوط، عقله يلح عليه بالاستسلام، لكن قلبه يرفض ترك جزئه من القصة مُعلقًا، مُمسكًا بخنجره الماضي وبخطوات مترنحة، وبخط من الدماء رسم مسيرته وصل أخيرًا إلى باب مكتب هاشم محجوب، الذي كان مفتوحًا، شعر صادق بفخ ما عندما دفع الباب ونظر إلى داخل غرفة المكتب بحذر ليجد هاشم محجوب جالسًا على مكتبه في هدوء مُغمضًا عينيه، وبمجرد دخوله إلى الغرفة بادره هاشم قائلًا:

- لا تقلق، أنا أنتظرك فقط.

دار صادق ببصره سريعًا حوله وهو يتقدم ببطء مُحاولًا إخفاء آلامه بينما عاد هاشم يقول:

- أتعرف شيئًا، طوال تلك الساعتين وأنا أفكر، ما الفرق الذي بينك وبيني وفي النهاية.

قطع هاشم كلامه وهو يفتح عيناه ناظرًا إلى وجه صادق الذي اختفت ملامحه خلف الدماء ثم قال بهدوء وبابتسامة صافية:

- لا فرق بيني وبينك يا صادق كلانا كان يريد أن يفعل الصواب من أجل المصلحة، أنا وأنت كنا ندافع عن جدران هذا المكان ولكن كل منا له طريقته الخاصة.

شعر صادق برغبة عارمة في السقوط أرضًا لكنه قاوم تلك الرغبة حتى وصل إلى مكتب هاشم محجوب ثم استند إليه في محاولة أخيرة كي لا يقع.

لفت انتباهه ذلك المسدس الفضي الجميل الموضوع على طرف المكتب ناحيته هو، ولاحظ هاشم نظراته فحافظ على ابتسامته وهو يقول:

- لن أحبس، لا يجب أن أظل على قيد الحياة لقد انتهى دوري، وأنا لا أود الموت ذبحًا بخنجرك الحاد هذا، أريد ميتة نظيفة سريعة بلا ألم، رصاصة واحدة في منتصف الجبهة ستنهي الأمر، هيا يا حضرة القائد التقط المسدس واقتلني هذا أمر..

شعر صادق بصعوبة شديدة في التنفس، وبأن حلقه أصبح جافًّا كالصحراء، وبأصابع هرب الدم من مفاصلها حمل صادق المُسدس الذي بدا له لحظتها بأنه يزن طنًّا على الأقل، حتى إنه قد واجه صعوبة في توجيه فوهته ناحية هاشم الذي نهض ببطء من خلف مكتبه وهو يقول بينما يستدير موليًا ظهره إلى صادق الذي قال بصعوبة بالغة:

- أنت السبب في كل ما وصلنا إليه.

فتح هاشم النافذة خلف مكتبه على مصراعيها وهو يستنشق هواء معبقًا برائحة الدخان والبارود والدم ثم قال بعد أن أغمض عينيه:

- أنا السبب، أنت السبب، ريان السبب، الشيخ غنام السبب، أحمد سلام السبب، كلنا أسباب أدت إلى نفس النتيجة.

صمت للحظات ثم عاد يقول:

- الموت نتيجة حتمية، نهاية منطقية للإنسان، كذلك بجانب منطقيتها فهي نهاية ملحمية تليق بجنسنا، نحن المتحكمون في كل شيء، نحن الأقوى.

وبدأت المرارة تغزو صوته وهو يقول:

- لقد انتهت القاهرة، سقطت القاهرة مرة أخرى والفضل لنا، لقد نجحنا في ما فشلت فيه حرب عالمية يا رجل و...

قاطعه صادق بآخر أنفاسه وهو يقول له:

- لا. لن تسقط القاهرة مرتين أبدًا يا هاشم، لن تسقط.

وبآخر ما تبقى له من قوة اعتصر صادق زناد المسدس مرة واثنتين وثلاثًا، وظل يطلق الرصاص حتى بعد سقوط هاشم محجوب صريعًا.

وببكاء بمذاق ولون الدم سقطت عبرات صادق الأخيرة، وفي يده اليسرى قبض على ورقه سقطت بسقوطه على الأرض.

ومن بعيد سمع أصواتًا مألوفة تناديه، كلمات مُتداخلة كثيرة لا معنى لها.

وفي آخر لحظات حياته أدرك صادق أن سقوطه هو قد منع سقوط القاهرة لمرة ثانية.. أو هكذا ظن..

**النهاية**

**١/١١/٢٠١٩م**










٦ عمارات العبور، مدينة نصر، القاهرة

011 219 023 69 - 01007224444